دكتور جمال الدين الشيال

تاريخ مصر الإسلامية

الجزء الثاني



دار المعارف

الكتــاب الأول

العصر الأيــوبى

المقـــدمة

«الشرق الأوسط قبيل قيام الدولة الأيوبية»

قامت الدولة العباسية فى سنة ١٣٢ هـ، وقد توالى على عرشها عدد من الخلفاء العظام أمثال المنصور والمهدى والرشـيد والمـأمون فحـافظوا علـى كيانـها وأملاكـها وردوا عنـها غـارات الـروم الشرقيين وأحرزوا ضدهم الانتصارات الكثيرة.

ثم خلف من بعدهم عدد من الخلفاء أقل شأنًا وأضعف شخصية، فاســتبد بـأمورهم والقـواد، وانفصل عن الدولة فـى القرن الثـالث كثـير مـن أطرافـها، فقـامت فـى المغـرب الأقصـى دولـة الأدراسة، وفى أفريقية دولة الأغالبــة، واسـتقل بمصـر الطولونيـون ثـم الإخشـيديون، وبـاليمن الزياديون، ثم ورثت دولة الفواطم ملك الأغالبة فى نهاية القرن الثـالث الهجـرى ولم تلبـث أن فتحت مصر وجعلتها مقر حكمها فى منتصف القرن الرابع الهجرى ثم ضمت إليها ملـك اليمـن وبلاد الغرب والشام.

وفى المشرق قامت الدولة الطاهريـــة ثـم الدولتـان الصفاريـة والسـامانية، وهـى دول اسـتقلت بأطراف الدولة العباسية الشرقية خلال القرن الثالث الهجرى. وفى منتصف القرن الرابـع قـوى شأن البويهيين الشـيعيين، ودخلـوا بغـداد نفسـها واغتصبـوا السـلطة فـى أيديـهم، ولم يصبـح للخليفة العباسى فى عهدهم إلا الصفة الرسمية والمكانة الروحية.

وفى منتصف القرن الخامس الهجرى ضعف شأن البويهيين وقضى عليهم نـهائيًا السـلاجقة ودخلوا بغداد سنة ٤٤٧ هـ.

وهكذا لم يكد القرن الخامس يشرف على منتصفه حتى كانت الدولة الإسلامية تبدو وكأنها جدار يريد أن ينقص، توالـت عليـها الانفصـالات مـن المغـرب والمشـرق، وتعـددت الخلافـات فأصبحت ثلاثًا، فى الأندلس ومصر والعراق، يعنينا منها خلافنا المشرق فى مصر والعراق.

وهاتان كانتا قد نـال منـهما الضعـف والإعيـاء فـى أواخـر القرن الخـامس الهجـرى. وكـان مصيرهما ينتظر إحدى النتيجتين الحتميتين: إما حربيًا جديـدًا لم تفسـده المدنيـة، يبـدل هـذا الضعف، ويلم الشمل، ويوجد ما تفرق، ويقود إلى النصر، وإما غزوًا أجنبيًا يقضـى علـى البقيـة الباقية من شتات هذا الملك المحطم، ويرث هذا المجد الذى كدت الأجيال فى إقامة صرحه.

وقد كان ممثلو هذين الاحتمالين يبدون حينذاك على الأفق البعيد، يمثل الأول الأتراك السلاجقة ويمثل الثانى الصليبيون، وقد كان من حسن حظ العالم الإسلامى أن سبق السلاجقة إلى الظهور، ولو أن الصليبيين تقدموا أولا لتغير وجه التاريخ.

تقدم السلاجقة أولاً ودخلوا بغداد فى سنة ٤٤٧ هـ، ثم لم يلبث أن لموا الشمل وضموا الشتات، فأخضعوا لنفوذهم بلاد الفرس والجزيرة والشام وآسيا الصغرى، وغدت أملاك الخلافة العباسية تكون دولة واحدة من جديد.

فالقوة الإسلامية الحقيقية التى كانت تسيطر على شؤون الشرق الأدنى فى أواخر القرن الخامس الهجرى وأوائل القرن السادس هى دولة السلاجقة التى كان ملكها يمتد فى ذلك الوقت من حدود الأفغان شرقًا إلى حدود الدولتين البيزنطية والفاطمية غربًا، وقد برز من ملوك السلاجقة الأوائل ثلاثة ملوك عظام، هم طغرل بك وألب أرسلان، وملك شاه، وقد قنع هؤلاء فى سياستهم الداخلية بالسلطان الدنيوى الفعلى وتركوا للخليفة العباسى كل مظاهر السيادة الإسمية الروحية، أما فى سياستهم الخارجية وخاصة مع دول الروم الشرقية فقد لجأوا إلى السيف، وجعلوه الحكم بين الدولتين، وأحرزوا ضد هذه الدولة انتصارات كثيرة متتالية، كان أهمها النصر الذى أحرزه ألب أرسلان على الإمبراطور (رومانوس) فى موقعة (ملاذ كرد) سنة ٤٦٤ هـ سنة ١٠٧٢ م، والذى انتهى بأسر الإمبراطور وهو جريح. وهكذا تقدم المسلمون لأول مرة فى أملاك الدولة البيزنطية، واستولوا على أجزاء واسعة من آسيا الصغرى وضموها لأملاكهم.

وبانقضاء عهد هؤلاء السلاطين العظام الثلاثة تفككت أوصال الدولة السلجوقية الموحدة، وتفرقت إلى دويلات صغيرة، كان أهمها دولة السلاجقة العظام فى خراسان، ودولة سلاجقة كرمان، ودولة سلاجقة العراق، ودولة سلاجقة الشام، وأخيرًا دولة سلاجقة الروم فى آسيا الصغرى.

هذه هى الظاهرة الأولى الواضحة فى تاريخ الشرق الأدنى فى أواخر القرن الخامس. وهى ظهور الأتراك السلاجقة وسيادتهم على بلدان هذا الشرق الأدنى وتقدمهم فى قلب آسيا الصغرى.

أما الظاهرة الثانية فهى ظهور الأتابكة، وأتابك، كلمة تركية تتكون من لفظين: أتــا، وبك، وأتا معناها أب أو مربى، وبك معناها أمير، وأتابك لفظ كان يطلق على الأمراء أو القواد الذين كان يعهد إليهم تربية أمراء السلاجقة حديثى السن وتدريبهم على شؤون الحكم والملك. وذلك أن الدولة السلجوقية لما تفككت وحدتها وانفصلت إلى دويلات كان يليها بعض الأمراء صغار السن فكان سلاطين السلاجقة يعهدون إلى كبار أمراء جيوشهم وقوادهم بالإشراف على شؤون هؤلاء الصغار وتربيتهم على شؤون الحكم والحرب.

ثم استبد بعض هؤلاء الاتابكة بالحكم واستقلوا ببعض أجزاء الدولة، وكونوا دويلات كثيرة فى القرن السادس الهجرى ورثت بعض ملك السلاجقة، وكان أبرز هؤلاء الأتابكة عماد الدين زنكى صاحب الموصل وحلب، وابنه نور الدين محمود بن زنكى، وقد كان لهذين البطلين جهود محمودة فى مقاومة الصليبيين فى الشام، وهذا ينقلنا إلى الظاهرة الثالثة الواضحة فى تاريخ الشرق الأدنى فى ذلك الحين.

ففى أواخر القرن الخامس الهجرى، فى سنة ٤٦٠ هـ - ١٠٩٦ م أغار الصليبيون على سواحل الشام بحملتهم الأولى، واستطاعوا أن يقتطعوا هذه السواحل ويقيموا بها دويلات لاتينية أربع هى: إمارة الرها، وإمارة أنطاكية، وإمارة طرابلس، وإمارة بيت المقدس.

وقصة هذه الحروب فى مبدأها تتلخص فى أن أباطرة القسطنطينية عندما ضاقوا ذراعًا بحملات السلاجقة وانتصاراتهم أرسلوا يستغيثون بمسيحى الغرب، وأرسل هذه الصرخة الإمبراطور الكسيوس، ووصلت إلى البابا (أربان الثانى) وهو فى مجلس دينى فى (كليرمون) سنة ١٠٩٥ م، وقد نسى الإمبراطور أو تناسى بدعوته هذه الخلافات الشديدة التى كانت قائمة بين الكنيستين الشرقية والغربية وأرسل إلى البابا يدعوه إلى نصرة المسيح واسترداد بيت المقدس من السلاجقة. وانفض المجمع الدينى، ونادى البابا نداءه التاريخى، فوصل إلى كل الأسماع فى أنحاء أوربا الغربية، وألهب نار الدعوة بطرس الراهب، فتسارع الشباب من مسيحيى أوربا، وتكونت الحملة ووصلت إلى المشرق وحققت أهدافها بتكوين هذه الإمارات.

وأثار هذا النصر الصليبى نفوس المسلمين فى الشرق، ولم تكن الخلافتان العباسية والفاطمية من القوة بحيث تستطيعان رد هذا العدوان، فقام بالجهد عنهما عماد الدين زنكى، وانتصر على الصليبيين انتصارات رائعة، واستطاع أن يسترد إمارة الرها (٥٣٩ هـ - ١١٤٤ م)، وكان لإسترداد الرها صدى قوى فى أوربا كان هو الدافع القوى لإرسال الحملة الصليبية الثانية.

ووصلت هذه الحملة وقد مات زنكى وخلفه ابنه الدين محمود، فقاومها مقاومة جبارة، وأحرز فى نضاله مع الصليبيين انتصارات رائعة لا تقل شأنًا عن انتصارات أبيه.

وفى بلاد زنكى ونور الدين نشأ صلاح الدين الأيوبى وأبوه نجم الدين، وعمه أسد الدين شيركوه، فما قصة اتصال هؤلاء الأبطال بالأتابكة؟

البـــاب الأول

صـــلاح الدين

من مولده إلى أن ولى الوزارة للعاضد الفاطمى فى القاهرة

١ -نشأة صلاح الدين الأولى.

٢ - مصـر بـين شـقى الرحـى، الصـراع بـين قـوى نـور الديـن وقـوى الصليبيـين لامتلاك مصر.


obeikandl.com

الباب الأول

صـلاح الدين

من مولده إلى أن ولى الوزارة للعاضد الفاطمى فى القاهرة

- ١ -

نشأة صلاح الدين الأولى

أسرة صلاح الدين أسرة كردية من قرية دوين بالقرب من أذربيجان، وقد تولى أبوه نجم الدين دزدارية قلعة تكريت بمساعدة مواطن له يدعى بهروز كان له شأن فى حكومة بغداد.

وفى أوائل القرن السادس استنجد السلطان مسعود السلجوقى بزنكى - صاحب الموصل - ضد أخيه سلجوق شاه. غير أن زنكى هزم بنجدته عند مدينة تكريت وقد تقدم نجم الدين أيوب لمساعدة زنكى فى محنته، وقدم له السفن لعبور نهر دجلة، وكان لهذه المروءة آثار خطيرة، فقد أبعدت نجم الدين عن مركزه، لأن مساعدته لزنكى اعتبرت عصيانًا للدولة. فترك نجم الدين وأخوه أسد الدين تكريت فى سنة ٥٣٢ هـ - ١١٣٨ م، وقصدا زنكى فى الموصل، ودخلا فى خدمته. وفى الليلة التى غادر فيها نجم الدين تكريت ولد له يوسف صلاح الدين.

وقد كانت سياسة زنكى تهدف لتأليف جبهة إسلامية متحدة متكاتفة ليتمكن من مناوأة الصليبيين، ولهذا نجده يحارب إمارة دمشق واستطاع قائده نجم الدين أيوب الاستيلاء على إحدى المدن التابعة لها وهى بعلبك فى سنة ٥٣٣ هـ/ ١١٣٩ م فعينه حاكمًا عليها ففى بعلبك قضى صلاح الدين طفولته الأولى.

وتوفى زنكى سنة ٥٤١هـ - ١١٤٦ م فانقسم ملكه بين ولديه: سيف الدين غازى فى الموصل ونور الدين محمود فى حلب، وفى أوائل عهد نور الدين حاول أصحاب دمشق استرداد بعلبك. ولم يقو حاكمها نجم الدين على مقاومتهم، وقبل أخيرًا أن يظل حاكمًا عليها مع تبعيته لدمشق نفسها مدة يشارك فى سياستها حتى صار القائد العام، ووجود نجم الدين فى دمشق ومركزه الجديد بها كان مما ساعد نور الدين على الاستيلاء عليها نهائيًا فى سنة ٥٤٩ هـ - ١١٥٤ م.

ففى دمشق قضى صلاح الدين شبابه الأول. أما الأخ الآخر أسد الدين شيركوه فقد بقى فى خدمة نور الدين فى حلب. واتصال الأخوين بنور الدين وخدمتهما له هو الذى مهد لاتصالهما واتصال صلاح الدين بمصر.

- ٢ -

مصر بين شقى الرحى
الصراع بين قوى نور الدين وقوى الصلبيين
لامتلاك مصر

حكمت الدولة الفاطمية مصر قرابة قرنين من الزمان، وكانت الدولة فى القرن الأول منها قوية مرهوبة الجانب، يحكمها خلفاء عظام، أما فى القرن الثانى فقد أصابت الدولة عوامل الضعف والاضمحلال، ويرجع هذا الضعف إلى أسباب كثيرة لعل أهمها:

تعدد الأجناس المكونة للجيش المصرى وما كان يقوم بين هذه العناصر بعضها البعض الآخر من صراع، فقد كان الجيش الفاطمى عند قدومه إلى مصر مكونًا فى جملته من المغاربة، ولما ولى الخليفة العزيز بالله الخلافة اصطنع الجند من الأتراك ومنذ عهد الحاكم بأمر الله بدأ دخول السودانيين فى الجيش، ثم كثر عددهم فى عهد المنتصر بالله - فقد كانت أمه سوداء - ولم تكد الدولة تقارب نهايتها حتى كانت غالبية الجيش الفاطمى من الجند السودانيين.

كان معظم الخلفاء الفاطميين فى هذا القرن الثانى أطفالاً صغار أضعاف الشخصية، فاستبد بشئون الحكم دونهم الوزراء حتى عرف هذا العصر الفاطمى الثانى بعصر الوزراء العظام، ونتيجة لهذا أصبح منصب الوزارة محط أطماع قواد الجيش وكبار رجال الدولة. فقامت بين بعضهم والبعض الآخر منافسات دامية فى سبيل الوصول إلى هذا المنصب، ويصف هذه الحالة ابن واصل وصفًا قويًا فى قوله: «والحكم للوزراء من قهر بالسيف أخذها، والخلفاء بمصر تحت قهرهم، وكان الأمر كذلك من أيام المنتصر بالله».

وكان النزاع الذى قام بين شاور (الوزير) وضرغام (صاحب الباب) هو حلقة من حلقات هذه المنافسة، وقد انتهى النزاع بين الرجلين بانتصار ضرغام وتوليه الوزارة، وفر شاور إلى الشام، ولجأ إلى حاكمها نور الدين محمود بن زنكى (فى ذى الحجة ٥٥٨ هـ - ١١٦٣ م) وسأله أن يرسل معه جيشًا إلى مصر ليساعده فى نضاله مع خصمه ضرغام، وفى إعادته إلى منصب الوزراء وعرض أن يدفع له - مقابل هذه المساعدة - ثلث ايرادات مصر وأن يدين له بالولاء إن عادت إليه مقاليد الحكم والوزارة.

وتقول المراجع إن نور الدين رحب بشاور واستضافه، وأنه تردد أول الأمر فى إجابته إلى مطلبه، ولكنه لم يلبث أن وافق، ففى هذه الموافقة تحقيق لخطته التى كان يهدف من ورائها إلى توحيد الجبهة الإسلامية وتوطئة لمقاومة الخطر الصليبى والقضاء عليه.

الحملة الأولى :

وأرسل نور الدين مع شاور جيشا بقيادة قائده أسد الدين شيركوه، وصحب أسد الدين معه ابن أخيه يوسف صلاح الدين.

علم ضرغام بخروج هذا الجيش وقرب وصوله إلى مصر فأصابه الفزع، إذ لم يكن الجيش الفاطمى فى ذلك الوقت فى حالة تمكنه من المقاومة أو احراز النصر، وأرسل ضرغام الرسائل إلى عمورى (أو مرى أو مورى Amalaric ملك بيت المقدس يطلب مساعدته ضد قوى نور الدين على أن يدفع له مبلغًا سنويًا من المال، وقد وافقت هذه الدعوة هوى فى نفس عمورى، فبدأ يعد جيشًا لمساعدة درغام.

غير أن أسد الدين شيركوه لم يلبث أن وصل سريعًا - وفى معينه شاور إلى مصر وانتصر على جيش ضرغام فى الشرقية، ثم على أبواب القاهرة، وتفرق عن ضرغام قواده وأعوانه، ثم قبض عليه وقتل، وأعيد شاور - نتيجة لهذا النصر - إلى دست الوزارة.

غير أن شاور كان من خلقه الغدر والخيانة، فلم يلبث أن حنث بوعده ورفض أن يدفع لشيركوه المبلغ المتفق عليه، بل وطلب إليه الانسحاب بجيشه والعودة إلى الشام، وآلم شيركوه مسلك شاور وأبى أن يستمع له، وعسكر بجيشه عند مدينة بلبيس وتحصن بأسوارها، وهنا فعل شاور ما فعله ضرغام من قبل، فلجأ إلى عمورى ملك بيت المقدس وأرسل يستنجد به، ورحب عمورى بالدعوة، وأسرع فى هذه المرة بالخروج بجيشه لأنه كان يخشى أن يملك نور الدين مصر فتصبح قوى الصليبيين وأملاكهم فى الشام محاصرة بقوى نور الدين من الشمال والجنوب.

اتجه عمورى بجيشه فى سنة ٥٥٩ هـ - ١١٦٤ م نحو مصر وحاصر أسد الدين فى بلبيس شهورًا ثلاثة، وأحس نور الدين بما يهدد جيشه فى مصر من خطر، فبدأ يضغط على أملاك الصليبيين فى الشام، وهاجم بانياس، مما جعل عمورى يفكر جديًا فى الانسحاب، واتفق أخيرًا مع شيركوه على أن ينسحبا معًا وفى وقت واحد من مصر.

الحملة الثانية:

عاد الرجلان إلى الشام وكل منهما يفكر تفكيرًا جديًا فى العودة إلى مصر ويلتمس الأسباب لهذه العودة، وأخذ أسد الدين يلح على سيده نور الدين أن يزوده بجيش أكثر عددًا وأوفر عدة للمسير إلى مصر، فقد لمس بنفسه مبلغ ما كانت تعانيه من ضعف ومبلغ ما يتهدده من خطر إذا نجح الصليبيون وسبقوا إلى امتلاكها، فان شرهم عند ذلك يستطير، وتمتد جذور دولتهم ويصبح من العسير اقتلاعها.

وكان نور الدين يؤمن بهذا كله، وكان يرى فى ضم مصر خطوة أكيدة نحو توحيد الجبهة الإسلامية فاستجاب لإلحاح أسد الدين، وزوده بجيش جديد أوفر عددًا وعدة ووصل أسد الدين بجيشه إلى أطفيح، وعبر منها إلى الجيزة، وعسكر بالبر الغربى للنيل.

وأرسل شاور إلى عمورى يستنجد به للمرة الثانية، وللمرة الثانية استجاب عمورى للدعوة وخرج مسرعًا بجيشه، ووصل إلى القاهرة عاصمة مصر وانضم جيشه إلى جيش شاور، وعسكر الجيشان عند الفسطاط على البر الشرقى مقابل جيش أسد الدين.

آلم أسد الدين أن يستعين شاور بالصليبيين أعداء الإسلام، فحاول أن ينقذ مصر من شرهم وارسل إلى شاور يعرض عليه أن يتعاونا ويكونا يدًا واحدة لمقاومة الصليبيين، وأن وجود عمورى وجيشه فى مصر فرصة مواتية من الخير أن ينتهزاها معًا للانقضاض عليه، ولكن شاور لم يكن يعنيه إلا كرسى الوزارة والإبقاء على نفوذه وسلطاته، فلم يستمع لنصيحة أسد الدين، بل قتل رسوله ورد عليه ردًا قبيحًا.

وبدأ الفريقان يستعدان للقتال، واتجه شيركوه بجيشه إلى الصعيد يجمع أمواله ليستعين بها، وعبر عمورى وشاور بجيشهما النيل وتتبعا أسد الدين. وعند قرية البابين (إحدى قرى مديرية المنيا) تقابل الفريقان واشتبكا فى القتال، وانتصر شيركوه فى هذه الموقعة - رغم قلة عدد جيشه – انتصارًا حاسمًا بفضل مهارته وخططه الحربية.

وعاد عمورى وشاور بفلول جيشهما إلى القاهرة، أما شيركوه فقد اتجه شمالاً حتى وصل إلى مدينة الإسكندرية فرحب به أهلها، فقد كانوا فى جملتهم سنة يكرهون الدولة ومذهبها الشيعى ويكرهون شاور بخاصة لاستعانته بالصليبيين أعداء الوطن والدين. وترك أسد الدين ابن أخيه صلاح الدين مع نصف الجيش فى الإسكندرية. وكر راجعًا إلى الصعيد يشرف على شؤونه ويجمع أمواله.

اتجه شاور وخلفاؤه عند ذلك إلى الاسكندرية وحاصرها برًا وبحرًا، وعانى صلاح الدين وسكان المدينة الكثير أثناء هذا الحصار، غير أن أسد الدين عندما علم بشدة الحصار لجأ إلى حيلة مضادة، فاتجه بجيشه شمالاً يريد محاصرة القاهرة ونجحت الحيلة، فقط اضطر شاور ومن معه أن يرفعوا الحصار عن الإسكندرية ويسرعوا بالعودة إلى العاصمة خشية أن ينجح أسد الدين فى الاستيلاء عليها.

وأدرك كل فريق أنه ليس من اليسير عليه أن ينفرد بأمر مصر، وبدأت المفاوضات بينهما، وكان من شروطها أن يخرجا جميعًا من مصر كما فعلاً فى المرة الأولى ورحب عمورى بهذا الاتفاق وخاصة أن الأخبار قد وصلته بأن نور الدين قد بدأ كعادته يضغط على أملاكه فى الشام، فكان يريد أن يسرع بالعودة لحماية ملكه الأصيل هناك.

وجلا الفريقان عن مصر، ولكن موقف عمورى كان يرجح هذه المرة موقف عدوه أسد الدين، لهذا عقد عمورى قبل الجلاء اتفاقية خاصة مع شاور، مؤداها أن تبقى - بعد الجلاء - حامية صليبية من جنده فى القاهرة تشرف على أبوابها للدفاع عنها إن أغار عليها مغير، وأن يتعهد شاور بأن يدفع للصليبيين مبلغ الـ (مائتى ألف دينار سنويًا).

الحملة الثالثة :

خرج الفريقان هذه المرة وفى نفسيهما كذلك شيء من مصر، فكل منهما يرى أن فى امتلاكه مصر حماية لملكه فى الشام وتحقيقا لخطته الكبرى فى الدفاع عن مبادئه وأهدافه.

بدأت الحامية الصليبية في القاهرة تدرس الأحوال فى مصر، وسرعان ما أيقنت بضرورة أن يعود عمورى بجيشه إليها، فأرسلت إليه تحرضه وتفهمه وتدعوه. ورأى عمورى - على ضوء تجربتيه السابقتين - أن خروجه سيستدعى خروج جيش نور الدين وراءه وأنه لا قبل له وحده بالانتصار على عدوه، ففكر فى أن يستعين بحليف يسند قواه، ولم تكن الأحوال فى أوربا مهيأة لإرسال نجدة سريعة، فاتجه بنظره نحو الدولة المسيحية القريبة، وهى الدولة البيزنطية.

ومهد لهذه الخطوة بسعيه لخطبة إحدى أميرات البيت الامبراطورى. فأرسل إلى الإمبراطور البيزنطى مانويل (كومنين) سفارة فى سنة ١١٦٥ م برياسة المؤرخ الصليبى وليم الصورى (William of Tyre)، وأقامت السفارة فى القسطنطينية سنتين وانتهى الأمر باختيار الأميرة مارى ابنة أخى الامبراطور لتكون زوجًا لعمورى وملكة لبيت المقدس، وانتهت المفاوضات إلى الاتفاق بين عمورى وكومنين على إرسال حملة مشتركة من الصليبيين والبيزنطيين إلى مصر لاحتلالها.

غير أن الأمور جرت على عكس ما تم عليه الاتفاق. وكان هذا من حسن حظ مصر ونور الدين، فقد قرر عمورى أن يخرج بجيشه فجأة متجها نحو مصر دون أن ينتظر تحقيق ما تم الاتفاق عليه، وقد قال المؤرخون فى تعليل هذا إن عمورى اضطر إلى الإسراع بالخروج تحت ضغط وإلحاح الحامية الموجودة فى القاهرة، ولعل قواد هذه الحامية خافوا إن تم الاتفاق أن يشاركهم البيزنطيون خيرات مصر وثرواتها.

خرج عمورى بجيشه فى أكتوبر سنة ١١٦٨م ووصل إلى بلبيس، فتحصن أهلها وراء أسوارها وقاوموه مقاومة عنيفة، ولكنه تمكن من الاستيلاء عليها، فصب جام غضبه على سكانها ونكل بهم تنكيلاً شديدًا لإصرارهم على مقاومته. واتجه عمورى بعد ذلك إلى القاهرة وعسكر بجنده عند بركة الحبش - جنوب الفسطاط.

غضب شاور وأصابه الهلع والفزع، فإن الصليبيين لم يأتوا هذه المرة أصدقاء مستجيبين لدعوته وإنما أتوا من تلقاء أنفسهم طامعين فى احتلال مصر وملكها، وفى تنفيذ هذا القضاء عليه وعلى وزارته وسلطانه، فبدأ يتخذ العدة للدفاع، والمقاومة، وأمر بإخلاء مدينة الفسطاط وإحراقها، فظلت النار تعمل فيها وفى منشآتها ومبانيها أربعة وخمسين يومًا.

وأدرك الخليفة الفاطمى العاضد خطورة الموقف، وكان هو الذى أرسل هذه المرة يستنجد بنور الدين، وبعث فى طى رسائله شعور نساء القصر. ولبى نور الدين الدعوة مسرعًا، وأرسل جيشه بقيادة أسد الدين شيركوه للمرة الثالثة وطلب أسد الدين من ابن أخيه صلاح الدين أن يصحبه فرفض. فإنه لم يكن قد نسى بعد ما لقيه من صعاب أثناء حصار الإسكندرية فى المرة الفائتة، ولكنه قبل أخيرًا تحت إلحاح عمه وإلحاح نور الدين. ودخل جيش أسد الدين القاهرة دون مقاومة، وعند ذلك ارتد عمورى إلى بلبيس، ثم أسرع بالعودة إلى الشام فى أوائل سنة ٥٦٤ هـ - ١١٦٩ م بعد أن يئس من الاستيلاء على مصر يأسًا تامًا.

اضطرب شاور لهذه النتيجة، فقد أيقن أن نجاح أسد الدين معناه القضاء على سلطانه ولهذا بدأ يتقرب إليه، وأخذ يسعى إلى الغدر به. وقد كان الغدر شيمته وخلقه دائمًا. وفكر فى أن يولم لأسد الدين وقواده وليمة ثم يقبض عليهم، وأسر بهذه الخطة إلى ابنه الكامل، فنهاه وقال له: «والله لإن عزمت على هذا الأمر لأعرفن أسد الدين» فقال شاور: «والله لإن لم نفعل هذا لنقتلن جميعًا»، فقال الكامل: «صدقت ولأن نقتل ونحن مسلمون والبلاد بيد المسلمين خير من أن نقتل وقد ملكتها الفرنج».

وفى نفس الوقت كان أسد الدين وصلاح الدين يوجسان خيفة من شاور وغدره، وذهب شاور مرة كعادته لزيارة شيركوه فى مخيمه فقيل له إنه ذهب لزيارة قبر الإمام الشافعى، فأبدى رغبته أن يذهب لرؤيته هناك وذهب معه صلاح الدين وعز الدين جرديك - أحد قواد أسد الدين - وفى الطريق قبضا عليه وأودعاه السجن. وعلم العاضد بالنبأ، فأرسل إلى أسد الدين يطلب إليه قتل شاور. فاستجاب للأمر وحمل رأسه إلى القصر.

ولم يجد العاضد من بين رجاله من يصلح للوزارة، فاختار أسد الدين ليكون وزيره، غير أن أسد الدين لم يعمر فى الوزارة غير شهرين ثم مات، فاختار العاضد ابن أخيه صلاح الدين وزيرًا.

- ٣ -

صلاح الدين الوزير
صعوبات فى الداخل والخارج

الصعوبة الأولى :

قيل إن السبب الأكبر الذى دفع العاضد الى اختيار صلاح الدين وزيرًا أنه كان صغير السن، فرأى أنه يكون أساس قيادًا وأطوع لأمره، غير أنه كان فى جيش نور الدين الموجود فى مصر عدد من القواد الذين يكبرون صلاح الدين سنا ومكانة من أمثال: عين الدولة الياروقى، وسيف الدين على بن المشطوب، وشهاب الدين الحارمى - خال صلاح الدين - وكل منهم تطاول إلى هذا الأمر ورغب أن يكون هو الوزير، وأنف أن يختار الشاب الصغير صلاح الدين ليلى الوزارة دونه، وكادت تحدث فتنة، لولا أن تطوع لإقناعهم الفقيه عيسى الهكارى، فسعى لدى كل واحد على حدة إلى أن نجح فى إقناعهم جميعا ما عدًا عين الدولة الياروقى، فإنه رفض أن يكون أدنى مقامًا من صلاح الدين وقال: «أنا لا أخدم يوسف أبدًا»، وترك مصر وعاد إلى نور الدين.

الصعوبة الثانية :

كانت الصعوبة الثانية التى اعترضت صلاح الدين مؤامرة كان يدبرها رجل من كبار رجال القصر الفاطمى يدعى مؤتمن الخلافة جوهر، وهو زعيم الجند السودانيين وقائدهم، وكان الجند السودانيون فى ذلك الوقت هم الكثرة الغالبة فى الجيش الفاطمى: طمع مؤتمر الخلافة أن يخلف شاور، وساءه أن تنتقل مقاليد الأمور إلى أيدى صلاح الدين وجيشه، فدبر أمره على أن يتصل بالصليبيين فى الشام وأن يستنجد - كما فعل شاور من قبل - بعمورى ملك بيت المقدس، فإذا أتى بجيشه وخرج صلاح الدين لمقابلته، قام هو وجنده بالثورة فى الداخل للقضاء على بقية جيش صلاح الدين وأرسل مؤتمن الخلافة خطابًا إلى عمورى مع قاصد، ولكن جند صلاح الدين قبضوا على هذا القاصد وعثروا معه على الخطاب، ووقف صلاح الدين بذلك على خيوط المؤامرة، ولكنه تجاهل مؤتمن الخلافة وأمهله قليلاً، ثم أمر بالقبض عليه وقتله.

عند ذلك غضب الجند السودانيون وثاروا - وكانوا يزيدون على خمسين الفا -- ووقعت الحرب بينهم وبين جند صلاح الدين بين القصرين، فى القاهرة، واستمر القتال يومين، وأشرف على القتال توران شاه الأخ الأكبر لصلاح الدين، فأنزل بالسودانيين هزيمة منكرة، وأشعل النار فى معظم محلاتهم ومساكنهم فى القاهرة، وفر منهم نفر عبروا إلى الجيزة، فتتبعهم توران شاه

وقضى عليهم، وبدأ صلاح الدين بعد هذا الحادث يتخذ الحيطة. فعين قائدًا من قواد جيشه هو بهاء الدين قراقوش زمامًا للقصر - أى مشرفًا على شؤونه - يقول ابن واصل: «وكان لما جرى لمؤتمن الخلافة ما جرى وقتل. وكل صلاح الدين بالقصر إلى الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدى، وجعله زمام القصر مقام مؤتمن الخلافة. فترتب فى القصر، فما كان يدخل إلى القصر شىء، ولا يخرج منه شىء إلا بمرأى منه ومسمع، فضاق خناق أهل القصر بسببه».

الصعوبة الثالثة :

أما الصليبيون فى الشام فقد بدأوا يحسون الخطر الذى يهدد كيانهم منذ استولت جيوش نور الدين على مصر، وأخذوا يفكرون فى إعداد حملة صليبية شاملة لمهاجمة مصر، فأرسل عمورى سفارة إلى ملوك أوربا يستصرخهم ويستنجد بهم، غير أن هذه السفارة لم تلق نجاحًا، فقد كان ملوك أوربا فى ذلك الوقت مشغولين بمشاكلهم الخاصة وبما كان ينشب بينهم من نزاع وحروب. وحينذاك اضطر عمورى أن يلجأ مرة ثانية إلى امبراطور بيزنطة «مانويل». وتناسى مانويل الخطأ الذى أرتكبه عمورى من قبل عندما أسرع بالهجوم على مصر وحده، واستجاب لدعوته لأنه كان يحس هو كذلك الخطر الذى يهدد أملاكه نتيجة لاتساع ملك نور الدين وازدياد قوته بعد استيلائه على مصر.

وأرسل مانويل إلى عمورى أسطولاً بيزنطيًا ضخمًا يقوده اندرونيك كونستفانوس. ومر هذا الأسطول فى طريقة بجزيرة قبرص حيث انضمت إليه ستون سفينة بيزنطية أخرى، وانضمت قوى عمورى إلى قوى البيزنطيين فى الفرما. ثم اتجهوا جميعًا إلى مدينة دمياط وعسكروا أمامها.

واضطرب صلاح الدين، ولم يدر ماذا يفعل، فلو أنه خرج إلى دمياط فقد يثير رجال القصر وأتباع الفاطميين الفتن والثورات وينقضوا على بقية جنده ويستعيدوا ما كان لهم من سلطان، ولو أنه بقى فى القاهرة فقد ينجح الصليبيون فى الاستيلاء على دمياط، وأرسل إلى نور الدين يصف له هذا الموقف، يقول ابن واصل فى كتابه مفرج الكروب:

«فجهز إليه نور الدين العساكر أرسالاً ، كلما تجهزت طائفة أرسلها، فسارت إليه يتلو بعضها بعضًا، ثم سار نور الدين فيمن عنده من العساكر ودخل بلاد الفرنج. فنهبها وأغار عليها واستباحها، لتتحرك الفرنج إلى حفظ البلاد الشامية ويشتغلوا عن دمياط».

ولم يقصر صلاح الدين فى أمور الدفاع عن دمياط فأرسل قسمًا من جيشه إليها بقيادة ابن أخيه تقى الدين عمر بن شاهنشاه وخاله شهاب الدين الحارمى.

وهكذا تجمعت النجدات الآتية من الداخل والوافدة من الخارج، واستطاعت المدينة أن تقاوم الحصار الذى ظل خمسين يومًا مقاومة باسلة أنزلت بالمغيرين خسائر فادحة، وانضمت الطبيعة إلى مقاومة المصريين فهطلت الأمطار ليلاً ونهارًا حتى تحولت معسكرات الصليبيين وخيامهم إلى طين وماء، وحتى اضطروا إلى حفر الحفر لتتجمع فيها مياه الأمطار.

ثم بدأ الضيق يشتد بالمغيرين، فقد أخذت المؤن تتناقص عندهم وخاصة أنهم لم يحضروا معهم غير مؤونة ثلاثة أشهر، ولم يكن من اليسير عليهم الحصول على مؤن جديدة من المنطقة المحيطة بدمياط، وبدأ الجوع يفتك بالجند، وأدرك القائد البيزنطى أنه من العسير على جنوده أن يقيموا على القتال مدة طويلة من الجوع والجهد، فعرض على عمورى أن تهاجم المدينة مرة واحدة ليفرغوا من أمرها ويتقدموا إلى العاصمة، ولكن عمورى لم يوافق على هذا الاقتراح، فقد كان يخشى الهزيمة، وقد ذاق مرارتها قبل ذلك مرارًا، وغضب القائد البيزنطى، وعقد مجلسًا من قواده لبحث الموقف، وانتهى الرأى بينهم على أن ينفردوا هم بمهاجمة المدينة.

وهكذا بدأ الانقسام فى معسكر العدو، فكان البادرة الأولى من بوادر الفشل، والحقيقة أن كل حليف بدأ يشك فى الحليف الآخر، ويخشى أن ينفرد بالهجوم حتى لا يتمكن من الاستيلاء على مصر وحده، ولهذا أخذ الصليبيون يعملون على الاتصال بالمصريين، فيفسدوا على البيزنطيين خطتهم، ولأن عمورى بدأ يحس بالقلق على أملاكه فى الشام خوفًا عليها من هجمات نور الدين، فقد انتهز نور الدين الفرصة وسار - كما يقول ابن واصل - : «فيمن عنده من عساكر ودخل بلاد الافرنج، فنهبها وأغار عليها واستباحها لتتحرك الفرنج إلى حفظ البلاد الشامية ويشتغلوا عن دمياط».

وخلاصة القول أن الحملة الصليبية البيزنطية منيت بالفشل بعد هذا الانقسام، وعقد نوع من المهادنة بين الفريقين المتحاربين، وعاد الصليبيون إلى بلادهم، وكذلك فعل البيزنطيون وإن كانوا قد منوا بخسارة فادحة، فقد هبت على أسطولهم أثناء العودة عاصفة أغرقت عددًا كبيرًا من سفنهم وأهلكت الكثيرين من جندهم وبحارتهم، وكم كان ابن الأثير لاذعًا فى سخريته حين شبه هذه الحملة فى هزيمتها وانسحابها بالنعامة خرجت تطلب قرنين فرجعت بلا أذنين.

ولعل أهم نتائج هذه الحملة أنها ثبتت أقدام صلاح الدين فى مصر، كما كانت برهانًا قويًا على كفايته وجدارته، وبدأ نور الدين يصبح منذ هذا الفوز خطرًا حقيقيًا على قوى الصليبيين فى الشام، لأن ممتلكاته وجيوشه أصبحت كالكماشة تحيط بالصليبيين وتكاد تطبق عليهم من الشمال ومن الجنوب.

- ٤ -

قطع الخطبة للعاضد
والقضاء على الدولة الفاطمية

كان موقف صلاح الدين منذ ولى الوزارة موقفًا غريبًا ، فهو وزير لصاحب مصر الخليفة العاضد الفاطمى الشيعى، وهو فى نفس الوقت قائد لجيش نور الدين صاحب الشام السنى، فهو موزع الولاء، ومع هذا كان يتبع فى سياسته إزاء الرجلين الحكمة والتؤده، فلم يبادر العاضد بالعداوة السافرة، ولهذا لم يتوان العاضد فى تقديم المساعدة له إبان هجوم الصليبيين والبيزنطيين على دمياط، حتى لقد قال صلاح الدين نفسه - فيما رواه ابن واصل -: «ما رأيت أكرم من العاضد، أرسل إلى مدة مقام الفرنج على دمياط ألف ألف دينار مصرية سوى الثياب وغيرها».

غير أن نور الدين كان يود أن يبادر صلاح الدين بالقضاء على الدولة الفاطمية وقطع الخطبة لآخر خلفائها العاضد، والخطبة للخليفة العباسى، وكان مدفوعًا فى هذا بسنيته وكرهه للشيعة، وبرغبته فى إجابة الخليفة العباسى إلى طلبه، فقد كان دائم الإلحاح عليه أن يقيم له الخطبة فى مصر، ولكن صلاح الدين كان أعرف من نور الدين بأحوال مصر، ولهذا آثر التمهل وأن يمهد الطريق قبل أن يضرب ضربته الأخيرة فقد كان رجال القصر والدولة الفاطمية غاضبين ويودون لو استطاعوا أن يقضوا على صلاح الدين ومن معه ليستعيدوا نفوذهم وسلطانهم المسلوب، وكان صلاح الدين يخشى إن هو أسرع بقطع الخطبة والقضاء على الدولة أن ينجح هؤلاء فى الثورة عليه، يقول ابن واصل فى كتابه مفرج الكروب:

«كان العادل نور الدين لما تحقق ضعف الدولة المصرية، وأنه لم يبق لهم منعة، كتب إلى صلاح الدين يأمره أن يقطع خطبة العاضد ويخطب للخليفة من بنى العباس، فأعتذر صلاح الدين بن أيوب بالخوف من وثوب أهل مصر وامتناعهم من الإجابة لذلك لميلهم إلى العلوية، فلم يصغ نور الدين إلى قوله وأرسل إليه يلزمه ذلك إلزامًا لا فسحة فيه».

وبدأ صلاح الدين بالخطوات التمهيدية لتقليم أظافر الخليفة العاضد وقواد جيشه ورجال قصره، فأبعد هؤلاء القواد عن القاهرة واستولى على إقطاعاتهم وقصورهم، ومنحها لقواده هو ليضمن ولائهم وإخلاصهم، ثم أرسل إلى نور الدين يستأذنه فى أن يرسل إليه أباه نجم الدين وأهله، فأرسلهم إليه. وكان نجم الدين أيوب بعد وصوله خير عضد ونصيح لابنه صلاح الدين فقد كان الرجل ذا دهاء ومكر وخبرة طويلة.

وبدأ صلاح الدين كذلك بتعميم حركة إنشاء المدارس فى مصر، وقد كان الهدف من حركة إنشاء المدارس منذ بدأها السلاجقة وتبعهم فيها الأتابكة هو محاربة المذهب الشيعى، والدعوة للمذهب السنى، وتدريسه وقد كانت أول مدرسة أنشأها صلاح الدين فى مصر هى المدرسة الناصرية التى أنشئت فى الفسطاط لتدريس المذهب الشافعى، ثم أنشأ مدرسة أخرى لتدريس المذهب المالكى، ثم تبعه أفراد أسرته ورجال دولته، فأنشأوا مدارس أخرى كثيرة فى مختلف المدن المصرية.

كذلك أقدم صلاح الدين على خطوة أخرى فعين صدر الدين عبد الملك بن درباس الشافعى قاضيًا للقضاة فجعل القضاة فى سائر الديار المصرية شافعية، يقول ابن واصل معقبًا على حركة إنشاء المدارس وعلى حركة تحويل القضاء من المذهب الشيعى إلى المذهب الشافعى: «فاشتهر مذهب الشافعية واندرس مذهب الإسماعيلية بالكلية، وانمحى أثره ولم يبق أحد من أهل البلاد يمكنه التظاهريه»، وليس أبلغ من هذا القول للدلالة على قيمة هذه الخطوات التى كان يخطوها صلاح الدين فى حرص وحذر للتمهيد لتحقيق رغبة الخليفة العباسى ونور الدين بقطع الخطبة للعاضد.

ولما تم له ذلك كله جمع أمراء جيشه ليستشيرهم فى أمر قطع الخطبة فترددوا كثيرًا، وأخيرًا تقدم فقيه يدعى الأمير العالم وتطوع أن يبدأ هو بتنفيذ هذه الفكرة وفى يوم الجمعة الأول من المحرم سنة ٥٦٧ هـ خطب هذا الرجل ولم يدع للخليفة العاضد وإنما دعا للخليفة العباسى المستضىء بنور الله. فلم ينكر ذلك أحد عليه، فلما كانت الجمعة التالية أمر صلاح الدين بتعميم الخطبة للخليفة العباسى فى مساجد الفسطاط والقاهرة. وبذلك انتهى آخر خيط فى حياة الدولة الفاطمية.

أما الخليفة العاضد فيقال إنه كان مريضًا فلما سمع بهذا النبأ اشتد به المرض وتوفى فى يوم عاشوراء أى فى اليوم العاشر من المحرم من هذه السنة، وهكذا انتهت الدولة الفاطمية بعد أن حكمت مصر قرابة قرنين من الزمان، كانت مصر فى خلالها امبراطورية مستقلة واسعة مترامية الأطراف ذات حضارة مجيدة مزدهرة.

البـــاب الثـــانى

حقيقة العلاقات
بين صلاح الدين ونور الدين

الباب الثانى

حقيقة العلاقات

بين صلاح الدين ونور الدين

أصبح صلاح الدين - بعد موت العاضد وانتهاء الدولة الفاطمية - الحاكم الوحيد لمصر ولكنه كان يحكمها باسم نور الدين، فهو قائد من قواده يقود جيشًا من جيوشه.

وقد أشار بعض المؤرخين إلى أنه قد قامت فى ذلك الوقت وحشة بين السيد والتابع، أى بين نور الدين وصلاح الدين، وكادت تنتهى بتفكير نور الدين فى الخروج بجيشه إلى مصر لإبعاد صلاح عنها، وأطول من قال بهذا الرأى هو المؤرخ عز الدين بن الأثير، وعنه نقله كثيرون من المؤرخين اللاحقين، غير أنه من الصواب أن نأخذ هذا الرأى بشىء من الحذر، لأن ابن الأثير متهم فى بعض ما يكتبه عن صلاح الدين، فهو يلتمس المناسبات أحيانًا لغمز صلاح الدين ونقده، وخاصة عند المقارنة بينه وبين نور الدين، يكون لنشأة ابن الأثير فى الموصل - موطن نور الدين والبيت الأتابكى عمومًا - أثر فى موقفه هذا.

وسنورد هنا أسباب الوحشة، كما رواها بعض المؤرخين - ثم نناقشها لنرى مبلغ ما فيها من خطأ أو صواب.

١ - يقول هؤلاء المؤرخون إن صلاح الدين خرج فى سنة ٥٦٧ هـ - ١١٧١م لمحاصرة حصن الشوبك، وعلم نور الدين فرغب فى مساعدته، وخرج من دمشق متجهًا نحو حصن الشوبك، غير أن صلاح الدين عندما علم بقرب وصول نور الدين ترك الحصن وعاد إلى مصر، وكتب إلى نور الدين معتذرًا باضطراب الأمور فيها، غير أن نور الدين لم يقبل هذا العذر وعزم على الخروج إلى مصر ليشرف بنفسه عليها وليطرد منها صلاح الدين.

٢ - وتستطرد هذه الرواية فتقول، إن صلاح الدين عندما علم بما استقر عليه رأى نور الدين جمع مجلسًا من قواده وأفراد أسرته وفى مقدمتهم أبوه نجم الدين أيوب، واستشارهم فأشار البعض بالامتناع على نور الدين ومحاربته، إلا أن نجم الدين عارض هذا الرأى، وقال إنه وابنه وجميع القواد ما هم إلا قواد لنور الدين يجب عليهم طاعته، ولكنه لم يكد يخلو بابنه صلاح الدين بعد انفضاض المجلس حتى عاتبه على تسرعه وقال له :

«أنت جاهل قليل المعرفة، تجمع هذا الجمع الكثير وتطلعهم على ما فى نفسك. فإذا سمع نور الدين أنك عازم على منعه من البلاد جعلك من أهم أموره، وأولاها بالقصد، ولو قصدك لم تر معك من هذا العسكر أحدًا، وكانوا يسلمونك إليه، وأما الآن بعد هذا المجلس سيكتبون إليه ويعرفونه قولى. فتكتب إليه وترسل فى هذا المعنى وتقول: أى حاجة إلى قصدى؟ نجاب يأخذنى بحبل يضعه فى عنقى، فهو إذا سمع هذا عدل عن قصدك واشتغل بما هو أهم عنده والأيام تندرج، والله كل يوم هو فى شأن».

وختم حديثه بقوله: «ما كان ينبغى أن تصنع ما صنعت، فإن الأخبار لا شك تبلغ نور الدين، إلا فاعلم أننا لا نسلم البلاد له، ولو أراد قصبة من قصب السكر لحاربناه عليها».

٣ - جرت بعد ذلك مفاوضات بين نور الدين وصلاح الدين، وانتهى الرأى على أن يخرجا معًا فى أوائل سنة ٥٦٩ هـ - ١١٧٣م لحصار حصن الكرك والاستيلاء «عليه» وخرج صلاح الدين وبدأ حصار الحصن. فلما بلغه قرب مجىء نور الدين رفع الحصار وعاد إلى مصر. وأرسل الفقيه عيسى الهكارى إلى نور الدين يعتذر عنه بأنه اضطر إلى العودة لمرض والده، ولاختلال الأحوال في مصر. وأرسل معه هدايا كثيرة من مخلفات الدولة الفاطمية. وتقول الرواية إن نور الدين لم يقتنع بهذا الاعتذار وبدأ يوجس خيفة من نوايا صلاح الدين.

٤ - ويقال كذلك إن صلاح الدين عندما أحس بتغيير نور الدين وبرغبته فى المجىء إلى مصر أراد أن يبحث لنفسه ولأسرته عن ملك جديد حتى إذا حقق نور الدين رغبته وأخرجه من مصر انتقل بأسرته إلى هذا الملك الجديد، ولهذا أرسل أخاه الأكبر تورانشاه فى ٥٦٨ هـ لفتح بلاد النوبة، فوصل بجيشه إلى ابريم واستولى على قلعتها ثم عاد.

٥ - ويقولون إن تورانشاه وصف بلاد النوبة بأنها بلاد قاحلة جرداء. فعلم صلاح الدين أنها لا تصلح أن تكون مقرًا لملك جديد، ولهذا أرسل أخاه تورانشاه بجيش آخر فى سنة ٥٦٩ هـ لفتح بلاد اليمن تحقيقًا لنفس الغرض، أى ليتخذها ملكًا له إذا عزله نور الدين عن مصر.

هذه هى الآراء المختلفة التى يوردها بعض المؤرخين للدولة على قيام الوحشة بين نور الدين وصلاح الدين، وهى آراء يعوزها الدليل القوى. حقيقة لقد بدأت العلاقات بين الرجين تسوء فى آخر أيام نور الدين، ولكن هذه الأسباب السالفة لم تكن هى الأسباب الحقيقية التى أدت إلى سوءها، وإنما أدى إلى سوءها سعاية بعض القواد المحيطين بنور الدين الحاقدين على صلاح الدين والذين كانوا يطمعون فى أن يلوا الأمر مكانه فى مصر من أمثال عين الدولة الياروقى، وسنحاول أن نناقش فيما يلى الآراء سالفة الذكر لنعرف وجه الحق أو الباطل فيها:

١ - كان رجوع صلاح الدين عن حصنى الشوبك والكرك أمرًا طبيعيًا، فقد كانت مصر حقيقة مضطربة الأحوال، ولم تكن الأمور قد استقرت فيها بعد، بل كان رجال الدولة الفاطمية

وأعوانها لا يزالون يدبرون المؤامرات ويسعون للقضاء على صلاح الدين وإعادة الدولة المنتهية، وحصنا الشوبك والكرك حصنان قويان يحتاج إخضاعهما والاستيلاء عليهما إلى حصار طويل الأمد.

٢ - أما قصة المجلس والحديث الخاص الذى دار بين صلاح الدين وأبيه فهى قصة أقرب إلى الخيال منها إلى الحقيقية، إذ كيف تسنى للمؤرخين أن يتعرفوا على الحديث الذى دار بين الأب وابنه فى خلوة خاصة لم يكن معهما فيها ثالث، وهو من الأسرار الدقيقة التى لا يصح أن ينقلها أحد الرجلين إلى ثالث حتى لا تذاع فتضيع الحكمة من إسداء النصيحة، ويؤكد هذا الظن أن ابن شداد مؤرخ صلاح الدين وأحد المقربين إليه روى عن صلاح الدين رأيًا آخر يدل على أن صلاح الدين لم يفكر يومًا فى الخروج على نور الدين أو عصيانه، بل ذكر أن فكرة العصيان راودت بعض قواده، فكان هو الذى عارضها وقاومها، قال ابن شداد فى السيرة اليوسفية:

«سمعت صلاح الدين نفسه يقول: كان بلغنا أن نور الدين يقصدنا بالديار المصرية وكانت جماعة من أصحابنا يشيرون بأن نكاشف ونخالف ونشق عصاه، ونلقى عسكره، بمصاف نرده إذا نحقق قصده، وكنت (أى صلاح الدين) وحدى أخالفهم وأقول: «لا يجوز أن يقال شيء من ذلك».

٣ - أما حملة النوبة فلم يكن السبب الحقيقى لإرسالها البحث عن ملك جديد يأوى إليه صلاح الدين وأسرته إن فكر نور الدين فى إخراجهم من مصر، فقد قضى صلاح الدين سنوات قبل هذا فى مصر قائدًا ووزيرًا وواليًا، وعرف من أمورها الشيء الكثير، وعرف دون شك أن بلاد النوبة بلاد قاحلة جرداء، ولم يكن فى حاجة لإرسال حملة حربية قوية لتأتيه بهذه الحقيقة، وإنما السبب الحقيقى كان رغبته فى تطهير الصعيد وبلاد النوبة من بقايا الجند الفاطميين من السودانيين الذين فروا بعد ثورة مؤتمن الخلافة إلى الجنوب، وقد بلغ صلاح الدين فى ذلك الوقت (سنة ٥٦٨ هـ) أن هؤلاء الجند السودانيين بدأوا يتجمعون فى بلاد النوبة ويهاجمون الصعيد يريدون التقدم نحو الشمال لعزل صلاح الدين واستعادة سلطانهم والانتقام لأنفسهم وإعادة الدولة الفاطمية، قال بهذا الرأى أبو شامة فى «كتاب الروضتين» نقلاً عن مؤرخ معاصر هو ابن أبى طى، قال ابن أبى طى: «وفيها - ٥٦٨ هـ - اجتمع السودان والعبيد من بلاد النوبة وخرجوا فى أمم عظيمة قاصدين ملك مصر، وصاروا إلى أعمال الصعيد، وصمموا على قصد أسوان وحصارها ونهب قراها، وكان بها الأمير كنز الدولة، فانفذ يعلم الملك الناصر (صلاح الدين) وطلب منه نجدة، فأنفذ قطعة من جيشه مع الشجاع البعلبكى، فلما وصل إلى أسوان وجد العبيد قد عادوا منها بعد أن خرجوا أرضها، فاتبعهم الشجاع والكنز، فجرت

حرب عظيمة قتل فيها من الفريقين عالم عظيم. ورجع الشجاع إلى القاهرة وأخبر بفعال العبيد وتمكنهم من بلاد الصعيد. فأنفذ الملك الناصر أخاه شمس الدولة (تورانشاه) فى عسكر كثيف، فوجدهم قد دخلوا بلاد النوبة، فسار قاصدًا بلادهم وشحن مراكب كثيرة فى البحر بالرجال والميرة، وأمرها بلحاقه إلى بلاد النوبة، وسار إليها ونزل على قلعة ابريم وافتتحها بعد ثلاثة أيام، وغنم جميع ما كان فيها.. إلخ».

٤ - أما حملة اليمن، فقد كان الدافع إلى إرسالها أسباب أخرى جادة وخطيرة وفيما يلى تفصيلها:

(أ) كان اليمن وكرًا من أوكار الشيعة، وقد قامت فيه قبل هذا دول شيعية كثيرة مثل: الدولة الصليحية، ودولة بنى زريع، ودولة بنى مهدى، وقد كانت كلها تخضع للدولة الفاطمية فى مصر وتدين لها بالولاء، وكان صلاح الدين يهدف بهذه الحيلة إلى القضاء على الشيعة فى اليمن كما قضى عليهم فى مصر، فقد كان يخشى أن تجمع فلول الشيعة وأنصار الدولة الفاطمية فى اليمن ويصبحوا مصدر خطر على دولته فى مصر حربيًا واقتصاديًا نتيجة لسيطرتهم على مدخل البحر الأحمر الجنوبى.

(ب) كان الحاكم على اليمن فى ذلك الوقت هو عبد النبى بن مهدى، وهو رجل ملتاث العقل، بنى قبة عظيمة على والده، وأمر الناس أن تحج إليها وألا تحج إلى مكة، وبلغ به الأمر أن ادعى النبوة، وفى رأى آخر أنه أدعى الألوهية، وقد قسا عبد النبى فى معاملته لأهل اليمن وأمرائه وشيوخ قبائله. ففزع بعض هؤلاء بالشكوى إلى الخليفة العباسى الذى كتب إلى صلاح الدين يطلب إليه أن يرسل جيشًا إلى اليمن لتأديب عبد النبى. قال بهذا الرأى مؤرخ يمنى هو بامخرمة فى كتابه تاريخ ثغر عدن، قال:

«خرج عبد النبى بن مهدى صاحب زبيد فى أصحابه إلى جهة أبين فحرقها وقتل أهلها، وذلك فى سنة ٥٥٩ هـ ثم رجع إلى زبيد، ثم خرج فى سنة ٥٦١ هـ فى معسكر جرار نحو المخلاف السليمانى، فقاتلهم قتالاً شديدًا، وقتل منهم طائفة غالبهم من الأشراف، وفى جملة من قتله وهاس بن غنم - أحد أمراء الأشراف وسادتهم.

ويقال أنه لما قتل الشريف وهاس خرج أحد أخوته إلى بغداد مستنصرًا بالخليفة على عبد النبى بن مهدى، فيقال إن الخليفة كتب له إلى الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بأن يجرد فى نصرته عسكرًا لقتال ابن مهدى. فجرد الملك الناصر أخاه شمس الدولة توران شاه بن أيوب، وأن ذلك كان سبب دخول الغز اليمن. إلخ».

(جـ) تذكر المراجع جميعها أن صلاح الدين أرسل يستأذن نور الدين في إرسال هذه الحملة فأذن له، ولم يكن من المعقول أن يأذن له نور الدين لو أنه كان يعلم أنه يريد بهذه الحملة البحث عن ملك جديد فرارًا منه.

(د) كان صلاح الدين يهدف بهذه الحملة ولا شك إلى الاستيلاء على المدخل الجنوبى للبحر الأحمر لتأمين ملكه اقتصاديًا وحربيًا، فالبحر الأحمر كان الطريق الوحيد وقتذاك لنقل التجارة بين الشرق والغرب،وكانت مصر تحصل أموالاً طائلة من المكوس التى تفرض على هذه التجارة أثناء عبورها فى أرض مصر وقد بدأ إبان وزارته للعاضد بتأمين المدخل الشمالى للبحر الأحمر، باستيلائه على قلعة ايلات، وكان من الضرورى بعد هذا أن يسيطر على المدخل الجنوبى باستيلائه على اليمن ليؤمن طريق التجارة وليصون اقتصاديات مصر.

وإلى هذا كله فإن البحر الأحمر هو الطريق إلى الأراضى المقدسة الإسلامية، ورأى صلاح الدين أن من واجبه أن يشرف على مداخله الجنوبية والشمالية خشية أن يفكر الصليبيون فى التسرب بأساطيلهم إلى مياه هذه الأراضى المقدسة، فقد كان هذا من أهدافهم التى يعملون لتحقيقها، وسنرى فيما يلى محاولة من محاولاتهم فى هذا السبيل.

(هـ) المؤامرة الكبرى والأخيرة:

وفى نفس الوقت قامت فى مصر مؤامرة خطيرة تتصل اتصالاً وثيقًا بموضوع فتح اليمن، فتجمعت القوى المعارضة لصلاح الدين كلها ودبرت مؤامرة للقضاء عليه وإعادة الدولة الفاطمية، واشترك فى هذه المؤامرة أعوان الخلافة الفاطمية من رجال القصر وأمراء الجيش وجنده من السودانيين ونفر ممن قطعت مرتباتهم أو أخذت اقطاعاتهم أو أصابهم ضرر نتيجة للانقلاب والقضاء على الدولة، واتفقوا جميعا على أن يكاتبوا الإسماعيلية الحشيشية فى الشام والفرنج فى الشام وصقلية.

وكانت المؤامرة تتلخص فى أن يأتى الفرنج بأساطيلهم وجيوشهم إلى مصر، وعند وصولهم تقوم هذه العناصر المتذمرة بثورة داخلية ويتعاون الطرفان على صلاح الدين للقضاء عليه.

وعهد إلى كبير من كبار المتآمرين وهو الشاعر عمارة اليمنى أن يقوم بتحريض تورانشاه على الخروج لفتح اليمن، وكان الغرض من هذا أن تضعف قوة صلاح الدين بعد إرسال الجزء الأكبر من جيشه مع أخيه تورانشاه إلى اليمن.

وعلم صلاح الدين بنبأ المؤامرة، نقله إليه رجل دعى للاشتراك فيها هو الفقيه الواعظ زين الدين بن نجا، وقبض صلاح الدين على المتآمرين وفى مقدمتهم عمارة، وحصل على فتوى من العلماء بقتلهم فقتلهم، وبهذا فشل القسم الداخلى من المؤامرة.

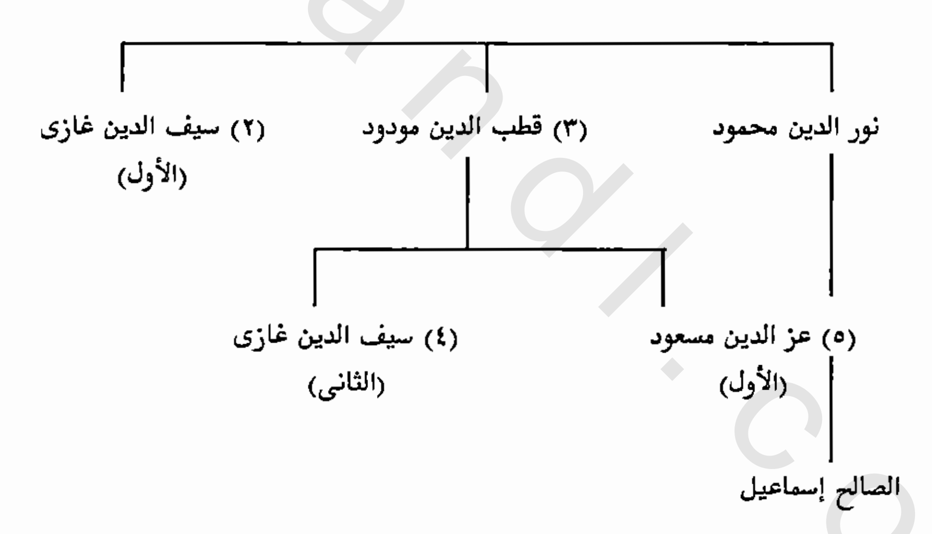
أما فرنج صقلية فلم يسمعوا بهذا الفشل ووصلوا إلى الإسكندرية فى أسطول ضخم، واستطاعوا النزول إلى بر الإسكندرية وعسكروا خارج أسوارها، وهاجموا هذه الأسوار بمجانيقهم، غير أن أهل المدينة وحاميتها استطاعوا الصمود لهم وردوهم عنها مدحورين منهزمين، وبهذا فشلت المؤامرة بشقيها.

أما توران شاه فقد نجح فى فتح اليمن، وقضى على عبد النبى بن مهدى، وأصبح اليمن جزءًا من ملك بنى أيوب، وظل خاضعًا لمصر قرابة نصف قرن من الزمان، وتوالى على حكمه خلالها عدد من أفراد الأسرة الأيوبية إلى أن خلفهم على حكمه بنو رسول مماليك بنى أيوب.

هذه هى حقيقة الموقف بين نور الدين وصلاح الدين، ومنها نرى أن صلاح الدين لم يحاول الخروج على سيده أو عصيانه، وإذا كانت قد ظهرت فى الأفق بوادر من الوحشة أو سوء الظن بين الرجلين فإنما كان منشؤها - كما قلنا - الغاضبين والحاقدين على صلاح الدين من القواد المتصلين بنور الدين، وقد كان من حسن حظ صلاح الدين وحسن حظ العالم الإسلامى بوجه عام أن توفى نور الدين فى أواخر سنة ٥٦٩ هـ قبل أن تزداد العلاقات بينهما سوءًا.

أتابكة الموصل

٥٢١ هـ	عماد الدين زنكى	(الأول)	١١٢٧م
٥٤١ هـ	سيف الدين غازى	(الأول)	١١٤٦م
٥٤٤ هـ	قطب الدين مودود		١١٤٩م
٥٦٥ هـ	سيف الدين غازى	(الثانى)	١١٦٩م
٥٧٦ هـ	عز الدين مسعود	(الأول)	١١٨٠م





الباب الثالث

جهود صلاح الدين
لإتمام توحيد الجبهة الإسلامية

١ - الموقف بعد موت نور الدين
٢ - التنظيمات الداخلية فى مصر
٣ - الموصل ، الحلقة الأخيرة من حلقات الجبهة الإسلامية

الباب الثالث

جهود صلاح الدين

لإتمام توحيد الجبهة الإسلامية

بين سنتى ٥٦٩ و ٥٨٢هـ

- ١ -

الموقف بعد موت نور الدين

توفى نور الدين محمود بن زنكى فى سنة ٥٦٩هـ. وخلفه على الملك ابنه الملك الصالح إسماعيل، وخطب له على منابر مصر والشام، وضربت السكة باسمه.

غير أن الصالح اسماعيل كان عند توليه الحكم طفلاً صغيرًا فى الحادية عشرة من عمره، ولهذا نرى أن كبار القواد يتحركون يريد كل منهم أن يكون الطفل الصغير فى كنفه لتكون له بالتالى السيطرة على شؤون الدولة، وقد تطلعت إلى هذه السيطرة العواصم الأربع الكبرى فى الشرق الأدنى وقتذاك، وهى: الموصل، وحلب، ودمشق، والقاهرة.

أما الموصل فقد كان فيها البيت الأتابكى، وكان صاحب الحكم منهم فى ذلك الوقت الملك سيف الدين غازى الثانى، وقد أسرع فضم إليه ما يليه من البلاد، وأعلن نفسه أميرا على الجزيرة، ثم طمع بعد ذلك أن يضم إليه حلب لتعود الأتابكية إلى ما كانت عليه أيام عماد الدين زنكى الأول.

وأما حلب فكان أكبر القواد فيها شمس الدين على بن الداية، وقد أسرع فأرسل إلى الصالح إسماعيل (وكان مقيمًا فى دمشق عند وفاة أبيه) يستدعيه إلى حلب بحجة أنها المقر الأصلى للدولة، وليضع حدًا لأطماع سيف الدين غازى صاحب الموصل والجزيرة. أما هدفه الحقيقى فهو أن يكون الصالح إسماعيل فى حلب تحت إشرافه ويكون له هو النفوذ والسلطان وانتقل الصالح فعلاً إلى حلب، غير أن قائد آخر من كبار القواد النوريين وهو سعد الدين كمشتكين انتهز الفرصة وقبض على ابن الداية، وأستبد هو بأمر الصالح.

وأما دمشق فقد كان مقدم الجيش فيها شمس الدين محمد بن المقدم. وقد انتهز الفرنج فرصة موت نور الدين واضطراب أمور الدولة وهاجموا دمشق يريدون الاستيلاء عليها، واضطر ابن

المقدم أن يهادنهم مؤقتًا على أن يدفع لهم مبلغًا من المال، وأن يطلق سراح من عنده من أسراهم، ثم أرسل إلى صلاح الدين فى مصر يطلب مساعدته.

وخلاصة القول إن هذه العواصم الشامية الثلاث كانت كل منها تنافس الأخرى فى سبيل تحقيق هدف واحد وهو أن تضم إليها الصالح إسماعيل لتكون لها السيطرة على هذا الملك الشامى كله.

أما العاصمة الرابعة القاهرة وصاحبها صلاح الدين، فقد كان لها هدف آخر أكبر وأسمى. كان صلاح الدين يريد أن يسير على نفس النهج الذى سار عليه قبله عماد الدين زنكى وابنه نور الدين محمود، كان يريد أن يعمل على توحيد الشام ومصر فى جبهة إسلامية واحدة تستطيع أن تقف فى وجه الصليبيين وتقضى على ملكهم، وكان صلاح الدين يرى أن هذه المنافسات بين القواد هدفها المصلحة الشخصية وحدها وستنتهى بهذه الجبهة الإسلامية إلى الانقسام والتفكك. والحقيقة أنه لم يكن بين قواد نور الدين جميعًا من هو خير من صلاح الدين للقيام بهذا العبء والعمل على تحقيق هذا الهدف الخطير.

وفى سنة ٥٧٠هـ خرج صلاح الدين من مصر إلى دمشق، وأعلن أنه منذ اللحظة الأولى أنه إنما خرج لإنقاذ الصالح إسماعيل من أطماع المحيطين به، وللإشراف بنفسه على تربيته وتدبير ملكه.

ودخل صلاح الدين دمشق دون عناء، فلم يجد من أهلها أية مقاومة بل لقد رحبوا بمقدمه، ثم تركها واتجه شمالاً ونازل فى طريقه مدينة حمص. ولكنه لم يستطع الاستيلاء عليها، فتركها واتجه إلى حلب، وترك بها جزءًا من جيشه لمحاصرتها، ثم سار إلى حماة فاستولى عليها وعاد إلى حلب.

أدرك أمراء الجيش فى حلب فداحة الخطر الذى يهددهم، فلجأوا إلى كل القوى المحيطة بهم يستنجدون بها ويسألونها العون والمدد. لجأوا إلى سنان زعيم الحشيشية فى الشام، ولجأوا إلى أقرب القوى الصليبية اليهم، إلى الكونت ريمون صاحب طرابلس، ولجأوا إلى البيت الأتابكى فى الجزيرة، إلى سيف الدين غازى صاحب الموصل.

وقد استجابت كل قوة من هذه القوى للدعوة وإنما على طريقتها الخاصة.

أما الحشيشية فقد أرسلوا فدائيين من رجالهم وثبا بصلاح الدين محاولين قتله، ولكنهما فشلا وقبض عليهما.

وأما الكونت ريمون صاحب طرابلس فقد خرج بجيشه واتجه لحمص وحاول الاستيلاء عليها ليقطع الطريق على صلاح الدين فلا يستطيع العودة إلى ملكه فى جنوب الشام. وأدرك

صلاح الدين حيلته، فأسرع بالذهاب إلى حمص وظل على حصارها إلى أن استولى عليها، واضطر الكونت ريمون إلى تركها والعودة منهزمًا إلى ملكه.

وبعد الاستيلاء على حمص أرسل صلاح الدين إلى الخليفة العباسى فى بغداد رسالة طويلة بقلم القاضى الفاضل أشار فيها إلى جهوده الطويلة السابقة فى خدمة الخلافة العباسية السنية، ثم طلب منه أن يرسل إليه تقليدًا بتوليته على كل ما تم له من فتوح فى مصر واليمن والشام وكل البلاد النورية (راجع نص الخطاب فى كتاب الروضتين، ج١، ص٢٤١ وما بعدها).

أما سيف الدين غازى صاحب الموصل والجزيرة فإنه لم يحرك ساكنًا أول الأمر، ولكنه عندما علم بما لقيه صلاح الدين من نجاح، وبما تم على يديه من فتوح فى الشام بدأ يتحرك، لأنه خشى إذا نجح صلاح الدين فى الاستيلاء على حلب أن تكون الموصل هدفه التالى، فكون جيشًا كبيرًا وأرسله إلى حلب بقيادة أخيه عز الدين مسعود.

ترك صلاح الدين حمص واتجه شمالاً قاصدًا إلى حلب، وتقابل فى الطريق عند قرون حماة بجيوش البيت الأتابكى، وانتصر عليها، وعقد الصلح بين الفريقين، وكانت أهم شروطه أن تترك حلب وما حولها للملك الصالح إسماعيل، وأن تكون الأجزاء الواقعة جنوب حلب ملكاً لصلاح الدين.

وأخذ صلاح الدين طريقه جنوبًا عائدًا إلى دمشق، وعند مدينة حماة وصلته رسل الخليفة ومعهم التشريفات وتوقيع من الخليفة بتولية صلاح الدين السلطنة على بلاد مصر والشام.

وفى سنة ٥٧١هـ نقض المواصلة والحلبيون الهدنة، وتجدد القتال عند حلب، وانتصر صلاح الدين للمرة الثانية، واضطر سيف الدين غازى للفرار وعاد إلى مكة، وأخذ أهل حلب يستعدون للحصار، ومهد صلاح الدين للاستيلاء على حلب بأسلوبه الحربى الماهر، فرأى أن يبدأ بالحصون والقلاع المحيطة بحلب ليضعف من مقاومتها فاستولى على بزاعة ومنبج وأعزاز.

وحدث عند حصاره لقلعة أعزاز أن وثب عليه الحشيشية للمرة الثانية يريدون قتله، فضربه أحد الفداوية على رأسه ضربة كادت تقتله لولا أنه كان يلبس عدة القتال من خوذة وكزاغنه وغيرهما فحمته وجرح خده فقط إلى أن قضى رجاله على الفداوية المعتدين.

واتجه صلاح الدين بعد ذلك لحصار حلب، وظل على حصارها إلى أن وافت سنة ٥٧٢هـ، واشتد الضيق بأهلها، فطلبوا الصلح، وأجابهم صلاح الدين، واتفق على نفس الشروط السابقة وهى أن تكون حلب وأعمالها للصالح إسماعيل. وأن تكون لصلاح الدين مصر وبلاد الشام من مدينة حماة وما يليها جنوبًا.

وأثناء مفاوضات الصلح تقدمت إلى صلاح الدين ابنة صغيرة لنور الدين واستوهبته مدينة أعزاز فوهبها لها إكرامًا لذكرى والدها.

ولم ينس صلاح الدين للإسماعيلية الحشيشية فعلتهم ومحاولاتهم المتكررة لقتله، فاتجه بجيشه إلى أملاكهم وحاصر حصنهم المنيع فى مدينة مصياف، وقتل العدد الكبير منهم، وهدم الكثير من قلاعهم، وكان يصر على أن يقضى عليهم وعلى أملاكهم لولا أن تدخل فى الأمر خاله شهاب الدين الحارمى صاحب حماة، وكانوا راسلوه يطلبون وساطته لأنهم جيرانه، وشفع لهم شهاب الدين وقبل صلاح الدين الشفاعة، ورحل عنهم بعد أن انتقم لنفسه وعاد إلى دمشق، ثم غادرها إلى مصر.

- ٢ -

التنظيمات الداخلية فى مصر

أقام صلاح الدين فى مصر - بعد عودته - نحو ست سنوات، قضاها كلها فى تنظيم أمورها الداخلية، وفيما يلى بيان بهذه التنظيمات:

١ - **مكتبة القصر:** كان للفاطميين مكتبة ضخمة تضم أكثر من مائة وعشرين ألف كتاب فى مختلف العلوم والفنون، وقال بعض المؤرخين فى وصفها: «وكانت من عجائب الدنيا، ويقال إنه لم يكن فى جميع بلاد الإسلام دار كتب أعظم من التى كانت بالقاهرة فى مصر»، وقد أمر صلاح الدين ببيع ما فى هذه المكتبة من كتب ونفائس، كما أهدى بعضها إلى وزيره القاضى الفاضل وكاتب إنشائه العماد الاصفهانى، ويقال فى تبرير بيعها أن معظم ما كان بها من كتب كانت كتبًا فى المذهب الشيعى وفى علوم التنجيم والغيبيات، ولكن هذا التبرير - فى رأينا - لايعفى صلاح الدين من المؤاخذة، فتلك كانت غلطة كبرى، وكان أولى به أن يحتفظ للقاهرة بمكتبتها الكبرى، وأن يتصرف فى كتب المذهب الشيعى وحدها أو يحجزها فى مكان خاص لو أراد، حقيقة لقد ألحق صلاح الدين بكل مدرسة أنشأها مكتبة صغيرة، ولكن هذه المكتبات الصغيرة لا تغنى عاصمة مصر عن المكتبة الكبرى التى كد الخلفاء الفاطميون السنوات الطوال فى تكوينها وتزويدها بآلاف الكتب النادرة.

السور والقلعة : كان صلاح الدين يعلم أن إقامته هذه فى مصر إقامة مؤقتة، وأنه لابد له من العودة إلى الشام لإتمام توحيد الجبهة الإسلامية أولاً، ولاستئناف الجهاد الأكبر ضد الصليبيين ثانيًا، ولهذا كانت معظم أعماله التنظيمية فى مصر أعمالاً عسكرية يهدف من ورائها إلى تحصين مصر - وبصفة خاصة العاصمة والثغور - وتقويتها لتكون أقدر على الدفاع عن نفسها إن فكر أحد فى الإغارة عليها أثناء غيابه عنها، ولهذا أمر ببناء سور ضخم كبير يحيط بالقاهرة والقلعة والفسطاط وقد بنى حول القاهرة قبل هذا سوران بنى أولهما جوهر الصقلى عند تأسيس المدينة، وبنى الثانى بدر الجمالى فى عهد الخليفة المستنصر بالله، وثالث الأسوار الذى بناه صلاح الدين كان أكبر من السورين السابقين واضخم منهما، لأنه كان يحيط بالعاصمة الجديدة القاهرة وضاحيتها العاصمة القديمة الفسطاط. وكان دور هذا السور كما يذكر المؤرخون ٢٩٠٣٠ ذراعًا، وبنى كله من الحجر، وكان يشرف على بنائه بهاء الدين قراقوش، وكان يبدأ شمالا عند قلعة المقس المطلة على النيل وينتهى عند النيل أيضًا جنوب مدينة الفسطاط.

وقد بدىء فى بناء السور فى سنة ٥٦٦هـ وصلاح الدين لا يزال وزيرًا للعاضد، وبعد استقلاله بمصر نشط بهاء الدين قراقوش فى الإشراف على البناء، غير أن صلاح الدين مات قبل أن يتم السور فأكمله ابن أخيه السلطان الملك الكامل محمد، ولاتزال أجزاء من هذا السور باقية حتى اليوم جنوبى أطلال الفسطاط، ولإيضاح الغرض الذى كان يهدف صلاح الدين إلى تحقيقه من بناء هذا السور ننقل هنا قول العماد الكاتب، قال:

وكان السلطان لما ملك مصر رأى أن مصر والقاهرة لكل واحدة منهما سور لا يمنعهما، فقال: إن أفردت لكل واحدة سورًا احتاجت إلى جند مفرد يحميها، وإنى أرى أن أوفر عليهما سورًا واحدًا من الشاطئ إلى الشاطئ، وأمر ببناء قلعة فى الوسط عند مسجد سعد الدولة على جبل المقطم».

كذلك أراد صلاح الدين أن يبنى للقاهرة قلعة كبرى تشرف على الدفاع عنها وتكون مقرًا لحكمها، واختار أن يبنيها على نهد مرتفع من نهاد جبل المقطم لتشرف على المدينة كلها، وبدىء فى بناء هذه القلعة فى ٥٧٢هـ (١١٧٦م - ١١٧٧م) وأشرف على بنائها نفس القائد المقدام الحازم بهاء الدين قراقوش، وسخر فى بنائها عدد كبير من أسرى الفرنج والأوربيين الذين أسرهم صلاح الدين فى حروبه المختلفة، وقد زار الرحالة ابن جبير القاهرة فى سنة ٥٧٨هـ (١١٨٢م - ١١٨٣م) وشاهد القلعة وهى لاتزال فى دور البناء، ولم يتم بناء القلعة فى عهد صلاح الدين وإنما تم فى عهد الكامل محمد، وهو أول من اتخذها سكنًا ومقرًا للحكم.

المدرسة الناصرية عند قبر الإمام الشافعى :

وتابع صلاح الدين سياسته فى إنشاء المدارس، فبنى مدرسة جديدة ضخمة عند قبر الإمام الشافعى بالقرافة لتدريس المذهب الشافعى، وسميت هذه المدرسة فيما بعد بالمدرسة الناصرية نسبة إلى مؤسسها الملك الناصر صلاح الدين، وقد ذكرها المقريزى فى كتابه الخطط وقال إن صلاح الدين رتب بها مدرسًا يدرس الفقه على مذهب الشافعى، وجعل فيها معيدين وعدة من الطلبة، ورتب للجميع الرواتب الشهرية، وأوقف الأوقاف الكثيرة للصرف عليها.

وقد بدىء فى بناء هذه المدرسة فى سنة ٥٧٢هـ ولكن الرحالة ابن جبير زار مصر سنة ٥٧٨هـ وشاهد هذه المدرسة وهى لا تزال فى دور البناء والتأسيس، ووصفه فى رحلته بأنها: «مدرسة لم يعمر بهذه البلاد مثلها، لا أوسع مساحة ولا أحفل بناء، يخيل لمن يتطوف عليها أنها بلد مستقل بذاته، بإزائها الحمام وإلى غير ذلك من مرافقها، والبناء فيها حتى الساعة، والنفقة عليها لا تحصى، تولى ذلك بنفسه الشيخ الإمام الزاهد العالم المعروف بنجم الدين الخبوشانى، وسلطان هذه الجهات صلاح الدين يسمح له بذلك كله ويقول: «زد احتفالاً وتأنقًا وعلينا القيام بمؤونة ذلك كله»، وموضع هذه المدرسة الآن جامع الإمام الشافعى.

البيمارستان :

وأمر صلاح الدين باتخاذ دار فى القصر الفاطمى بيمارستانا للمرضى، ووقف عليه وعلى المدرسة أوقافًا كثيرة، والبيمارستان هو المستشفى، وهى كلمة فارسية مكونة من لفظين «بيمار» ومعناها مريض، و«ستان» ومعناها مكان. وقد أنشأ صلاح الدين هذا البيمارستان سنة ٥٧٧هـ مكان قاعة بالقصر الكبير بناها العزيز بالله الفاطمى سنة ٣٨٤هـ.

تحصين ثغرى دمياط والاسكندرية :

كانت لصلاح الدين دائمًا عناية خاصة بهذين الثغرين الهامين فهما مصدر الخطر على مصر، وهما دائمًا محط أنظار المغيرين بوجه عام، والصليبيين بوجه خاص، وقد لمس صلاح الدين هذا الخطر بنفسه عندما هاجم الصليبيون دمياط وهو وزير للعاضد، وعندما هاجموا الإسكندرية بعد انتهاء الدولة الفاطمية واستقلالها بمصر عندما أغار عليها الأسطول الوافد من صقلية، ولهذا خرج لزيارة الثغرين مرتين، المرة الأولى عقب وصوله إلى مصر فى سنة ٥٧٢هـ والمرة الثانية قبيل خروجه الأخير إلى الشام أى فى سنة ٥٧٧هـ.

ففى شعبان من سنة ٧٥٢هـ خرج صلاح الدين من القاهرة فقصد دمياط لزيارتها، وكان فى صحبته ولداه الأفضل على، والعزيز عثمان، وكاتبه العماد الأصفهانى، فمكث بالمدينة أيامًا ثم رحل عنها إلى الإسكندرية، وقد حدد العماد الأصفهانى الغرض من هذه الزيارة بقوله: «ورأى -أى صلاح الدين - فى الحضور بالثغر المذكور ومشاهدته الاحتياط» كما ذكر أن سفن الأسطول بدمياط كانت قد خرجت للغزو، وعادت إليها بسبى كثير أثناء زيارة صلاح الدين لها، قال: «وكان به سبى كثير جلبه الأسطول».

ثم رحل صلاح الدين إلى الإسكندرية لزيارتها وليشرف بنفسه على إصلاح أسوارها وترميم حصونها وأبراجها وقلاعها، وانتهز فرصة وجوده بها وزار أسطولها فوجده خربًا قد نالت منه السنون والأحداث، فأمر بتعميره وإنشاء سفن جديدة لتقويته وأفرد له ديوانًا خاصًا أسماه (ديوان الأسطول).

ويبدو أن صلاح الدين لم يعن بإنشاء دار الصناعة وتعمير الأسطول فقط، وإنما اتخذ وسائل أخرى لتحصين الثغر حماية له من غارات الأعداء، فقد ذكر المقريزى فى خططه عند كلامه من (عمود السوارى) أنه كان حوله نحو أربعمائة عمود كسرها قراجا والى الإسكندرية فى أيام السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، ورماها بشاطئ البحر ليوعر على العدو سلوكه إذا قدموا.

وفى سنة ٥٧٧هـ وقبل أن يغادر صلاح الدين مصر ليبدأ جهاده الأكبر ضد الصليبيين رأى أن يستوثق من مناعتها وقوة حصونها وثغورها، ففى هذه السنة أرسل رجاله لعمارة قلعة تنيس وأسوارها، وكتب إلى دمياط بترتيب المقاتلة على البرجين بها، وبترميم سور المدينة وسد ما به من ثغرات، وإتقان السلسلة التى بين البرجين، يقول المقريزى «فبلغت النفقة على ذلك ألف ألف دينار»، ويقول: «وفى شعبان من نفس السنة شرع فى إصلاح سور دمياط وبناء ما تهدم منه... كما شرع فى بناء برج جديد بالمدينة».

ولم يقنع صلاح الدين بهذه الأوامر يصدرها، وإنما رحل بنفسه فى شهر شوال إلى مدينة الإسكندرية فاشرف على حصونها وأسوارها، وتركها فى أول ذى القعدة فسار إلى دمياط وأشرف بنفسه أيضًا على ما تم من إصلاح أسوارها وتحصين قلاعها وأبراجها وسلسلتها ثم عاد إلى القاهرة.

منشآت صلاح الدين العلمية والدينية فى الإسكندرية :

وفى الرحلتين حرص صلاح الدين على زيارة عالمى الإسكندرية الكبيرين: الحافظ السلفى والحافظ أبو الطاهر بن عوف والاستماع إلى دروسهما فى الحديث وفى صحبته ولداه وكبار رجال الدولة.

وفى زيارته الأخيرة لمدينة الإسكندرية أنشأ بها مدرسة جامعة يدرس بها مختلف العلوم والفنون، وألحق بها مساكن للطبة وحمامًا يستحمون به، وبيمارستانا لعلاج من يمرض منهم، وقد وصف هذه المدرسة الجامعة وصفًا شائقًا الرحالة ابن جبير عند زيارته للإسكندرية بعد ذلك بقليل.

واتباعًا لسياسته فى القضاء على المذهب الشيعى وعلى آثار الدولة الشيعية المنتهية أمر ببناء مسجد جديد فى الإسكندرية ونقل الخطبة إليه بعد أن كانت تقام فى العصر الفاطمى فى أكبر مساجد المدينة فى ذلك العصر وهو مسجد العطارين (الجيوشى)، أما هذا المسجد الذى بناه صلاح الدين فلا نعرف عنه شيئًا فقد زال بعد ذلك من الوجود.

– ٣ –

الموصـــــل

الحلقة الأخيرة من حلقات توحيد الجبهة الإسلامية

مناوشات تخللت فترة السلام :

كانت الفترة التى قضاها صلاح الدين فى مصر وتبلغ نحو الست سنوات (٥٧٢هـ–٥٧٧هـ) (١١٧٦م–١١٨١م) فترة سلام نسبى، وكانت معظم جهوده خلالها موجهة لترتيب الدولة فى مصر والشام وتنظيمها تنظيمًا داخليًا.

ومع هذا لم يكن هذا السلام الذى ساد هذه الفترة سلامًا دائمًا، لأن العدو فى الشام وفى أوربا كان يتربص بصلاح الدين وبالمسلمين الدوائر، كما أن صلاح الدين نفسه كان رجل حرب ونضال، وقد قامت بينه وبين الفرنج خلال هذه المدة سلسلة من المواقع كان الحرب فيها سجالاً ينتصرون مرة، وينتصر هو أخرى.

خرج صلاح الدين فى سنة ٥٧٣هـ للغزاة فوصل عسقلان ثم اتجه منها إلى الرملة، وقد هزم عندها هزيمة كبرى نتيجة لتهاون الجيش وعدم احتراسه أثناء عبوره نهر هناك، وقتل فى تلك الموقعة عدد من جنوده، وأسر عدد آخر من بينهم صديق عزيز عليه هو الفقيه المجاهد عيسى الهكارى، وبقى فى الأسر مدة طويلة إلى أن افتداه بعد ذلك بستين ألف دينار.

وعاد صلاح الدين بعد هزيمة الرملة إلى مصر، ثم غادرها بعد قليل إلى الشام فى سنة ٥٧٤هـ (١١٧٨م) واتجه إلى حصن قوى للفرنج قرب دمشق اسمه «مخاضة الأحزان». وهناك قامت بين الفريقين معركة كبرى فى سنة ٥٧٥هـ (١١٧٩م) هزم فيها الفرنج هزيمة نكراء وأسر عدد كبير من قوادهم فى مقدمتهم مقدم الداوية (فرسان المعبد)، ومقدم الاسبتارية (فرسان القديس يوحنا) وأقام صلاح الدين بعد هذا النصر على حصار الحصن إلى أن فتحه ثم هدمه عن آخره وأزاله من الوجود.

النزاع بين أفراد البيت الاتابكى :

بقى الملك الصالح إسماعيل – صاحب حلب – والملك سيف الدين غازى الثانى – صاحب الموصل – محافظين على عهدهما وعلى اتفاقية سنة ٥٧٢هـ (١١٧٦م) إلى أن أدركتهما الوفاة، فقد توفى سيف الدين غازى فى سنة ٥٧٦هـ، وخلفه أخوه عز الدين مسعود، وتوفى الملك الصالح اسماعيل فى سنة ٥٧٧هـ، غير أنه أوصى قبل وفاته أن يضم ملكه فى حلب إلى ابن

عمه عزالدين مسعود إذ لم يكن له غير طفل صغير لا يصلح للملك، ونشب نتيجة لذلك خلاف بين عز الدين وأخيه عماد الدين زنكى الثانى، ولكن الأمر لم يلبث أن استقر بينهما على أن يبقى حكم الموصل والجزيرة بيد عز الدين مسعود وأن تعطى حلب لعماد الدين.

كان صلاح الدين يرى هذا الخلاف بين أفراد البيت الأتابكى، وكان يعتقد أنه قد يكون مصدر تعب وخطر على دولته، وأنه لا يستطيع أن يبدأ جهاده الأعظم إلا إذا أمن من هذا الخطر، وإلا إذا أخضع هذا الجزء الباقى وأتم حلقات الجبهة المتحدة، لهذا غادر صلاح الدين مصر فى صيف سنة ٥٧٨هـ (١١٨٢م) وكان هذا آخر عهده بها، فقد قضى البقية الباقية من حياته فى جهاد مستمر ضد الصليبيين فى الشام، وحدث فى مجلس الوداع وصلاح الدين ينتظر تجمع فرق الجيش ليبدأ سيره أن أطل من بين الحضور معلم لبعض أولاده وأنشد كأنه يودع السلطان البيت المشهور:

تمتع من شميم عرار نجد فما بعد العشية من عرار

وكان الرجل غير موفق فى اختياره، وانقبض صلاح الدين عند سماع البيت وتطير منه، وقد صدق الفأل فعلاً، فإن صلاح الدين لم يعد إلى القاهرة بعد ذلك، بل مات بعد جهاده الطويل فى دمشق ودفن بها.

نحو الموصل :

اتجه صلاح الدين إلى هدفه وهو الموصل، فعبر الفرات وحاصر الموصل، غير أن الموصل قاومت الحصار طويلاً، فقد كانت مدينة منيعة حصينة، فرفع صلاح الدين الحصار قليلاً، وفعل كما فعل بحلب من قبل، فاتجه إلى المدن الحصينة المحيطة بالموصل واستولى عليها الواحدة بعد الأخرى، فاستولى على مدينة سنجار، وبذلك عزل الموصل عن حلب، ثم استولى على بقية المدن المحيطة وهى آمد وتل خالد وعينتاب، وتوج انتصاراته بتملك حلب فقد أخذها من صاحبها عماد الدين زنكى الثانى على أن يعوضه عنها بعض بلاد الجزيرة، وبذلك بقيت الموصل وحدها، فاتجه إليها ولبث يحاصرها ما بين سنتى ٥٨١هـ و٥٨٢هـ (١١٨٥م-١١٨٦م) يحاصرها حينا ثم ينصرف عنها، ثم يعود إلى حصارها.

وأخيرًا وجد عز الدين مسعود ألا فائدة من النضال، فأرسل إلى صلاح الدين يطلب الصلح، وقد رفض صلاح الدين أول الأمر إجابته إلى طلبه ولكنه عاد فأجابه، وعقد الصلح بينهما على أن يعترف عز الدين بتبعيته لصلاح الدين، وأن يخطب له على منابر بلاده، وأن يضرب اسمه على السكة، وأن ينزل له عن كل ما وراء نهر الزاب من بلاد الجزيرة وهكذا تحقق على يدى صلاح الدين ذلك الحلم الذى كان يعمل على تحقيقه عماد الدين زنكى الكبير ثم ابنه نور الدين

محمود من بعده وهو توحيد البلدان الإسلامية فى جبهة واحدة تحت قيادة واحدة قبل بدء الجهاد الأكبر ضد العدو الوافد عبر البحار من أوربا يبغى استعمار هذه البلاد واستقلال أهليها.

فعلة شنعاء :

أرناط صاحب الكرك يرسل أسطولاً فى البحر الأحمر لمهاجمة الأراضى المقدسة الإسلامية:

غير أننا قبل أن نبدأ الحديث عن الجهاد الأكبر الذى توجه صلاح الدين بانتصاره فى حطين واستعادة بيت المقدس نحب أن نشير إلى حادث هام وقع فى تلك الحقبة إبان نضال صلاح الدين فى سبيل إخضاع الموصل، ففى اثناء معاركه فى شمال الشام انتهز الصليبيون الفرصة وأرسل البرنس أرناط (REGINALD OF CHATIL LION) – صاحب الكرك – جيشًا استولى ثانية على حصن أيله، ومنها أرسل أسطولاً عبر البحر الأحمر متجهًا إلى الأراضى المقدسة الإسلامية مكة والمدينة، يريد الإستيلاء على قبر النبى محمد عليه الصلاة والسلام وهدمه.

وسار الأسطول بمحاذاة الشاطىء المصرى للبحر الأحمر، ورجاله يخربون ويهاجمون ما يقع عليه من ثغور، إلى أن وصلوا ثغر عيذاب المصرى المقابل لثغر جدة، وهناك استولوا على كثير من السفن المحملة بأصناف التجارة الواردة من عدن ومن الهند، ونزل بعض الجند إلى المدينة فهاجموا قافلة كبيرة كانت آتية دون حراسة من وادى النيل، ثم أقلع هؤلاء القراصنة من عيذاب واتجهوا إلى الشواطىء العربية فأحرقوا السفن الراسية فى ينبع ميناء المدينة المنورة، ثم أغاروا على الراغب أحد الثغور المؤدية إلى مكة فأغرقوا به سفينة من سفن الحجاج.

هذه الأحداث الخطيرة أثارت شعور المسلمين، وهزت أركان العالم الإسلامى هزًا عنيفًا، وتقدم الملك العادل سيف الدين أبو بكر -- أخو صلاح الدين ونائبه على مصر وقتذاك - لإنقاذ الموقف، فأرسل الأمير حسام الدين لؤلؤ - قائد الأسطول المصرى - لتأديب هؤلاء القراصنة، وبدأ حسام الدين باستعادة ثغر أيلة، ثم وصل بأسطوله إلى ثغر الحوراء حيث قابل أسطول العدو، وحطمه تحطيمًا تامًا وقبض على كل من كان عليه من رجال، وأرسل نفرًا منهم إلى منى فنحروا بها، وحمل الباقون إلى القاهرة حيث شهروا فى الشوارع ثم قتلوا بعد ذلك، وأقسم صلاح الدين أنه لن يغفر لأرناط هذه المحاولة النكراء.

ولم يرعو أرناط عن غيه، بل لقد أقدم بعد هذا على فعلة أشد نكرًا كانت النذير والسبب المباشر لبدء القتال الأكبر بين صلاح الدين والصليبيين.



الباب الرابع

الجهاد الأعظم

(موقعة حطين واستعادة بيت المقدس)

١ - عرض عام للموقف قبل حطين.

٢ - موقعة حطين.

٣ - تتويج الانتصار، استعادة بيت المقدس.

٤ - بعد سقوط بيت المقدس، الموقف حول صور وأنطاكية.



الباب الرابع

الجهاد الأعظم

(موقعة حطين واستعادة بيت المقدس)

– ١ –

عرض عام للموقف قبل حطين

اتسعت دولة صلاح الدين فى ذلك الحين حتى أصبحت تمتد من بلاد النوبة واليمن جنوبًا إلى بلاد الأرمن شمالاً، ومن برقة غربًا إلى الموصل وبلاد الجزيرة شرقًا. يدعم هذا الملك المتحد اعتراف الخليفة به.

وقد نجح الصليبيون من قبل فى إقامة ملك لهم فى الشام وقت أن كانت الدولة موزعة إلى إمارات ودويلات يباعد بينها الخلاف ويكاد يفنيها النزاع والتخاصم، ومع هذا فقد كان الملك الذى أقامه الصليبيون ملكًا صناعيًا مزعزع الأركان لم يرس على قواعد. ولم يقم على أسس، ولم تكن له أخيرًا أمة أو شعب أصيل صاحب وطن يدفع عنه ويحمى ذماره، بل حمل للدولة أهلها وشعبها عبر البحار من أقطار أوربا المختلفة، فهو ملك زرع فى غير بيئته، وشعب أقيم فى غير موطنه، والحرب مع هذا كانت حول الملك الصليبى دائمة دائبة تقتطع من أطرافه. والقتال حول الشعب الصليبى كان مستمرًا متلاحقًا ينتقص من أفراده، فهو دائمًا فى حاجة إلى مدد جديد يأتيه من أوربا ليعوض المفقود. وكان الحماس الدينى أول الأمر فى أوجه يدفع المسيحيين فى أوربا إلى الخروج وفدًا بعد وفد، وحملة بعد حملة، إلى الملك الصليبى الجديد لتقويته وحمايته، ولكن الزمن يمر والحماسة تخبو شيئًا فشيئًا، والحملات تقل رويدًا رويدًا. حتى أولئك الذين وفدوا إلى الشام فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر الميلادى لم تكن لهم حماسة الوافدين الأول.

هذه المظاهر تدل على أن الملك الصليبى كان يسير من قوة إلى ضعف، فى حين أن المعسكر الإسلامى المجاور كان يسير من ضعف إلى قوة، فالمسلمون كانوا يحسون فى كل لحظة أن هذه بلادهم وأوطانهم وقد اغتصبت منهم فى ساعة ضعف اغتصابًا والذى يقاتل للدفاع عن وطنه يقاتل بقوة لا يعرفها من يقاتل عن ملك مغتصب، والمسلمون يقدسون البيت المقدس كما يقدسه المسيحيون تمامًا، فهو عندهم ثالث الحرمين، وإليه أسرى الله بنبيهم محمد من المسجد

الحرام، ولهم فيه أمجاد تاريخية كثيرة لا تنسى، فهم إذ يقاتلون فى سبيله لا يقلون حماسة عن أعدائهم الصليبيين.

والهزائم الأولى التى لحقت بالمسلمين قد أثارت حميتهم، وأيقظت فيهم عوامل النخوة المستكنة، وذكرتهم أمجادهم الحربية الماضية، فهبوا يعملون للثأر لشرفهم، وهذا كلها عوامل كانت تزيدهم قوة على قوة.

ولا نستطيع أن ننسى عامل القوة الاقتصادى، فالمسلمون كانت لا تزال بأيديهم الرقعة الكبرى من أراضى وبلاد الشرق الأدنى،مواردها غنية وافرة تمد الدولة بالمال وتمد الجيوش المقاتلة بالمؤونة، فى حين أن الصليبيين لم يكن تحت أيديهم إلا ما يملكون من أراضى الإمارات الثلاث الباقية ومواردها قليلة محدودة، فهم فى حاجة دائمة إلى عون ومدد من الخارج، وهم فى هذا الملك المحدد تجارتهم معطلة لأن المسلمين يحيطون بهم فى كل جانب ويقاطعونهم مقاطعة اقتصادية عنيفة.

وأخيرًا كان يدعم المعسكر الإسلامى ويزيده قوة على قوة أن أصبح جبهة واحدة متحدة على رأسها قائد شجاع محنك هو صلاح الدين، فى حين أن المعسكر الصليبى كانت تأخذه حينذاك عوامل الفرقة والانقسام، وإليك البيان:

فى سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٤م) مات عمورى ملك بيت المقدس فخلفه ابنه بلدوين الرابع، وكان طفلاً صغيرًا أبرص أو أجزم، وتولى الوصاية عليه اثنان:

ريموند أمير طرابلس، وإزابيلا أخته (أخت بلدوين).

وقد تزوجت إزابيلا هذه أول الأمر من وليم منتفرات، ولكنه لم يلبث أن مات بعد قليل سنة ٥٧١ هـ (١١٧٦م) بعد أن أعقب منها ولدًا هو بلدوين الخامس، ثم تزوجت إزابيلا للمرة الثانية من فارس فرنسى وسيم اسمه «جى دى لوزنيان (Guy de Lusignan)». وتروى المراجع أن جى هذا كان جميل الخلقة ولكنه كان دنىء الخلق، حتى ليقال إن أخاه قال عنه مرة:

«إذا كان هذا ملكًا فما أجدرنى أن أكون إلهًا..!!».

وقد انقسم الصليبيون قبل حطين إلى معسكرين: معسكر يضم ازابيلا وولدها وزوجها جى (وكان قد أعلن ملكًا على بيت المقدس بحكم زواجه من إزابيلا)، وكان أصحاب هذا المعسكر يرون مبادرة المسلمين بالحرب وأخذهم بالعنف أما المعسكر الثانى فكان يتزعمه ريموند صاحب طرابلس، وكان من رأيه مهادنة المسلمين ومصالحتهم.

وإبان هذا الخلاف فى الرأى ظهر فى الجو أرناط.

وهو فارس فرنسى الأصل حضر إلى الشام مع لويس السابع ملك فرنسا، وأسره نور الدين فى سنة ٥٥٥ هـ (١١٦٠م) ثم أطلق سراحه بعد ذلك، فتزوج من وريثة حصن الكَرَك، وبذلك أصبح صاحبه والحاكم عليه.

وأرناط (وهكذا تسميه المراجع العربية) قائد شجاع ولكنه عرف بالتهور والاندفاع والغدر والخيانة، وكان إلى هذا أشد الصليبيين عداوة للمسلمين يتعطش لقتالهم، وكان يريد المسارعة إلى مبادئتهم بالقتال، وقد أشرنا من قبل إلى حملته البحرية الجريئة التى أرسلها لتهديد بلاد العرب والتى قضى عليها حسام الدين لؤلؤ قائد الأسطول المصرى.

- ٢ -

موقعة حطين

وقد اجترم أرناط بعد هذا جرمًا جديدًا كان السبب المباشر والمنذر باستئناف القتال بين المسلمين والصليبيين.

كانت هناك هدنة معقودة بين الطرفين مداها أربع سنوات (٥٧٩هـ - ٥٨٣ هـ) (١١٨٤م - ١١٨٨م) فاجترأ أرناط على نقضها، ففى سنة ٥٨٢ هـ وفى حمى هذه الهدنة، كانت قافلة تجارية للمسلمين تمر بالكرك فى طريقها من مصر إلى الشام، ويقال إن أختًا أو بنتًا لصلاح الدين كانت من بين أفرادها، ولم يحترم أرناط الهدنة القائمة، وانقض على القافلة فنهبها وقتل من أفرادها من قتل وأسر من أسر، ويقال إنه تمادى فى خطيئته، وقال لأسراه وهو يعذبهم: «فليأت محمد كم ليخلصكم»، وعلم صلاح الدين بما حدث وما قاله أرناط، فغضب غضبًا شديدًا وأنذر لإن أظفره الله بأرناط ليقتلنه بيده.

كانت هذه الحادثة هى عود الثقاب الذى أشعل نار الحرب، وبدأ كل فريق يعد لها عدته، فجمع صلاح الدين جيوشه من مختلف أطراف ملكه فى دمشق وتقدم بها إلى طبرية فى أوائل سنة ٥٨٣ هـ، وتجمعت جيوش الصليبيين جميعًا بقيادة أرناط صاحب الكرك وجى ملك بيت المقدس وريموند صاحب طرابلس عند صفورية (فى منتصف الطريق بين حيفا وطبرية).

أما صلاح الدين فقد استولى بجيوشه على مدينة طبرية، وإن كانت قلعتها قد استعصت عليه فتركها مؤقتًا، وبدأ بتحصين موقعه فجعل طبرية إلى ظهره، واتجه نحو الغرب فأفسد مياه الآبار التى تقابل الصليبيين إذا هم فكروا فى الانتقال إليه.

وفى معسكر الصليبيين قام نزاع ونشأ خلاف، فقد كان ريموند صاحب طرابلس - وهو رجل متزن محنك - يرى أن تبقى جيوشهم مقيمة فى صفورية لقربها من ممتلكاتهم فى الساحل، وليدفع صلاح الدين إلى عبور هذه المسافة الصحراوية بين طبرية وصفورية، فيصل جيشه مجهدًا مكدودًا، وبذلك يسهل الانتصار عليه. أما أرناط فقد كان يرى - مدفوعًا بحمقه وتعطشه للدماء - الإسراع بالهجوم والتقدم نحو طبرية، وحجته فى ذلك أن يفاجئ صلاح الدين قبل أن تصل إليه بقية إمداداته، فيزداد بذلك قوة. وكان رأى ريموند هو الأصوب من الناحية الفنية الحربية، ولكن الغلبة كانت لرأى أرناط وكان فى، انتصار هذا الرأى نصف الهزيمة التى حاقت بجيوش الصليبيين فيما بعد، فقد كان الوقت صيفًا، وأشعة الشمس تنعكس على رمال الصحراء فتلهب الجو نارًا، وكان لهذه الحرارة أثرها فيما يحمل الجنود من أسلحة وخوذ

ودروع (وكلها من حديد) حتى كادت أجسامهم تشتعل تحت هذه الحرارة المنبعثة من عتادهم. فلما تم لهم عبور هذه المنطقة الصحراوية ووصلوا تل حطين بالقرب من طبرية كان السير قد أكدهم وأنهك قواهم، وكان العطش قد نال منهم كل منال، فتسارعوا على الآبار القريبة يريدون أن يرووا ظلماءهم، وكم كانت خيبة أملهم عندما وجدوا أن صلاح الدين قد أفسد عليهم مياه هذه الآبار.

وبدأوا المعركة بعد ذلك وهم على شدة الجهد من أثر التعب والعطش والحر جميعًا، وسرعان ما أحاطتهم جيوش صلاح الدين وحصرتهم من مختلف الجهات. وفي خلال المعركة حاول ريموند صاحب طرابلس أن يجد ثغرة يخرج منها ليحطم دائرة الحصار المضروب حولهم، وأحس بمحاولته تقى الدين عمر بن شاهنشاه - ابن أخى صلاح الدين - فدبر له مكيدة ماكرة، وتظاهر بالهزيمة، وأفسح له طريق الخروج وهو يحسب أنه بذلك قد أحرز نصرًا، فلما بعد بفرقته عن الجيش الصليبى الأصلى أسرع تقى الدين وانضم إلى جيش المسلمين، والتأمت دائرة الحصار من جديد، وألفى ريموند نفسه وجيشه وقد انقطعت الصلة بينه وبين بقية الجيش الصليبى، فآثر النجاة وأسرع بالعودة إلى مقر ملكه فى طرابلس، وكانت هذه ضربة جديدة، أصابت الجيش الصليبى وأضعفت قواه المادية وروحه المعنوية، ولم يطل بريموند العمر بعد ذلك بل مات فى مقر ملكه بعد قليل.

ودار القتال عنيفًا بين الفريقين، ولجأ المسلمون إلى حيلة جديدة ينهكون بها قوى الصليبيين، فأشعلوا النار فى الحشائش المحيطة بمعسكر العدو، فأصبح الصليبيون والنار تلفح وجوههم وأجسامهم من كل مكان. من فوقهم من تحتهم ومما يلبسون ومما يحيط بهم. فلما انقض صلاح الدين بعد ذلك عليهم بجيوشه الممتلئة حماسًا ورغبة فى الجهاد فى سبيل الله انهارت أمامه صفوف الصليبيين، وقتل منهم العدد الأكبر، ومن نجا من القتل وقع فى الأسر، حتى لقد قال ابن الأثير فى وصفه المعركة:

«وكان من يرى الأسرى لكثرتهم لا يظن هناك قتلى، فإذا رأى القتلى حسب أنه لم يكن هناك أسرى»

ومما يزيد فى قيمة النصر الحاسم الذى أحرزه البطل صلاح الدين أن هذه الموقعة قد جمعت أكبر عدد استطاع الصليبيون جمعه من إماراتهم المختلفة، كما ضمت معظم قوادهم ورؤسائهم وملوكهم، وكان من بين من وقع فى الأسر الملك جى صاحب بيت المقدس وأرناط صاحب الكرك.

وبعد الموقعة جلس صلاح الدين فى خيمته وحوله قواده، وأمر فأحضر إليه الأسيران الكبيران، وهما على جهد شديد من العطش وعنف القتال، وطلب الملك شربة من الماء فقدم إليه

صلاح الدين ماء مثلجًا، فشرب وأبقى فضلة قدمها للبرنس أرناط، ولكن صلاح الدين أسرع فقال له: «إن هذا لم يشرب الماء بإذنى» يريد أنه - بشربه الماء - لم ينج من عقابه، فالعادة عند العرب أن الأسير إذا شرب من ماء عدوه أمن من عقابه.

وذكر صلاح الدين أرناط بقالته الأثيمة، وقال له: «ها أنذا أنتصر لمحمد». ومع هذا أراد أن يمنحه الفرصة لينجو من عقابه، فعرض عليه أن يعفو عنه إن هو اعتنق الإسلام، وكانت فى هذا العرض سخرية لاذعة، ولكن أرناط رفض، فاستل صلاح الدين سيفه وضربه فحل كتفه، وتمم عليه من حضر، وأوفى صلاح الدين بذلك نذره السابق أن يكون قاتله بيده إن ظفر به، عقابًا له على غدره ونكثه للعهد ونقضه للأمان والهدنة.

أما الملك فقد ارتعدت فرائصه واشتد به الذعر، وأدرك أنه لاحق بزميله، غير أن صلاح الدين التفت إلى الملك جى وهدأ من روعه قائلا: «لم تجر عادة الملوك أن يقتلوا الملوك، وأما هذا فإنه تجاوز حده فجرى عليه ما جرى».

الاستيلاء على مدن الساحل

لم يستسلم صلاح الدين للدعة والراحة بعد هذا النصر الحاسم، وإنما اتجه سريعًا بجيوشه إلى مدن الصليبيين الأخرى عند الساحل ليوجه إلى العدو هناك ضرباته القوية قبل أن يفيق من أثر الهزيمة الكبرى التى أصابته فى حطين، وتوالت انتصاراته فى سرعة عجيبة. وترجع هذه الانتصارات إلى عوامل كثيرة، منها مهارة صلاح الدين كقائد، ومنها شجاعة أفراد أسرته وقواده وتفانيهم فى القتال، ومنها هزيمة الصليبيين الساحقة فى حطين. ففى هذه الموقعة كانت قد تجمعت كل قواهم وجيوشهم وتركت مدنهم بغير مدافع.

اتجه صلاح الدين إلى مدن الساحل أولا، وكان هدفه الأول أن يمنع أى مدد من الوصول إلى بيت المقدس، حتى إذا هاجمها سهل عليه الاستيلاء عليها. وكان هدفه الثانى تأمين مواصلاته البحرية مع مصر، فإن بقاء هذه المدن بأيدى الإفرنج يهدد دائمًا هذه المواصلات ويمنع وصول أى مدد أو مؤونة قد تأتيه من مصر.

وبدأ صلاح الدين بالاستيلاء على عكا (جمادى الأولى ٥٨٣هـ - يوليو ١١٨٧م)، وخضعت المدينة بشروط أهمها: أن يجلو عنها من يشاء من الفرنج، ومن يجلو تضيع عليه أملاكه الثابتة من بيوت وعقار وأسلحة ومواشى، ومن أراد البقاء منهم سمح له بالبقاء على أن يدفع الجزية.

وقد آثر الكثيرون منهم الجلاء خوفًا على أرواحهم وقد أعطى صلاح الدين ما كان للداوية فى عكا من أموال إلى صديقه عيسى الهكارى، ترضية له عما قاساه فى أسرهم من قبل ذلك.

وبعد عكا تساقطت مدن الساحل الواحدة بعد الأخرى أمام صلاح الدين وجيشه حتى استطاع أن يستعيد فى أيام قليلة المدن الساحلية الهامة التى كان يسيطر عليها الصليبيون من يافا جنوبًا إلى بيروت شمالاً، ولم يبق على المقاومة غير مدينة صور، فقد تجمعت فيها جيوش الصليبيين جميعًا التى خرجت من كل مدن الساحل. فتركها صلاح الدين مؤقتًا، واتجه جنوبًا فاستولى على مدينة عسقلان، وقد نصح الملك جى أهلها بالتسليم شراء لحريته، فقد كان صلاح الدين وعده بإطلاق سراحه إن سلمت عسقلان. وقد بر صلاح الدين بوعده بعد ذلك وحدد تاريخًا أطلق فيه سراح الملك.

واتجه صلاح الدين بعد ذلك إلى الداخل فاستولى على بعض حصون الداوية، وقد سلمت هذه الحصون كذلك مقابل وعد صلاح الدين بإطلاق سراح مقدم الداوية، وقد بر صلاح الدين كعادته بوعده وأطلق سراحه.

لم يبق بعد ذلك إلا الهدف الأكبر بيت المقدس. وقبل أن يتجه صلاح الدين إليه أمر قائد أسطوله فى مصر حسام الدين لؤلؤ أن يقوم بحراسة الشواطئ حتى تكون فى مأمن من هجمات العدو أثناء حصاره لبيت المقدس.

– ٣ –

تتويج الانتصار

استعادة بيت المقدس

فى أواخر جمادى الثانية سنة ٥٨٣هـ (سبتمبر سنة ١١٨٧م) اتجه صلاح الدين بجيوشه إلى هدفه وهدف المسلمين الأكبر، إلى بيت المقدس، أكبر الإمارات الصليبية. ورغب فى الاستيلاء عليها قبل أن يفيق العدو من ضربة حطين القاصمة، وقبل أن يصل إليه مدد من الخارج. وكانت المدينة قوية تحيط بها الأسوار والحصون المنيعة، فأحاطها بجيوشه وحاصرها حصارًا شديدًا ونصب المجانيق، وضربت الأسوار، وأبدى الفريقان بسالة رائعة فى القتال. ولكن لم يمض غير أسبوع واحد حتى اشتد الضيق بالصليبيين المحاصرين، فطلبوا التسليم، وتمنع صلاح الدين أول الأمر، وقال إنه يريد أن يستولى على القدس عنوة ليفعل بمن فيها من الفرنج مثلما فعلوه بالمسلمين يوم استولوا على المدينة منذ نحو تسعين عامًا.

وبعد مفاوضات اتفق على شروط التسليم، وأهمها:

– أن يدفع الفرنج الفدية عن أنفسهم (يدفع الرجل عشرة دنانير، والمرأة خمسة، والطفل دينارين). فمن دفع فى خلال ٤٠ يومًا سمح له بالخروج من المدينة ومن لم يدفع أسر.

– سمح للمسيحيين الوطنيين من الشوام واليونان بالبقاء كرعايا للدولة. وكان صلاح الدين بعد هذا كريمًا غاية الكرم، نبيلاً غاية النبل، فأكرم رجال الدين المسيحى، وسمح لبطريرك المدينة بالخروج ومعه كل أمواله وأموال الكنائس وذخائرها، لم يدفع غير عشرة دنانير.

وأكرم صلاح الدين ملكة بيت المقدس فسمح لها أن تصحب معها فى خروجها كل أموالها وخدمها، وكذلك فعل مع زوجات كثير من أراء الصليبيين، ومن بينهن زوج أرناط نفسه.

وهكذا دخل صلاح الدين بيت المقدس بعد أن بقى فى أيدى الصليبيين ثمانية وثمانين عامًا، وهكذا عامل أهله وسكانه بروح كله نبل وكرم.

ولا يستطيع المؤرخ أن يمر بهذا الحادث دون أن يقف وقفة قصيرة يلقى فيها نظرة على الصورتين المتقابلتين المتعارضتين: صورة بيت المقدس عندما استولى عليه الصليبيون فى أواخر القرن الحادى عشر. وصورته عندما استعاده المسلمون فى أواخر القرن الثانى عشر، ففى الصورة الأولى نجد الصليبيون يخربون ويهدمون، ويقتلون سكان المدينة من المسلمين ويذبحونهم تذبيحًا، حتى ليعترف أحد مؤرخى الصليبيين الذى شهد الفتح أنه وصل إلى مسجد المدينة فى بحر من الدماء وصل إلى ركبتيه.

وفى الصورة الثانية نجد صلاح الدين يحمى الأرواح ويبجل رجال الدين ويكرم الخفائر من النساء، ويصون المبانى المقدسة، بل ويرممها ويأمر بإصلاحها. فى الصورة الأولى وحشية الغرب وقسوته وهمجيته، وفى الصورة الثانية سماحة الشرق ونبله وكرمه. بهذا شهد المؤرخون جميعا والغربيون منهم قبل الشرقيين منذ عصر صلاح الدين حتى اليوم، والفضل دائمًا ما شهدت به الأعداء، وإنى أكتفى بأن أنقل هنا بعض فقرات مما قاله مؤرخ إنجليزى معاصر من مؤرخى الحروب الصليبية، هو الأستاذ رانسمان:

قال فى كتابه «تاريخ الحروب الصليبية، جـ ٢» عند كلامه عن سقوط بيت المقدس وعن موقف صلاح الدين وجيشه من سكان المدينة:

«كان المنتصرون معقولين وإنسانيين، فبينما خاض الفرنج عند استيلائهم على المدينة منذ ثمانية وثمانين عاما فى دماء ضحاياهم، نجد فى هذه المرة أنه ما من بناء نهب وما من إنسان أصابه أذى، وتنفيذا لأوامر صلاح الدين انبث الحراس يخفرون الطرق والأبواب ويمنعون أى اعتداء قد يصيب المسيحيين».

وقال فى نفس الصفحة:

«وتقدم نساء الفرنج اللائى افتدين أنفسهم إلى صلاح الدين والدموع تملأ عيونهن، وسألنه فى استرحام أين يستطعن الذهاب، فقد قتل أزواجهن أوباؤهن أو وقعوا فى الأسر. فكان جواب صلاح الدين أن وعدهن بأن يطلق سراح كل زوج أمير، أما الأرامل واليتامى فقد أعطى كلا منهم منحة تتناسب مع مكانتهم من حر ماله. لقد كان عفوه وعطفه مباينًا مباينة واضحة لأفعال المسيحيين الغزاة فى الحملة الصليبية الأولى».

دخل صلاح الدين المدينة يوم ٢٧ رجب سنة ٥٨٣ هـ، وهو يوم يحتفل المسلمون فيه بذكرى ليلة الإسراء التى قال فيها الله سبحانه وتعالى:

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾[١]،

فكانت مناسبة طيبة، وكان فألاً جميلاً، وأقيمت الجمعة فى المسجد الأقصى لأول مرة بعد أن ظلت معطلة ثمانية وثمانين عامًا، وخطب الجمعة الفقيه محيى الدين بن زكى الدين، فألقى خطبة قوية هى من أروع ما خلفه عصر الحروب الصليبية من أدب[٢] وقد أمر صلاح الدين بإصلاح ما أفسدته الحرب وما خربه الفرنج من مبانيها ومنشآتها وخاصة المسجد الأقصى، وحمل إليه المنبر الذى كان قد أمر نور الدين بصنعه ليضعه بنفسه فى المسجد بعد استيلائه على المدينة. وسار صلاح الدين فى بيت المقدس على نفس السياسة الإصلاحية التى كان يتبعها فى مدن دولته المختلفة، فأنشأ بها الكثير من المدارس، كما أنشأ بها بيمارستانا لمعالجة المرضى.

---

(١) سورة الإسراء الآية : ١.

(٢) راجع نصها فى كتاب الروضتين لأبى شامة.

- ٤ -

بعد سقوط بيت المقدس

الموقف حول صور وأنطاكية

تجمع الفرنج الذين خرجوا من المدن المفتوحة فى مدينة صور، فازدحمت بهم وكان كنراد منتفرات (وتسميه الكتب العربية المركيس) قد حصن المدينة تحصينًا قويًا، وحفر حولها خندقًا، فأصبحت كالجزيرة. وقد اتجه صلاح الدين بعد قليل لحصارها ولكنها استعصت عليه، فتركها واتجه شمالاً إلى مدينة أنطاكية (أوائل ٥٨٤ هـ - ١١٨٨م)، فاضطر صاحبها بوهمند أن يعقد معه هدنة لمدة ثمانية شهور مقابل أن يطلق بوهمند سراح من عنده من أسرى المسلمين. وكان بوهمند يريد بهذه الهدنة أن يكتسب شيئًا من الوقت عسى أن تصله بعد ذلك إمداد جديدة من أوربا.

أما صلاح الدين فقد وافق على هذه الهدنة لتحقيق غرض آخر هام، فقد كان يريد أن يفرغ للقلاع الجنوبية الداخلية للاستيلاء عليها، وقد اتجه فعلاً إلى الجنوب واستولى على كثير من القلاع الداخلية وأهمها حصنا الكرك والشوبك، وكان صلاح الدين كلما استولى على مدينة سمح لأهلها من الفرنج بالرحيل عنها، وكان هؤلاء الفرنج جميعًا يولون وجوههم شطر مدينة صور.

وقد لام المؤرخون صلاح الدين أن سمح لكل هذه الحشود الفرنجية بالتجمع فى مدينة صور بحيث أصبحت فى المستقبل عقبة كبرى استنفذت منه جهودًا كبيرة لمقاومتها وكانت مصدر خطر كبير على ملكه. ولكننا نستطيع أن نعفى صلاح الدين من كثير من هذا اللوم إذا فهمنا خططه ونواياه، فهو عندما كان يسمح لأهل المدن التى يستولى عليها بتسليمها بدون حرب وبالخروج منها إلى صور كان يشجعهم على التسليم دون مقاومة ودون حرب ودون بذل دماء من الطرفين، فكان يهدف بهذه الوسيلة إلى تحقيق أغراضه والاستيلاء على هذه المدن دون أن يضحى بأرواح رجاله، وهو بهذه الوسيلة أيضًا استطاع أن يطهر مدن الداخل من أعدائه الفرنج، وأن يحشدهم جميعًا فى مكان واحد عند الساحل. والحصون الداخلية عادة أشد خطرًا من المدن الساحلية، لأنها كالجيوب تتخلل أنحاء دولته وتكون مصدر متاعب دائمًا، أما الحصون الساحلية فمن الممكن حصارها، وهى كذلك لا تستطيع الاستمرار فى المقاومة طويلاً دون نجدات تصلها من الخارج، وأمر هذه النجدات الخارجية لا يمكن أن يعمر طويلاً وذلك لأن حماسة القوم فى أوربا تخبو وتضعف مع الزمن. ولو أن صلاح الدين قضى الوقت الطويل فى حصار مدينة صور، ولم يتجه لفتح القدس والمدن الداخلية، ثم وصلت الحملة الصليبية

الثالثة، إذن لتغير وجه التاريخ، ولصعب عليه بعد ذلك تحقيق كل هذه الأهداف التى حققها.

وفى ذلك الوقت، وقبل مجىء الحملة الثالثة، حل موعد إطلاق سراح الملك جى ملك بيت المقدس، ومقدم الداوية، فصدق صلاح الدين وعده، وأطلق سراحهما واشترط عليهما مقابل ذلك أن لا يسهما أو يشتركا فى أى حرب ضده فى المستقبل، ولكنهما - كعادتهما - حنثا بالوعد وأخلا بالعهد وذهبا إلى صور، وانضما هناك إلى المقاتلين، ثم وصلت الحملة الصليبية الثالثة، فما قصتها..؟



البـــاب الخامس

الحملة الصليبية الثالثة
والصراع الدامى حول عكا

الباب الخامس

الحملة الصليبية الثالثة

والصراع الدامى حول عكا

كان لسقوط القدس فى أيدى المسلمين صدى قوى فى أوربا، فاستثيرت حماسة القوم من جديد، وانتهى الأمر بارسال حملة صليبية جديدة قوية هى المعروفة بالحملة الثالثة.

كانت وفود الصليبيين وأمدادهم تأتى إلى الشام كل سنة تقريبًا للحج أو للحرب أولهما معًا. وهذه حملات صغيرة لم يعن بإحصائها أو التأريخ لها مؤرخو الحرب الصليبية وإنما هم عنوا بالتأريخ للحملات الكبرى التى أتت نتيجة لأحداث كبرى والتى تركت آثارا خطيرة، فبعد سقوط الرها - الإمارة الصليبية الأولى - فى أيدى عماد زنكى استثيرت حماسة الناس فى أوربا، وكان رد الفعل إرسال الحملة الصليبية الثانية، وبعد سقوط بيت المقدس الإمارة الصليبية الثانية - فى أيدى صلاح الدين استثيرت حماسة الصليبيين فى أوربا، وكان رد الفعل إرسال الحملة الصليبية الثالثة، ولكننا نلاحظ أن هذه الحملة الثالثة كان يسيرها ويوجهها عوامل سياسية واضحة، فلم يعد العامل الدينى هو العامل الوحيد المؤثر فى الحركة الصليبية، ولفهم هذا نلقى نظرة سريعة على هذه الحملة من حيث الدوافع التى دفعت إلى خروجها، ومن حيث موقف القادة الذين كانوا يتولون قيادتها.

كان يقود هذه الحملة ثلاثة من كبار ملوك أوربا فى ذلك الوقت:

- فردريك بربروسا إمبراطور الدولة الرومانية (وتسميه الكتب العربية ملك الألمان).
- ورتشارد قلب الأسد، ملك إنجلترا (وتسميه الكتب العربية: الانكتير أو الإنكتار أو الانكلتير)
- وفيليب أوجست ملك فرنسا (وتسميه المراجع العربية الفرنسيس)

كان فردريك إمبراطورا لدولة واسعة تضم ألمانيا وبلاد الرين وإيطاليا، وكان يشغله فى بلاده وقتئذاك نضالان: نضال ضد الأمراء الإقطاعيين للحد من سلطانهم، ونضال ضد البابا، وقد نجح فردريك إلى حد كبير فى نضاله الأول، وقوى - نتيجة لنجاحه - شأن الحكومة المركزية، وأصبح كبار الأمراء الإقطاعيين يدينون له بالولاء. أما النضال الثانى فقد كانت الحرب فيه سجالاً. وأخيرًا اتفق الطرفان - الإمبراطور والبابا - على عقد حلف دفاعى بينهما، أى أن يتعاونا دائمًا ضد من يجرؤ على معاداتهما، وقد كان الإسلام فى ذلك الوقت يعتبر أكبر عدو

لكل منهما، لهذا انضم فردريك إلى الحملة الثالثة يريد بذلك أن يعلو شأنه بين ملوك أوربا الكبار بمساهمته فى هذه الحروب الدينية، وقد رحب البابا باشتراكه ليشغل قوى الإمبراطورية فى حرب دينية هو دائمًا الرئيس الأعلى لها، فاشتراك الإمبراطور فى هذه الحرب الدينية فيه اعتراف ضمنى بخضوعه وتبعية للبابا. وواضح هنا أن الدافع لم يكن دينيًا وحسب، بل أصبحت العوامل السياسية تؤثر وتدفع وتوجه.

أما الانكتار رتشارد قلب الأسد فهو من سلالة النورمان أبناء وليم الفاتح ومن سلالة أمراء أنجر الفرنسيين، وقد كان النضال وقتذاك على أشده بين ملوك إنجلترا وملوك فرنسا بشأن كثير من دويلات فرنسا، وكل منهما يدعيها لنفسه. وكانت كفة فرنسا قد بدأت ترجح، وأخذت إنجلترا تنكمش داخل جزيرتها لتفرغ لتكوين قومية إنجليزية جديدة، وكان رتشارد ملكًا شجاعًا ولكنه لم يكن قديسًا، فهو عندما فكر فى الخروج فى هذه الحملة الثالثة لم يكن متأثرًا بالحماس الدينى، ولم يكن يهدف إلى تحقيق غرض دينى، وإنما هو خرج يلتمس المجد والنصر فى بلاد الشرق.

وكان القائد الثالث من قواد الحملة ملك فرنسا فيليب أوجست وينحدر من سلالة الأسرة الفرنسية (هيوكابيه) التى قامت على أنقاض دولة أبناء شارلمان. وقد شغلت هذه الأسرة أول الأمر بمحاربة أمراء الإقطاع، وحقق أفرادها نصرًا فى هذا الميدان، فقويت الحكومة المركزية وزاد نفوذ الملوك. وانتصار ملك فرنسا على أمرائه الإقطاعيين وعلى ملوك إنجلترا جعل له مكانًا ممتازًا فأصبح يعتبر واحدًا من ملوك أوربا الكبار، فعندما خرجت الحملة الثالثة، واشترك فيها فردريك ورتشارد، رأى فيليب أنه لابد له أن يشترك هو أيضًا لأنه ملك عظيم، ولا يصح أن يتخلف عن حرب اشترك فيها أنداده من الملوك العظام. وواضح هنا كذلك أن الدافع لم يكن دينيا وحسب، بل كانت هناك عوامل سياسية تدفع وتؤثر وتوجه.

حصار عكا

كان النضال طول مدة بقاء هذه الحملة مركزًا كله حول عكا، فقد تجمع الصليبيون فى مدينة صور، وانضمت إليهم بعض البعوث الوافدة من أوربا، واتجهوا إلى عكا يريدون الاستيلاء عليها ليكون لهم على البحر المتوسط ميناءان قويان.

خرجت جيوش الصليبيين بقيادة الملك جى والمركيس كنراد فحاصرت مدينة عكا، وأتم الحصار من ناحية البحر أسطول الفرنج، فكان يمدهم بالإمدادات ويمنع وصولها إلى المسلمين المحاصرين داخل المدينة. وحول قوى الإفرنج فى البر وقفت قوى المسلمين. وهكذا اجتمعت فى شعبان سنة ٥٨٥هـ (أغسطس سنة ١١٨٩م) جميع قوى الطرفين حول عكا واستمر النضال بينهما نحو عامين إلى أن وصل فيليب أوجست ثم رتشارد قلب الأسد، فرجحت كفة الفرنج، وخضعت المدينة بعد مقاومة عنيفة وسلمت فى جمادى الآخرة ٥٨٧هـ (يوليو ١١٩١م).

وليسهل فهم الموضوع سنقسم الحصار إلى أدوار:

الدور الأول

من بدء الحصار إلى شتاء ٥٨٥ هـ (١١٨٩م)

حاصر الفرنج المدينة بجيوش كثيفة، وبذل صلاح الدين جهدًا كبيرًا لفتح ثغرة فى نطاق هذا الحصار لينفذ منها الجند والمدد إلى المدينة، ونجح فى تحقيق هذا الغرض بعد مشاق كبيرة، ولكن الفرنج بذلوا جهدًا آخر لإتمام الحصار ثانية وسد هذه الثغرة، ودارت فى سبيل هذا معارك عنيفة بين الجيشين انتصر فيها المسلمون، وجمع صلاح الدين - بعد هذا النصر - مجلسًا من قواده للتشاور، وكان من رأيه أن يتابع القتال بعد هذه الضربة، حتى لا يترك للعدو فرصة لاستعادة قواه، ولكن أمراء صلاح الدين آثروا الراحة بعد قتال دام خمسين يومًا متصلة، واضطر أن ينزل على رأيهم، وكان رأيًا خاطئًا، فقد أفاد الفرنج من هذه الراحة فلموا شعثهم وقووا ضعفهم، ولم تكد تنتهى مدة الراحة حتى حل فصل الشتاء، وفيه توقفت أيضًا أعمال القتال، وفى ذلك الوقت ترددت الأخبار بقرب وصول الإمبراطور فردريك.

الدور الثانى

من ربيع ٥٨٦هـ (١١٩٠م) إلى أول شتاء نفس السنة

بعد أن انتهى شتاء السنة الماضية، بدأ صلاح الدين يعد العدة لاستئناف القتال فاستدعى الجيوش من كل أطراف الدولة، وتتابع وصولها، وأمد الجيش بعدد كبير من النفاطين والزراقين، وفى أثناء هذه الدور تقدم إلى صلاح الدين شاب دمشقى بسائل اخترعه لحرق الدبابات المقاتلة، وقد استعمل فعلاً هذا السائل وأحرق عددًا من دبابات العدو الضخمة التى كانت معدة للاستيلاء على أسوار المدينة. وفى هذه المرحلة وصل أسطول مصر يحمل كميات كبيرة من المؤونة والإمدادات، ولم يتمكن من الدخول إلى المدينة إلا بعد أن بذل صلاح الدين فى البر جهودًا كبيرة لشغل قوى العدو، وقامت معارك برية وبحرية خطيرة إلى أن نجح الأسطول فى دخول عكا محملاً بالمؤن والمحاربين.

وكان صلاح الدين فى ذلك الحين يريد أن يضرب العدو ضربة قوية قبل أن يصل الإمبراطور فردريك بجيشه فتزيد قوة العدو، ولكن القدر كفاه شره، فقد أتى فردريك بطريق البر عبر بلاد المجر والبلقان ووصل بجيشه إلى القسطنطينية فى أراضى الدولة البيزنطية، ولكن إمبراطور بيزنطة لم يرحب بمقدم هذا الجيش الصليبى كما رحب بجنود الحملة الأولى، بل لقد كان يخشى جنود فردريك الذين نهبوا بلاده وخربوها أثناء مرورهم بها، ولم تكن الثقة متبادلة بين الإمبراطورين، بل لقد كان إمبراطور بيزنطة يكره فردريك، وخير شاهد على هذا أن إمبراطور بيزنطة أرسل فى ذلك الوقت خطابًا وديًا إلى صلاح الدين يعلن فيه صداقته ويعلن فيه كرهه للألمان.

وعبر فردريك إلى آسيا الصغرى فلقى جيشه صعابًا كثيرة مما أصابهم من مرض وجوع وتعب ومن مقاتلة فرسان سلاجقة الروم، وأخيرًا مات فردريك أثناء سباحته فى نهر هناك.

وسمع صلاح الدين بقرب وصول فردريك وجيشه، فأرسل جزءًا من جيشه إلى شمال الشام للوقوف فى سبيله ومنعه من التقدم جنوبًا، وشعر الفرنج بهذه الحركة فبادروا بمهاجمة الجناح الناقص فى جيش صلاح الدين، وهو الميمنة، وكان يتولى قيادتها الملك العادل أبو بكر أخو صلاح الدين، وقامت معركة عنيفة، عرفت فيما بعد باسم المعركة العادلية، واستمرت أكثر النهار، وكتب النصر فى نهايته لجيش صلاح الدين، وقد أثر هذا النصر وما أصاب جيش فردريك فى روح الفرنج المعنوية، ولكنهم صبروا وصابروا وخاصة بعد أن وصلتهم قوة جديدة من أوربا بقيادة الكند هرى (هنرى دى شمبانى) قريب ملكى فرنسا وإنجلترا. وبدأ الحصار يشتد

حول المدينة، وأبدى الفريقان شجاعة ممتازة، وظهر فى معسكر المسلمين فى هذه المرحلة عدد من الجنود الفدائيين كانوا يسبحون وسط أساطيل العدو لإيصال الأموال والأخبار إلى المسلمين المحاصرين داخل عكا (راجع قصة عيسى العوام فى كتاب الروضتين) وأخيرًا وصلت فلول الجيش الألمانى بقيادة المركيس صاحب صور، ودوق سوابيا (ابن فردريك). ولكن فصل الشتاء كان قد حل ببرده وأمطاره فتوقف القتال.

الدور الثالث

من ربيع ٥٨٧هـ (١١٩١م) إلى سقوط المدينة

بدأت المدينة فى هذا الدور تضعف ضعفًا ظاهرًا بعد هذا الحصار الطويل، وكان الفرنج قد ارتفعت روحهم المعنوية وزادت قوتهم بوصول فيليب أوجست ورتشارد قلب الأسد. وحاول صلاح الدين أن يرسل مددًا أو مؤونة جديدة إلى المدينة، ولكن العدو كان متفوقًا فى البحر. فأحاط الأسطول الإنجليزى بالسفن الإسلامية، فلما عجزت هذه السفن عن المقاومة أمر ربابنتها بتحطيمها فحطمت وغرقت وغرقوا مع من فيها.

ولم يكن الفرنج فى هذا الدور على وفاق، فقد اختلف المركيس صاحب صور مع بقية القواد وعاد إلى مدينته صور، وكذلك نشب نزاع قوى بين الملكين فيليب وريتشارد، ومع هذا فقد اشتد الضيق بالمسلمين فى المدينة وخاصة بعد أن عجز صلاح الدين عن نجدتهم أو إمدادهم.

تسليم المدينة وشروط الصلح:

ولهذا بدأت المفاوضات بين الطرفين لتسليم المدينة، واتفق على الشروط الآتية:

- أن تسلم المدينة للفرنج بما فيها من الآلات والعدد والأسلحة.
- أن تدفع مائتى ألف دينار فدية لمن بها من أسرى المسلمين.
- أن يطلق سراح ألف وخمسمائة فارس من مجاهيل الأسرى الفرنج ومائة معينين بالاسم.
- أن يرد للفرنج صليب الصلبوت.
- أن يخرج جميع من فى المدينة من المسلمين سالمين.

وسلمت المدينة فى ١٧ جمادى الآخرة سنة ٥٨٧هـ (١٢ يوليو سنة ١١٩١م)، فحزن صلاح الدين لسقوطها الحزن كله وفرح الفرنج بهذا النصر.

نكث العهد ونقض الصلح:

ومع هذا فقد حنث الفرنج بوعودهم، ولم ينفذوا شروط الصلح، وبدأ سوء التفاهم بين الفريقين، فالفرنج لا يريدون تسليم الأسرى إلا بعد أخذ الفدية كلها، والمسلمون لا يريدون دفع المال إلا إذا تأكدوا من إطلاق الأسرى وبدأ المسلمون يجمعون مال الفدية، وعرضوا أن يدفعوا نصفه بشرط أن يضمن رؤساء الداوية إطلاق سراح الأسرى عند دفع النصف الثانى، ولكن رؤساء الداوية رفضوا إعطاء هذا الضمان، وأصر الفرنج على أخذ المال كله، ولهم بعد ذلك أن يطلقوا سراح من شاءوا ويحتفظوا بمن شاءوا فى أسرهم، وعند ذلك بدأ صلاح الدين يشك فى نواياهم وأيقن أنهم إنما يريدون أخذ المال ليتقووا به ثم يطلقون بعد ذلك سراح الفقراء من الأسرى ويحتفظون بالأمراء والكبار ليصيبوا من ورائهم مالاً جديدًا.

وأبى صلاح الدين دفع المال، واستؤنف القتال مريرًا بعد استيلاء الفرنج على عكا، وخاصة عندما أصبح المسلمون فرأوا جثث أسراهم فى عكا - وكانوا نحو ٣٠٠٠ - وقد قتلهم الفرنج ولم يبقوا فى أسرهم غير الأمراء والأغنياء.

استئناف القتال بعد عكا:

كان لأخذ عكا أثر كبير فى نفوس الفرنج، فقد رفع روحهم المعنوية، كما كان له أثر مضاد فى نفوس المسلمين فقد تخاذلوا بعد ذلك وتولت هزائمهم.

كانت القيادة فى جيش الصليبيين لرتشارد، لأن فيليب كان قد عاد إلى وطنه فرنسا بعد أن اشتد النزاع بينه وبين رتشارد، واتجه رتشارد بجيوشه جنوبًا يريد الاستيلاء على مدن الساحل، فإذا تم له هذا اتجه إلى بيت المقدس. وقامت بينه وبين المسلمين معركة عنيفة عند مدينة أرسوف (شعبان ٥٧٨هـ - سبتمبر ١١٩١م) هزم فيها المسلمون هزيمة كبيرة، لولا ثبات صلاح الدين وأثره الشخصى فى إثارة الحماس بين جنده لكانت موقعة أرسوف نكبة كبرى.

وأحس صلاح الدين ضعف الروح المعنوية بين رجاله، فجمع قواده للاستشارة، ونصحوا بأن تترك مدن الساحل للفرنج ولكن بعد تخريبها حتى لا يتقوى العدو بحصونها وقلاعها، ووافق صلاح الدين على هذا الرأى لأنه كان يعلم أن العدو قوى عند الساحل ولكنه يستطيع الانتصار عليه إذا هو توغل فى الداخل. وبدأ بتخريب مدينة عسقلان، وتألم كثيرًا لتخريبها، ثم أتبعها باللد والرملة، واتجه بعد ذلك إلى بيت المقدس وأخذ يعمل على تقويتها وتحصينها.

واستولى الفرنج فعلا على مدن الساحل، وبدأوا يستعدون للتقدم نحو الداخل، وهنا نشأ خلاف جديد بين المركيس كنراد دى مونتفرات وبين رتشارد، وبدأ كل منهما يسعى من ناحيته للاتصال بصلاح الدين ومفاوضته طلبًا للصلح، وكانت شروط المركس أن تكون له صيدا وبيروت

على أن يكون حليفًا للمسلمين ضد الفرنج، غير أن صلاح الدين لم يكن على استعداد للوثوق بوعوده فطلب منه أن يبدأ بحرب الفرنج فى عكا قبل الصلح.

أما رتشارد فكانت له شروط أخرى، أهمها:

الاستيلاء على بيت المقدس، ورد صليب الصلبوت، وأخذ البلاد الواقعة بين نهر الأردن والساحل، وأن يقوم تحالف بين الدولة الإسلامية والصليبيين، وأن يتزوج الملك العادل أخت الإنكتار ويحكمان معًا الدولة الجديدة فى بيت المقدس.

ولكن هذه الشروط لم تلق فى النهاية قبولاً لدى الطرفين، فقد ثارت فى سبيلها اعتراضات كثيرة، وبدأ المسلمون يستعيدون قوتهم، وبدأوا يحرزون بعض الانتصارات، وكانت غيبة رتشارد قد طالت عن وطنه، وقامت فى إنجلترا منافسات خطيرة على العرش ترمى لعزله. وأدرك رتشارد الحقيقة أخيرًا، أدرك أنه يستطيع أن يحرز الانتصارات المؤقتة ولكنه من غير الطبيعى أن ينتصر على قوم فى وسط بلادهم تتجدد قواهم دائمًا، فى حين أنه بين ميدان القتال ومقر دولته مسافات شاسعة.

ولهذه الأسباب مجتمعة بدأت المفاوضات من جديد للصلح، وتخللت المفاوضات مجاملات كثيرة وهدايا متبادلة بين الطرفين، ونشأ نوع من الود بين العادل أخى صلاح الدين ورتشارد.

وكان صلاح الدين يرى أنه من الأفضل أن يبدأ بمصالحة المركيس صاحب صور، فإذا خلص من رتشارد كان من السهل القضاء على المركيس لضعف شأنه، ولكنه لم يلبث أن سمع بمقتل المركيس، قتله اثنان من رجاله فى رواية، أو من الفدائيين الحشيشية فى رواية أخرى.

استقر صلاح الدين فى القدس يقويه ويحصنه، وأفسد الماء خارجه، واتجه الفرنج بجيوشهم نحو هذه المدينة، ولكنهم لم يلبثوا أن عادوا إلى الساحل، بعد أن أدركوا أن تحصينات القدس ليس من السهل التغلب عليها.

وتجددت مفاوضات الصلح، وعرض رتشارد أن يترك الساحل لابن أخته الكندهرى (الكونت هنرى دى شمبانى) وأن يأخذ الفرنج كنيسة فى بيت المقدس، ورضى صلاح الدين أن يعطيهم كنيسة القيامة وأن يترك لهم الساحل، فيما عدا عسقلان وما يليها جنوبًا فاشترط أن تترك خرابًا وألا تكون لأحد من الطرفين، وأن تكون جميع القلاع الجبلية للمسلمين.

وطالت المفاوضات، وتخللها موقعة عند يافا، فقد حاصرها صلاح الدين وأخذها. وكان ريتشارد متجهًا إلى بيروت، فلما سمع بسقوط يافا عاد وأبدى شجاعة فائقة حتى استردها. وعاد صلاح الدين إلى الرملة، وفى أثناء ذلك مرض رتشارد، واشتد به المرض، وأرسل إلى صلاح الدين يطلب فاكهة وثلجًا، فأرسلها صلاح الدين إليه تقديرًا لبطولته.

صلح الرملة

وبعد الشفاء اشتدت رغبة رتشارد فى عقد الصلح، فقد اشتد حنينه للعودة إلى الوطن. وأخيرًا عقد الصلح فى ٢٢ شعبان ٥٨٨هـ (٣ سبتمبر سنة ١١٩٢م) - وهو المعروف بصلح الرملة - وبه اختتمت الحملة الصليبية الثالثة، وحلف عليه أمراء الفرنج والكندهرى، كما حلف عليه العادل وولدا صلاح الدين، ودخل فى الصلح أمير طرابلس وأنطاكية، وأهم شروطه.

- يحتفظ الفرنج بمنطقة الساحل من عكا إلى يافا.
- يسمح للحجاج المسيحيين بزيارة بيت المقدس.
- تكون عسقلان - بعد تخريبها - وما يليها جنوبًا بيد صلاح الدين.

وتم الصلح، ووفد الحجاج إلى القدس للزيارة فأكرمهم صلاح الدين وبالغ فى إكرامهم، وعاد ريتشارد إلى بلاده.

خاتمة جهــاد
ووفــاة بطل

وأقام صلاح الدين فى القدس قليلاً يبنى ويعمر ويصلح وينشئ المدارس والمستشفيات كعادته، ثم اتجه إلى الشمال يتفقد أحوال مملكته ورعاياه وعاد إلى دمشق فقضى بـها شهورًا للاستجمام بعد هذا الجهاد الطويل والعناء الشاق، ولكنه ما لبث أن مرض بالحمى، ولم يمهله المرض إلا أيامًا معدودات، ثم بلغ الكتاب أجله، وارتفعت روحه إلى بارئها فى ٢٧ صفر ٥٨٩هـ (٤ مارس سنة ١١٩٣م) فحزن المسلمون لموته حزنًا لم يحزنوه لموت أحد من قبله، فقد مات البطل الذى قادهم نحو النصر، ورد اعتبارهم، وأيقظ فيهم روح العزة والكرامة والبطولة، وكان لهم المثل الأعلى بتقواه وشجاعته ونبله ومروءته.



الباب السادس

الأيوبيون والحركة الصليبية بعد صلاح الدين

١ - تقسيم الدولة بين أولاده .

٢ - العادل يوحد الدولة من جديد .

٣ - تطور الحركة الصليبية واتجاهها نحو مصر .

٤ - حملة هنرى السادس الصليبية وفشلها .

٥ - الحملة الصليبية الرابعة .

٦ - حملة الأطفال .



البـــاب السادس

الأيوبيون والحركة الصليبية بعد صلاح الدين

١ - تقسيم الدولة بين أولاده :

أهم ما يميز تاريخ الأيوبيين بعد صلاح الدين هو النزاع الطويل المستمر بين أفراد هذا البيت، فقد آلت أجزاء الدولة الهامة بعد وفاة صلاح الدين إلى أبنائه، فولى الملك العزيز عثمان مصر ، وولى الملك الأفضل على جنوب الشام وكان مقر حكمه دمشق ، وولى الملك الظاهر غازى شمال الشام وكان مقر حكمه حلب ، أما أجزاء الدولة الأخرى فكانت ولايات صغيرة ، أو ممالك - كما كانت تسمى - ولى الحكم فيها فروع مختلفة من الأسرة ، وأهمها مملكة حمص ووليها أفراد من سلالة أسد الدين شيركوه ، ومملكة حماة ووليها أفراد من أسرة تقى الدين عمر بن شاهنشاه .

٢ - العادل يوحد الدولة من جديد :

غير أن عوامل المنافسة لم تثبت أن نشبت بين أبناء صلاح الدين ، فاستغل أخوه الملك العادل هذه المنافسة لصالحه الخاص ، ولم تمض غير سنوات قليلة حتى أبعد الملوك من بيت صلاح الدين - فيما عدا الملك غازى صاحب حلب - وأصبح هو الحاكم للدولة الموحدة التى كان يحكمها أخوه صلاح الدين من قبل .

وقد حاول العادل أن يمرر فعلته بتقرير مبدأ خطير يمس نظام الحكم الأساسى فى الدولة. فقد قال مخاطبا أمراء الدولة ومبررًا خلعه للسلطان الأيوبى الصغير المنصور بن العزيز : (إنه قبيح بى أن أكون أتابك صبى مع الشيخوخة والتقدم ، والملك ليس هو بالإرث ، وإنما هو لمن غلب) .

وكان من الممكن أن يفهم قول العادل على أنه مناداة بمبدأ جديد من مبادئ السيادة يعارض نظام الحكم الوراثى لو أنه كان يعنى ما يقول حقا، ولكننا نلاحظ أنه لم يستشهد بهذا الرأى إلا لخدمة صالحه الخاص ، بدليل أنه جعل الحكم من بعده وراثيًا فى أبنائه ، فتولى ابنه الملك الكامل محمد ملك مصر، وولى ابنه المعظم عيسى ملك دمشق ، وولى ابنه الأشرف موسى ملك الجزيرة، بل لقد ظل الملك فى مصر خاصة، وهى أهم أقسام الدولة ، فى سلالة العادل حتى نهاية الدولة .

٣ - تطور الحركة الصليبية واتجاهها نحو مصر :

والظاهرة الهامة الثانية فى تاريخ الأيوبيين بعد صلاح الدين هى موقفهم من الصليبيين ومن النضال ضدهم، فقد كان هدف الحملات الصليبية التالية هو القضاء على الدولة الأيوبية فى مصر باعتبارها مركز المقاومة الأول. ومع أن ملوك الأيوبيين قد بذلوا الجهد الأكبر فى مقاومة هذه الحركة فإننا نلاحظ أن معظم هؤلاء الملوك قد جنحوا إلى مسالمة الصليبيين وإلى اصطناع السياسة فى علاقاتهم معهم كلما أمكن ذلك ، وكانوا يهدفون بتساهلهم بعض الشيء فى مصالحهم بالشام إلى حماية ملكهم فى مصر، ومنع الصليبيين من التفكير فى الإغارة عليها . ومع أنهم نجحوا فى هذه السياسة بعض النجاح فإن هذا لم يحل بين الحملات الصليبية وبين تطورها الطبيعى الذى انتهى بها إلى الاتجاه عن الشام إلى مصر .

٤ - حملة هنرى السادس وفشلها :

مات صلاح الدين والهدنة قائمة بين المسلمين والصليبيين ، وكانت الهدنة تنتهى فى ٥٩٢هـ (١١٩٥م) فجددها الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين سنة أخرى تنتهى فى أواسط سنة ٥٩٣هـ (١١٩٦م) .

وفى ذلك الوقت دعا البابا انوسنت الثالث إلى حرب صليبية جديدة ، فلم يلب الدعوة غير السادس ملك ألمانيا، وذلك لأن إنجلترا وفرنسا كانت منصرفتين إلى حرب قائمة بينهما، وبدأت هذه الحملة رحلتها من شواطئ إيطاليا، ووصلت إلى عكا فى أواخر سنة ١١٩٧م (أوائل سنة ٥٩٤هـ) ولم يرحب هنرى دى شمبانى ملك بيت المقدس بهذه الحملة ، وقامت بين القادمين والمقيمين من الصليبيين أسباب النزاع مما ساعد للمسلمين على الانتصار عليهم، ثم وصلت الأنباء بوفاة هنرى السادس، فعادت الحملة بعد أن منيت بالفشل.

٥ - الحملة الصليبية الرابعة :

وتلت هذه الحملة حملة هادئة هى الحملة الصليبية الرابعة (٥٩٨هـ - ٦٠١هـ = ١٢٠٢م-١٢٠٤م) ولم يصل من رجال هذه الحملة إلى الشام إلا أفراد قلائل، أما الحملة فى معظمها فقد اتجهت إلى القسطنطينية، واستولت عليها وكونت فيها دولة لاتينية.

وتفصيل ذلك أن فشل الحملة السابقة أثار غضب البابا انوسنت الثالث، فأرسل الدعوة من جديد يدعو لحملة صليبية، ووجه دعوته إلى فرنسا وإنجلترا وألمانيا، فأجاب الدعوة عدد كبير من سكان هذه الممالك، واجتمعوا فى إيطاليا استعدادًا للرحيل إلى الشرق ، واتفق زعماء الحملة مع جمهورية البندقية على أن تنقل جنود الحملة على سفنها مقابل مبلغ كبير من المال .

وعند بدء الرحيل لم يستطع زعماء الحملة جمع المبالغ كله فاستغل دوج البندقية (هنرى دندولو Dandollo) هذا التطور الجديد لصالحه ، واستعان بالحملة للاستيلاء على مدينة زارا الخارجة عليه، والتى كانت تتمتع وقتذاك بحماية ملك المجر، وذلك مقابل إعفاء الحملة من دفع رسوم نقلهم على سفنه .

وفى ذلك الوقت قام نزاع شديد على العرش بين أفراد الأسرة الحاكمة فى القسطنطينية ، ووصل واحد من هؤلاء الأفراد المتنازعين إلى الغرب يستعين بأى قوة هناك لتعيده إلى العرش ، فانتهز دندولو الفرصة للمرة الثانية، وكانت بين البندقية وبين القسطنطينية منافسات سياسية وتجارية عنيفة، فخرج دندولو لقيادة الحملة بنفسه . غير أنه لم يتول هو تحويل الحملة عن مصر والشرق الإسلامى إلى القسطنطينية، وإنما استعمل مهارته لدفع قواد الحملة إلى الإقدام على هذا التحويل، واكتفى هو بأن يعمل من وراء ستار، وقد دفع دندولو إلى هذا كثير من العوامل أهمها ما كان بين البندقية وبيزنطة من منافسات سياسية وتجارية - كما ذكرنا - ومنها أيضًا أنه كان يخشى أن تتعرض مصالح البندقية التجارية مع مصر للخطر لو أن هذه الحملة اتجهت إليها .

واستطاعت الحملة أن تصل إلى القسطنطينية وأن تستولى عليها بعد أن فر منها الإمبراطور المغتصب، وقامت بها منذ ذلك الحين إمبراطورية لاتينية خاضعة لنفوذ البندقية ، وظلت قائمة نحو ستين عامًا.

وكان لتحول هذه الحملة عن مصر والشام نتائج خطيرة أخرى ، فقد اجتذبت الدولة اللاتينية الجديدة كثيرًا من العناصر الصليبية التى كانت تتجه من قبل إلى الشرق الأدنى الإسلامى . بل لقد رحل كثيرون من صليبى الشام إلى القسطنطينية وبلاد اليونان بعد إنشاء هذه الدولة، مما دفع ملك بيت المقدس إلى تجديد الهدنة مع الملك العادل أبى بكر فى ٦٠٧هـ (١٢١٠م) .

ويقول بعض المؤرخين إن سياسة الملك العادل كان لها شأن فى تحويل هذه الحملة الرابعة عن مصر والشام إلى القسطنطينية ، وأنه أرسل إلى البندقية فى ذلك الحين سفارة تحمل إليها بعض الهدايا ووعودًا بأن تمنح تجارة البندقية مزايا استثنائية مقابل أن يبذل الدوج نفوذه لإبعاد الحملة عن مصر .

ومع أن بعضا آخر من المؤرخين يشك فى صحة هذه الرواية فإن هناك من جهة أخرى ما يقويها ويدفع إلى تصديقها، وذلك أن العادل كان رجلاً سياسيًا، وكان يؤثر دائمًا استعمال الوسائل الدبلوماسية دون الحرب لحل مشكلاته المختلفة. كذلك كان العادل قد عقد فى سنة ٦٠٤هـ (١٢٠٧م) معاهدة تجارية مع البنادقة منحهم فيها كثيرا من المزايا التجارية

فى الإسكندرية وغيرها من ثغور مصر مقابل أن تتعهد البندقية بمنع أى حملة تريد الوصول إلى مصر .

ومع هذا فقد كانت الروح الصليبية لا تزال أقوى من هذه المعاهدات ومن هذه الوسائل السلمية، وكان البابا يصدر دائمًا الأوامر المشددة لمنع التجارة مع مصر، ويحرم أن تباع إليها بعض السلع الهامة المتصلة بالحرب وإعداد الجنود وصنع الآلات الحربية مثل الخشب والحديد والأسلحة والرقيق.

ولهذا نجد أن حملتين قويتين وجهتا إلى مصر فى أواخر العصر الأيوبى .

٦ - حملة الأطفال (٦٩٥هـ - ١٢١٢م) :

وقد سبقت هاتين الحملتين حملة طريفة ، هى حملة الأطفال ، فقد قام فى أوربا صبى من الرعاة وادعى أن المسيح أمره بقيادة حملة صليبية من الأطفال لإنقاذ بيت المقدس، واجتمع حوله عدد كبير من الأطفال بلغوا فيما يقال الثلاثين ألفا من مختلف الممالك، وهم خليط من الأولاد ومن البنات اللائى اتخذن ملابس الأولاد وكلهم فى سن الثانية عشرة من عمرهم أو ما يقرب منها، ووصل هذا الحشد إلى الشواطئ الإيطالية وإلى مارسيليا . وقد غرر بهم بعض التجار وأصحاب السفن فحملوهم إلى الثغور الإسلامية وباعوهم فى الإسكندرية وغيرها من البلدان الإسلامية بيع الرقيق.

وتلت هذه الحملة الحملتان الهامتان السابق ذكرهما ، وهما حملة جان دى بريين وحملة لويس التاسع . وهاتان الحملتان تؤرخان الاتجاه الجديد الذى بدأت الحركة الصليبية تتخذه، وهو الابتعاد مؤقتًا عن البلاد المقدسة بالشام، وتوجه قواهم كلها لتحطيم الملك الأيوبى فى مصر باعتبارها مصدر القوة والزعامة ، ومصدر المقاومة الإسلامية الكبرى .

البـــاب الســـابع

الحملات الصليبية فى عهد
الملك الكامل محمد

١ - الحملة الصليبية الخامسة بقيادة جان دى بريين .

٢ - الحملة الصليبية السادسة بقيادة الإمبراطور فردريك الثانى .



الباب السابع
الحملات الصليبية فى عهد الملك الكامل محمد

- ١ -

الحملة الصليبية الخاصة بقيادة جان دى بريين

وفى أواخر عهد الملك العادل أبى بكر أصاب الحروب الصليبية انقلاب جديد خطير، فقد لاحظ الصليبيون أن مصر هى حصن الإسلام القوى وضيعته الغنية، وأنها مصدر الإمدادات القوية الوفيرة من الرجال والميرة والسلاح، وبفضل هذا كله استطاع صلاح الدين أن ينتصر عليهم انتصاراته الحاسمة، ويستعيد منهم بيت المقدس والكرك والشوبك وغيرها من عشرات المدن والقرى، ولهذا كله قر رأيهم على أن يبدأوا بمصر، فإذا استولوا عليها فقد سهل عليهم كل شىء، واستطاعوا فى يسر أن يستعيدوا بيت المقدس بل ويملكوا الشام كله.

بدأوا هذا الاتجاه فى سنة ٦١٥هـ (١٢١٨م) والملك العادل يناضلهم فى الشام، وفى مصر ابنه الملك الكامل محمد ينوب عنه فى الحكم.

واتخذ الصليبيون لهذا الأمر عدته، ووصلتهم الإمدادات الوفيرة من ممالك أوربا المختلفة، فلما تكامل عددهم أبحروا - بقيادة جان دى بريين ملك بيت المقدس - من عكا إلى دمياط فى أسطول ضخم كثير العدد يحمل نحو السبعين ألف فارس وأربعمائة ألف راجل، ووصلوا إلى شواطئ دمياط، ونزلوا ببرها الغربى يوم الثلاثاء رابع ربيع الأول من سنة ٦١٥ (يونيو سنة ١٢١٨)، وكان هذا البر الغربى يسمى جزيرة دمياط، وهى تسمية مجازية لأن مياه البحر تحيط به شمالاً ومياه النيل تحيط به شرقًا، كما كان يسمى أيضًا جيزة دمياط، والجيزة فى اللغة الناحية. أو لعله سمى كذلك لأنه يجاز إليه من دمياط.

وعسكر الصليبيون فى جموعهم الحاشدة بهذا البر الغربى تجاه دمياط، وحصنوا معسكرهم، فحفروا حوله خندقًا وأحاطوه بسور وستائر.

وكانت دمياط - كما سبق أن أسلفنا - مدينة حصينة غاية الحصانة، تحيط بها الأسوار والقلاع والأبراج القوية الضخمة، ويحيط بهذه الأسوار الخندق الذى أنشىء فى أواخر عهد

صلاح الدين. وكان عند مدخل فرع دمياط برج ضخم مشحون بالمقاتلة والسلاسل الحديدية المتينة تمتد منه إلى برج مقابل على شاطئ دمياط لمنع سفن العدو من العبور فى النيل والوصول إليها (إلى المدينة)، وكان هذا البرج هو مفتاح دمياط لا يمكن للصليبيين الوصول إليها إلا إذا استولوا عليه، ولهذا توافرت جهودهم كلها فى أول الأمر للاستيلاء على هذا البرج المنيع، واستعانوا لتحقيق هذا الهدف ببناء أبراج خشبية عالية أقاموها على سفنهم وتقدموا بها إلى البرج لمحاربة جنده وحاميته ولكن هؤلاء الجند استطاعوا أن يردوهم أكثر من مرة.

ووصلت أخبار نزول الصليبيين إلى بر دمياط الغربى إلى الملك الكامل، فخرج بجيشه متجهًا إلى الشمال، وأرسل الأساطيل إلى دمياط، وأمر الولاة بجمع العربان. ونزل الكامل بمنزلة العادلية قرب دمياط وعسكر بها، هذا والملك العادل يرسل إليه المدد تلو المدد من الشام ليستعين بها جميعا فى محنته.

وظل البرج يقاوم ويمانع أربعة أشهر طوالاً، وأخيرًا بنى الفرنج برجًا عاليًا ضخمًا وأقاموه على بطسة كبيرة، وتقدموا به تحت وابل من سهام المصريين إلى أن أسندوا برجهم إلى البرج المدافع، وقاتلوا به قتالاً عنيفًا إلى أن استولوا على برج دمياط.

وكان استيلاؤهم على هذا البرج حادثًا خطيرًا أليمًا، فقد سهل لهم الاستيلاء على المدينة بعد ذلك، ويكفى للدلالة على خطورة هذا الحادث أن نذكر أن الملك العادل عندما سمع بخبره وهو مقيم ببرج الصفر بالشام تأوه تأوها شديدًا، ودق بيده على صدره أسفًا وحزنًا، ومرض من ساعته، ثم لم يلبث أن مات من حسرته بعد أيام.

وخلص ملك مصر للملك الكامل محمد، فاشتد ثقل العبء الملقى على كتفيه، لأن الصليبيين أقدموا بعد استيلائهم على البرج فحطموا سلاسله لتجوز مراكبهم فى نهر النيل، فاضطر الكامل لإقامة جسر عظيم جنوبى البرج لمنعهم، ولكنهم قاتلوا عليه قتالاً شديدًا إلى أن قطعوه، ويقال إن الكامل صرف على البرج والجسر فى ذلك الوقت ما ينيف على سبعين ألف دينار.

ولم ييأس الكامل وإنما أمر أن تغرق عدة من السفن فى عرض النيل لتمنع سفن الصليبيين من العبور جنوبًا، واحتال الفرنج على هذا الإجراء الأخير حيلة ماكرة، فقد كان هناك على البر الغربى خليج قديم يعرف بالخليج الأزرق كان يجرى فيه النيل فيصب فى البحر ولكن الرمال طمرته. فأعادوا حفره، وأصعدوا فيه سفنهم حتى وصلت إلى مدينة بورة التى تقابل منزلة العادلية حيث يعسكر الكامل بجيوشه، وبدأت المناوشات بين الجيشين.

كل هذا ودمياط لا زالت آمنة وسورها يحميها وأبوابها مفتحة، والميرة والامداد تصل إليها دون انقطاع، والنيل لا يزال يفصل بينها وبين العدو، والعربان تقض مضاجع الصليبيين فتتخطفهم من معسكراتهم فى الليل، حتى امتنعوا من الرقاد خوفًا من غاراتهم. وقامت رياح

عاصفة فقطعت مراسى مرمة للفرنج (وهى سفينة ضخمة جدًا مشحونة بالميرة والسلاح) ويقول عنها المقريزى: (وكانت من عجائب الدنيا، فمرت إلى بر المسلمين فأخذوها، فإذا فيها مسامير زنة الواحد منها خمسة وعشرون رطلاً).

ولو سارت الأمور سيرها الطبيعى لما وصل الصليبيون إلى دمياط، ولكن البلاء نبت فى معسكر المسلمين أنفسهم، فقد انتهز أحد أمرائهم الكبار ويدعى عماد الدين أحمد بن المشطوب - فرصة موت الملك العادل، واستمال إليه عددًا من قواد الجيش، وحاول أن يخلع الكامل ويولى مكانه أخاه الملك الفائز، وعلم الكامل بالمؤامرة فخشى على نفسه، فترك معسكره بالعادلية فى الليل وانسحب جنوبًا إلى أشموم طناح.

وأصبح الجند بغير سلطان، فتفرقت كلمتهم، وتركوا أثقالهم وخيامهم وأموالهم وأسلحتهم ولحقوا بالسلطان.

ورحب الفرنج بالفرصة المواتية ونزلوا إلى البر الشرقى يوم الثلاثاء سادس عشر ذى القعدة دون أن يلقوا أية مقاومة، واستولوا على جميع ما كان فى معسكر المسلمين، وكان شيئًا لا يحيط به الوصف. وعسكروا فى البر الشرقى، وحصنوا معسكرهم، كالمعتاد، فحفروا حوله خندقًا وبنوا سورًا، وبدأوا يحاصرون دمياط ولكن أهلها صمدوا للقتال وقاوموا مقاومة مجيدة عنيفة، وخضعوا إبان هذا الحصار لشدائد مريرة، فقلت الأقوات عندهم، وكان بالمدينة - غير أهلها - عشرون ألف مقاتل، فلما طال بهم الحصار أنهكتهم الأمراض وغلت الأسعار حتى بيع رطل السكر بمائة وأربعين دينارًا، والدجاجة بثلاثين، وأروية الماء بأربعين درهمًا.

واحتال السلطان للاتصال بأهل دمياط لتشجيعهم وتقوية روحهم المعنوية، فانتدب لذلك رجلاً من جنوده يدعى شمائل، فكان يسبح فى الماء بعيدًا عن أعين الفرنج حتى يصل إلى أهل دمياط فيعدهم بوصول النجدات.

وطال الحصار بالمدينة ستة عشر شهرًا واثنين وعشرين يومًا، حتى اشتد بهم الضيق وعدمت لديهم الأقوات، وامتلأت الطرقات والمساكن بالموتى. وتسور الفرنج المدينة، وأخيرًا دخلوها فى يوم الثلاثاء لخمس بقين من شعبان سنة ٦١٦ هـ (نوفمبر سنة ١٢١٩م) فوضعوا السيف فى رقاب الناس، وأسرفوا فى قتلهم، وجعلوا جامع المدينة كنيسة، وانبثوا فى القرى المجاورة، وأخذوا يحصنون المدينة وأسوارها، لتيخذوها قاعدة يتقدمون منها نحو الجنوب.

وعسكر الملك الكامل قبالة طلخا عند مخرج بحر أشموم طناح (البحر الصغير الآن)، وشرع الجند يبنون الدور والفنادق والحمامات والأسواق فى هذه المنزلة، (وقد سميت بعد ذلك المنصورة تيمنا بانتصار الكامل).

وكان الملك الكامل قد أرسل الرسل إلى ملوك الأيوبيين فى الشام من إخوته وأقاربه يسألهم النجدة والمعونة. فوصله فى ذلك الوقت أخوه الملك المعظم عيسى بجيش كبير ، فقوى به قلبه، وخاصة أنه سعى بعد وصوله فأنجاه من ورطته بإبعاد أخيه بقيادة الفائز وابن المشطوب إلى الشام، فهدأت الفتنة. ووصلت نجدة أخرى من حماة بقيادة المظفر الثانى ابن أخت الملك الكامل فى جيش كثيف ففرح بوصولها. ثم وصلت نجدة كبرى بقيادة الملك الأشرف موسى أخى الكامل، وبلغت بذلك عدة فرسان المسلمين نحو أربعين ألف فارس ، فقويت قلوب المسلمين وبدأوا يستعدون للمعركة الحاسمة .

وتقدم الصليبيون - بعد تحصين دمياط ، وبعد أن وصلتهم أمداد وفيرة العديد - نحو الجنوب فى حدهم وحديدهم ، ونزلوا قبالة جيش المسلمين شمال بحر أشموم طناح، ولا يفصل بين المعسكرين غير هذا البحر.

واشتد القتال بين الفريقين وأبلى المسلمون بلاء حسنًا ، فاستولوا على نحو تسع سفن كبيرة من سفن الفرنج التى تحمل إليهم الميرة من دمياط ، وأسروا منهم ألفين ومائتين .

ثم احتال الكامل فأرسل سفنًا من أسطوله بقيادة الأمير بدر الدين حسون فى بحر المحلة، وهو فرع كان يخرج من النيل قرب بنها الحالية، ويتصل به ثانية شمالى المنصورة، فحالت هذه السفن بين مراكب الفرنج الآتية من الشمال بالميرة وبين الوصول إلى معسكرهم عند المنصورة، ثم عبر جماعة من المسلمين فى بحر المحلة هذا إلى الأرض التى يعسكر عليها الفرنج، (وحفروا مكانًا عظيمًا فى النيل، وكان فى قوة الزيادة، فركب الماء أكثر تلك الأراضى وصار حائلاً بين الفرنج ومدينة دمياط، وانحصروا فلم يبق لهم سوى طريق ضيق ، فأمر السلطان فى الحال بنصب الجسور عند أشموم طناح، فعبرت العساكر عليها، وملكت الطريق التى يسلكها الفرنج إلى دمياط إذا أرادوا الوصول إليها، فاضطربوا وضاقت عليهم الأرض) .

وفت ذلك كله فى عضد الفرنج، واضطربت أحوالهم، وبدأوا يفاوضون الكامل، ويعرضون أن يتركوا دمياط مقابل أن تعاد إليهم القدس وعسقلان وطبرية وجبلة واللاذقية والكرك والشوبك وغيرها من المدن الكثيرة التى كان قد استعادها منهم البطل صلاح الدين . وقبل الكامل أول الأمر أن يسلم لهم هذه المدن جميعا عدًا الكرك والشوبك لمكانتهما الحربية، ولكنهم أصروا على طلباتهم. فلما أحيط بهم من الشمال وأصبحوا محاصرين بالمسلمين من كل الجهات أدركوا أنهم هزموا، فهدموا خيامهم ومجانيقهم وألقوا فيها النار، وهموا بالزحف على المسلمين ومقاتلتهم للعودة إلى دمياط ، (فحال بينهم وبين ذلك كثرة الوحل والمياه الراكدة على الأرض، وخشوا من الإقامة لقلة أقواتهم، فذلوا وسألوا الأمان على أن يتركوا دمياط للمسلمين ، دون قيد أو شرط .

وبدأ الكامل يستثير أهله وأصحابه ، فأشار عليه البعض أن يواصل القتال حتى يتم له النصر النهائى ، وأشار البعض الآخر أن يعطى الفرنج الأمان إجابة لطلبهم، وتغلب الرأى الأخير خوفا من أن يصل إلى الفرنج مدد جديد فيستأنفوا القتال، واتفق الفريقان على أن يقدم كل منهما رهائن للآخر حتى يتم تسليم دمياط، فأرسل الفرنج عشرين ملكًا من ملوكهم رهائن عند الملك الكامل، وأرسل الكامل ابنه الصالح نجم الدين أيوب وعددًا من قواده .

وجلس الكامل مجلسًا عظيمًا لاستقبال هؤلاء الملوك الرهائن وحوله إخوته وأهل بيته، (وصار فى أبهة وناموس مهاب) ، وخرج قسوس الفرنج ورهبانهم إلى دمياط فسلموها للمسلمين. تاسع عشر من رجب سنة ٦١٨هـ ، فلما تم تسليمها بعث الفرنج الصالح نجم الدين ومن معه من الأمراء، كما أطلق الكامل رهائنه من الملوك .

واتفق الفريقان بعد هذا على هدنة مداها ثمانية أعوام، وعلى أن يطلق كل منهما من عنده من الأسرى، ودخل الملك الكامل دمياط وفى ركابه أخوته وقواده وعساكره ، وكان يوم دخوله إليها من الأيام المذكورة، وأرسلت البشائر بأخذ دمياط إلى كل البلاد الإسلامية .

وهكذا نزح الصليبيون عن دمياط بعد أن قضوا فيها وعلى شاطئيها الغربى والشرقى ثلاث سنين، وأربعة أشهر، وتسعة عشر يومًا .

وتبارى شعراء العصر – كالعادة – فى تمجيد هذا النصر والإشادة به، وكان أجمل ما قيل فى هذه المناسبة قصيدة الشاعر الكبير شرف الدين بن عنين التى قال فيها :

سلوا صهوات الخيل يوم الوغى عنا ... إذا جهلت آياتا والقنا اللدنا
غداة التقينا دون دمياط جحفلا ... من الروم لا يحصى يقينًا ولا ظنا
وأطمعهم فينا غرور فأرقلوا ... إلينا سراعا بالجهاد وأرقلنا
فما برحت سمر الرماح تنوشهم ... بأطرافها، حتى استجاروا بنا منا
بدا الموت من زرق الأسنة أحمرا ... فألقوا بأيديهم إلينا، فأحسنا
وما برح الإحسان منا سجية ... نورثها من صيد آبائنا إلا بنا
وقد عرفت أسيافنا ورقابهم ... مواقعها منا ، فإن عادوا عدنا
منحناهم منا حياة جديدة ... فعاشوا بأعناق مقلدة منا
ولو ملكونا لاستباحوا دماءنا ... ولوغا ، ولكنا ملكنا فأسجحنا

- ٢ -

الحملة الصليبية السادسة
بقيادة الإمبراطور فردريك الثانى

انتهت حملة جان دى بريين المعروفة بالحملة الخامسة بالفشل ، وعقدت بين الطرفين هدنة لمدة ثمانى سنوات، ووصلت حوالى ذلك الوقت إلى دمياط بعض السفن تحمل جندًا من الألمان ، وهم فرقة كان يريد فردريك الثانى أن يسهم بها فى الحملة ، ولكن هذه السفن وصلت متأخرة بعد انتهاء المفاوضات وعقد الهدنة، فاحترمتها، ولم تجدد الحرب، وجلت الحملة الصليبية عن مصر نهائيًا فى شعبان سنة ٦١٨ (سبتمبر ١٢٢١) .

ولم تكن هذه الحملة آخر حملة شهدها عصر الملك الكامل محمد ، فقد أتت إلى الشرق حملة أخرى فى أواخر عهده، وأخبار هذه الحملة طريفة وغريبة لأنها تختلف عن الحملات الصليبية الأخرى جميعًا فى كل شيء، فإنها كانت حملة سلمية لم يحمل فيها سلاح ولم ترق فيها دماء ، وإنما انتهت بالاتفاق السلمى وعقد معاهدة ترضى الطرفين .

كان قائد هذه الحملة الإمبراطور فردريك الثانى إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة وملك الصقليتين، وكان فرديك قد نذر - إجابة لدعوة البابا - القيام بحملة صليبية إلى الشرق، وبدأ بإرسال هذه السفن القليلة التى وصلت عقب الهدنة، ولكن الباب جريجورى التاسع ظل يحثه على القيام بحملة أخرى قوية .

وفى سنة ٦٢٢هـ (١٢٢٥م) تزوج فردريك من إيزابلا ابنة حنا بريين ملك الدولة الصليبية الرمزية ووريثها، وقد توفيت إيزابلا بعد زواجها بثلاث سنوات، ولكن فردريك ظل يطالب بمملكة بيت المقدس كإرث لزوجته، ولهذا بدأ يفكر فى الخروج بحملة إلى الشرق، وكان البابا طوال هذه السنوات يلح فى استنجازه وعده، وفردريك يتباطأ، مما دفع البابا إلى إصدار قرار بحرمان فردريك .

وأخيرا خرج فردريك بحملته فى سنة ٦٢٥هـ (١٢٢٨م) وكانت تتكون من ٦٠٠ فارس فقط مما يدل فى وضوح على أن فردريك لم يكن معتزما الحرب أو النضال الجدى .

ولكى نفهم هذه الحملة على حقيقتها لابد أن نستعرض الأحداث السياسية فى مصر والشام وقتذاك، ولابد أيضا أن نتعرف على شخصية الملكين، الكامل محمد، وفردريك الثانى .

فتح الأغالبة جزيرة صقلية فى القرن الثالث الهجرى (٩م) وظلت تحت حكمهم إلى أن انتقلت إلى ملك الفاطميين فى أواخر القرن الثالث، وإبان خضوع الجزيرة لحكم المسلمين فى

عهدى الأغالبة والفاطميين انتشر فيها الدين الإسلامى والثقافة الإسلامية، وبنيت المساجد فى مختلف بلدانها وأنحائها ، ولما فتح النورمان الجزيرة فى النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى (١١م) لم يقضوا على مظاهر الحضارة الإسلامية ، بل على العكس قربوا إليهم من بها من العرب، واستخدموهم فى البلاط - وفى دواوين الحكم المختلفة، ويكفى أن نشير إلى أن الملك روجر قرب إليه الجغرافى العربى المعروف الشريف الإدريسى، وله رسم الإدريسى خريطة العالم، وباسمه ألف كتابه (نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق) .

وخير دليل على انتشار الحضارة العربية وازدهارها فى جزيرة صقلية فى العصر النورماندى أن معظم ملوك النورمان - وفى مقدمتهم فردريك الثانى - كانوا يتثقفون بالثقافة العربية ويتكلمون اللغة العربية .

وقد بدأت علاقات الود والصداقة تتوثق بين ملوك الأيوبيين وملوك النورمان منذ عهد فردريك الثانى والكامل محمد، وتبدو العلاقات الودية غريبة فى عصر اشتد فيه العداء بين ملوك المسلمين والمسيحيين، وكثرت فيه الحروب الصليبية ، غير أن شخصيتى الملكين وما كان يحيط بهما من ظروف، كان لها أثر قوى فى توثيق هذه العلاقات .

كان الكامل وفردريك ، بشخصيتهما وعقليتهما وثقافتهما يسبقان العصر الذى عاشا فيه، فقد كان العصر عصر تزمت وتعصب دينى وحروب دائمة، أما هما فقد كانت تغلب على كل منهما شخصية الحاكم المثقف الإدارى ، الذى يعنى بالإصلاح ونشر العلم وحرية الفكر وإنشاء المدارس والمعاهد، أكثر من عنايته بالحروب. وكان كل منهما لا يلجأ إلى السيف إذا استطاع أن يحل مشكلاته بالسياسة والطرق السلمية. وقد أحسن (كانتوروفتر Cantorowitz) مؤرخ فردريك الثانى فى وصف الرجلين حين قال:

(كان الملك الكامل صورة شرقية من الإمبراطور ، إن لم يكن أقرب إلى الصحة أن نقول إن الإمبراطور كان صورة غريبة من السلطان الملك الكامل) .

وفى سنة ٦٢٤هـ، ساءت العلاقات بين الملك المعظم عيسى صاحب دمشق، وبين أخويه الملك الكامل محمد والملك الأشرف موسى، واتصل المعظم بجلال الدين خوارزمشاه ملك الدولة الخوارزمية ووثق علاقته به ليستعين به إذا هاجمه أخوه الملك الكامل، لهذا سعى الملك الكامل من ناحيته لعقد صلات الود مع فردريك الثانى، وطلب منه الحضور إلى الشام ليسلمه بيت المقدس . ووصلت هذه الدعوة فى أوانها، فقد كان فردريك - كما أسلفنا- يرى نفسه صاحب الحق الشرعى فى مملكة بيت المقدس، كما كان يحب أن يرضى البابا ليلغى قرار الحرمان الذى أصدره ضده .

فالملك الكامل علم أن أخاه المعظم تحالف مع خوارزمشاه تهديدًا له ، وعلم أن فردريك يعد العدة للخروج بحملة صليبية، والكامل لم ينس بعد ما قاساه من صعاب أثناء نضاله مع حملة

بريين، وأنه لم يتغلب عليها إلا بمعاونة أخويه وبمعاونة المعظم بوجه خاص ، والآن لقد انفصل عنه أخوه، بل لقد أصبح يهدده، لهذا أراد أن يضرب الفريقين بحجر واحد، فأرسل أحد قواده وهو الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ إلى فردريك يعرض عليه أن يعطيه بيت المقدس، فيتفادى بذلك الصدام المتوقع بينه وبين الفرنج، ويشغل بهذا أيضًا - كما قال ابن واصل - (سر الملك المعظم) ، ويكسب بعد هذا كله صديقًا من ملوك الفرنج له مكانته وخطره .

وأتى فردريك إلى عكا سنة ٦٢٥هـ زار بيت المقدس ، وكان يقوم بالسفارة بينه وبين الملك الكامل الأمير فخر الدين، وكان يصحب فردريك أثناء إقامته فى بيت المقدس القاضى شمس الدين قاضى العسكر. وقد جرت بين فردريك وبين كل من فخر الدين وشمس الدين محادثات ومحاورات علمية فلسفية مختلفة روى بعضها ابن واصل .

وانتهت المفاوضات بين الكامل وفردريك بعقد معاهدة تعتمد على السياسة والتسامح، وتخالف روح العصر مخالفة كبيرة ، وشروطها :

- أن تسلم بيت المقدس للإمبراطور باعتبارها ملكًا الدولة الصليبية، بشرط ألا يقيم الصليبيون فيها حصونًا أو قلاعًا .
- أن يعطى للصليبيين بيت لحم والناصرة وطريق الحاج من بيت المقدس إلى يافا على الساحل.
- أن يبقى فى أيدى المسلمين من بيت المقدس منطقة المسجد الأقصى على ألا يحمل المسلمون فى تلك المنطقة سلاحًا .
- أن يطلق الكامل سراح من عنده من الأسرى .
- أن يتعهد فردريك بمحالفة الكامل ضد جميع أعدائه ، حتى ولو كانوا مسيحيين صليبيين.
- أن يضمن الإمبراطور عدم وصول أمداد صليبية إلى الإمارتين الصليبيتين أنطاكية وطرابلس.
- أن تسرى هذه المعاهدة لمدة عشر سنوات .

هذه المعاهدة تمثل - كما قلنا - عقلية الملكين ، ولكنها لا تمثل روح العصر، ولهذا نراها أثارت الكره والسخط عليها : ثار المسيحيون على فردريك لأنهم كانوا لا يرون مسالمة المسلمين، بل يعتقدون بوجوب محاربتهم .

وثار المسلمون ضد الكامل لأنه فرط فى أملاك المسلمين ، وفى بيت المقدس بالذات، دون حرب أو قتال. وأخذ الواعظ والمؤرخ المشهور سبط ابن الجوزى يلقى المواعظ فى مدينة دمشق للتشهير بالكامل وبفعلته .

ودخل فردريك بيت المقدس . ووضع التاج بيده على رأسه ، لأن رجال الكنيسة رفضوا أن يتعاونوا مع إمبراطور محروم من الكنيسة، وقد حافظ الملكان على المعاهدة محافظة تامة ، وعاش الكامل بعد ذلك تسع سنوات لم يشهد خلالها أى خطر صليبى .

الباب الثامن

عصر الصالح نجم الدين أيوب

ونهاية الدولة

١ - الصالح يستعيد بيت المقدس.

٢ - الحملة الصليبية السابعة بقيادة الملك لويس التاسع.

الباب الثامن
عصر الصالح نجم الدين أيوب
ونهاية الدولة

– ١ –

الصالح يستعيد بيت المقدس

خلف الكامل على عرش مصر ابنه العادل الثانى (٦٣٥هـ – ٦٣٧ هـ / ١٢٣٨م – ١٢٤٠م) ولكنه كان طفلا غرًا ليس له صفات أبيه، وقد تمكن أخوه الصالح نجم الدين من خلعه فى سنة ٦٣٧ هـ (١٢٤٠م) وسجنه بالقلعة ثم قتله بعد قليل.

وكان الصالح شخصية قوية تعيد إلى الأذهان شخصية جده العادل الأول وشخصية أبيه الكامل. وقد شهد عصر الصالح حدثين خطيرين:

شهد حركات المغول الأولى نحو الشرق الأدنى.

وشهد حملة لويس التاسع على مصر.

ويعنينا من أخبار الحدث الأول أن المغول كانوا حوالى ذلك الوقت قد اشتد خطرهم وقضوا على الدولة الخوارزمية بعد أن قاومتهم مقاومة عنيفة، وكان من نتائج القضاء على هذه الدولة أن شرد الجنود الخوارزميون، فتقدموا يعرضون خدماتهم الحربية على كل من يريد استخدامهم من ملوك الدول الإسلامية المجاورة، وقد اتصل بعض هؤلاء الخوارزمية بجيش الملك الصالح فى الشام ومصر، فأفاد من خدمتهم وخاصة فى الشام.

ففى ذلك الوقت وصلت إلى الشام إحدى الحملات الصليبية الصغرى – ومن رجالها سيمون دى منتفرات صاحب الأخبار الطوال فى تاريخ البرلمان الإنجليزى فى عصر هنرى الثالث ملك إنجلترا – فتقدم الملك الصالح ومعه هؤلاء الخوارزمية إلى بيت المقدس واستولى عليه فى سنة ٦٤١ هـ (١٢٤٤م) وقد كانت بيد الصليبيين منذ المعاهدة بين الكامل وفردريك، واستعان الصالح بالخوارزمية كذلك فى نضاله مع ملوك الأيوبيين فى الشام.

وكان لسقوط بيت المقدس فى يد الصالح صدى قوى فى أوربا يشبه صدى سقوطها قديمًا فى يد صلاح الدين، فبدأت الدعوة لحرب صليبية جديدة قوية، وكان أكبر المتحمسين لها

الملك القديس لويس التاسع. وقد حاول لويس عند التمهيد للحملة أن يزيل ما بين البابا انوسنت الرابع والإمبراطور فردريك الثانى من خلاف، ولكنه لم ينجح. وقد دعا البابا فى نفس الجلسة التى أعلنت فيها الحملة الصليبية على مصر إلى حملة صليبية أخرى ضد فردريك باعتباره خارجًا على الكنيسة محرومًا منها. ولعل ذلك كان عاملاً من أهم العوامل التى أدت إلى توثيق علاقات الصداقة بين فردريك الثانى والملك الصالح نجم الدين أيوب، فأرسل فردريك فى السر رسولاً يحمل إلى الصالح أنباء خروج حملة لويس فى طريقها إلى مصر.

- ٢ -

الحملة الصليبية السابعة

بقيادة الملك لويس التاسع

باءت حملة (جان دى بريين) بالفشل، ولكن الصليبيين لم ينسوا مشروعهم الجديد الذى كان يهدف إلى الاستيلاء على مصر ليسهل عليهم تحقيق أملهم وهو امتلاك بيت المقدس وأراضى الشام جميعًا.

لهذا لم يكد يمضى على الحملة السابقة ثلاثون عامًا حتى أعدوا العدة للانقضاض على دمياط مرة ثالثة. ولم تأت الحملة هذه المرة من سواحل الشام، وإنما أتت من فرنسا. ففى ٢٥ أغسطس سنة ١٢٤٨م (٤ جمادى الأولى سنة ٦٤٦ هـ) أبحر من مياه فرنسا أسطول ضخم يزيد على ١٨٠٠ سفينة تحمل ثمانين ألف مقاتل ومعهم عدتهم وسلاحهم ومؤونتهم وخيولهم. وكان قائد هذه الحملة الملك القديس لويس التاسع ملك فرنسا.

ومرت هذه الحملة - فى طريقها إلى مصر - بجزيرة قبرص، فقضت بها بعض الوقت. وقد أخطأت فى هذا، لأنها لو اتخذت طريقها إلى مصر دون تلكأ لفاجأت الجيش المصرى قبل أن يستعد ويتخذ للحرب أهبته.

ثم أقلعت الحملة من قبرص، ودمياط قبلتها. ولكن رياحاً عاصفة اعترضتها فى طريقها، فاضطر عدد كبير من سفنها - نحو ٧٠٠ سفينة - إلى الانفصال والجنوح إلى شواطئ الشام.

وكانت علاقات الود والإخاء تربط بين ملوك الإيوبيين - منذ عهد الملك الكامل - وبين ملوك صقلية النورمانديين، ويقال إن ملك صقلية فى ذلك الوقت - الملك فردريك الثانى - أرسل أحد رجاله - متخفيًا فى زى تاجر - إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب - وكان مقيمًا فى الشام حينذاك - ليبلغه نبأ هذه الحملة كى يستعد لمقابلتها.

وكان الملك الصالح مريضًا مرضًا خطيرًا يعوقه عن ركوب فرسه، غير أنه انزعج لهذا الخبر، ولم يبال بآلام مرضه، وأمر أن يحمل فى محفة، وعاد مسرعًا إلى مصر، ونزل عند قرية أشموم طناح فى المحرم سنة ٦٤٧ هـ (أبريل سنة ١٢٤٩م) وأصدر أوامره فى الحال بالاستعداد، فشحنت دمياط بالأسلحة والأقوات والجنود، وبعث إلى نائبه بالقاهرة - الأمير حسام الدين بن أبى على - يأمره بإعداد سفن الأسطول. ففعل وأرسلها إلى دمياط شيئًا بعد شىء، ثم أرسل

الملك الصالح الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ على رأس جيش كبير ليعسكر فى البر الغربى لدمياط ليكون فى مقابلة الفرنج إذا قدموا.

هذه الحوادث الأولى وحوادث الحملة جميعًا تدل على أن المصريين أفادوا كل الفائدة من الحملة الماضية، كما تدل على أن الصليبيين لم يفيدوا شيئًا من أخطائهم فى الحملة السابقة فقد أدرك المصريون أن حملة جان دى بريين قد نزلت أول ما نزلت على الشاطئ الغربى لدمياط، ولذلك أمر الملك الصالح جيشه بأن يعسكر على هذا البر ليمنع نزول الصليبيين عليه، وقد كان السبب الأكبر فى فشل الحملة الأولى أنها نزلت على دمياط وأرادت الوصول إلى القاهرة بالمسير بمحاذاة فرع دمياط، فاعترضتها المجارى المائية الكثيرة المتفرعة عن هذا الفرع، وكان يمكنهم أن يتفادوا هذا الفرع، وكان يمكنهم أن يتفادوا هذا الخطأ فى محاولتهم الثانية فينزلوا على الإسكندرية ولكنهم لم يفعلوا.

وفى الساعة الثانية من نهار الجمعة لتسع بقين من صفر سنة ٦٤٧هـ (يونيو ١٢٤٩م) وصلت سفن الفرنسيين إلى الشاطئ المصرى وأرست بازاء المسلمين، فراعهم كثرة الجيوش المصرية على الشاطئ، كما خطف بأبصارهم بريق أسلحة المسلمين، وعلا صهيل خيولهم وزادت جلبة جندهم، فأفزع الفرنسيين وهم لا يزالون فى سفنهم. يصف (جرانفيل) – مؤرخ الحملة وأحد قوادها – الرهبة التى ملكت على الفرنسيين أنفسهم عند رؤية الجيش المصرى فيقول: «وصل الملك أمام دمياط، ووجدنا هناك كل جيوش السلطان تقف على الشاطئ: كتائب جميلة تسر الناظرين، ذلك أن أسلحة السلطان صنعت من ذهب فكانت الشمس تشرق على هذه الأسلحة فتزيدها بريقا ولمعانا، وكانت الجلبة التى يأتون بصنوجهم وأبواقهم الشرقية تدخل الرعب فى أفئدة السامعين».

وفى اليوم التالى استطاع الفرنسيون أن ينزلوا الجند إلى البر – بعيدًا عن معسكر المصريين – وبدأت المناوشات بين الجيشين.

وهكذا بدأت المعركة: الجيش المصرى كبير العدد وافر العدة – كما وصفه الفرنسيون أنفسهم – ودمياط على الشاطئ الشرقى مدينة مسورة حصينة قوية قد شحنت بالجند والأقوات والأسلحة، لأن السلطان لم ينس أن هزيمتها السابقة إنما كان سببها انعدام الأقوات بعد طول الحصار. فلو أن الأمور سارت سيرًا طبيعيًا لاستطاع المصريون أن يهزموا هذه الحملة -- رغم قوتها وكثرة جندها – ويردوها عن مصر فى يسر وسهولة، ولكن الحوادث تطورت تطورا آخر.

فكما أن مؤامرة ابن المشطوب كادت تنزل الهزيمة بالجيش المصرى وتوقع الفرقة والاضطراب بين جنوده فى عهد الكامل، كذلك جد فى حوادث هذه الحملة حادث خطير كاد ينتهى بها إلى نفس النتيجة.

كان السلطان الملك الصالح نجم الدين مريضًا - كما ذكرنا - ومقيمًا فى أشموم طناح، وقد اشتد به المرض حتى أصبح على شفا حفرة من الموت، فلما وصلت السفن الفرنسية إلى شاطئ دمياط أطلق الأمير فخر الدين الحمام الزاجل يحمل النبأ إلى السلطان، وتعددت رسائله دون أن يلتقى ردًا، فأدرك أن السلطان قد مات، فانتظر حتى وافى الليل وانسحب بجيشه كله من الشاطئ الغربى إلى دمياط، ثم تركها وسار جنوبًا متجهًا إلى معسكر السلطان عند أشموم طناح، وأعمته العجلة فلم يحطم الجسر الذى كان يصل بين الشاطئين الشرقى والغربى فتركه كما هو.

ونظر أهالى دمياط فوجدوا الجيش الذى أتى لحمايتهم قد غادر المدينة، فخافوا على أرواحهم وخرجوا فى الليل تاركين مدينتهم وأموالهم وديارهم «ولحقوا بالعسكر فى أشموم طناح وهم حفاة عرايًا، جياع حيارى، بمن معهم من النساء والأولاد، وفروا هاربين إلى القاهرة، فأخذ منهم قطاع الطرق ما عليهم من الثياب وتركوهم عرايا».

ومع أن السلطان كان فى أشد حالات المرض، فقد غضب على فخر الدين ومن كان معه من القواد غضبًا شديدًا، وأنبه على فعلته، وأمر بشنق خمسين أميرًا من أمراء الكنانية الذين كانوا يتولون الدفاع عن المدينة، وكاد يأمر بقتل فخر الدين نفسه، غير أن الوقت كان حرجًا، فكتم غيظه إلى أن تنكشف الغمة.

وأصبح الفرنسيون فوجدوا معسكر المصريين خلاء فظنوها مكيدة، فأرسلوا كشافتهم يستطلعون، ولشد ما كانت دهشتهم عندما وجدوا الجسر قائمًا والمدينة خالية تمامًا من الجنود والأهلين، فعبر الجيش الفرنسى إليها واستولى عليها دون عناء، وفرح بها الفرح كله، فقد كانت مشحونة - كما ذكرنا - بالعتاد والمؤونة.

كان الملك لويس يستطيع أن يتقدم فى هذه اللحظة نحو الجنوب قبل أن يفيق المصريون من الارتباك الذى حل بهم، ولو أنه اتبع هذه الخطة لكتب له النصر، غير أنه تلكأ فى دمياط مدة تقرب من الستة شهور ينتظر وصول بقية سفنه التى جنحت بها الريح نحو شواطئ سوريا، هذه المدة كانت كافية تمامًا لأن يتم فيها المصريون استعدادهم ويستعيدوا نشاطهم ويجمعوا صفوفهم.

ولما وصلت السفن الشاردة، دعا الملك لويس التاسع قواده للتشاور ولاختيار الطريق الذى يسلكونه، أيتجهون نحو الإسكندرية أم يسيرون قدمًا إلى القاهرة؟ وأشار الكونت بيتر البريطانى (Peter) ومعظم قواد الجيش بالمسير إلى الإسكندرية والاستيلاء عليها أولاً. وكانت حجتهم معقولة وصحيحة من الناحية الحربية، وتتلخص فى أن الإسكندرية كميناء تفضل دمياط فى كثير، فهى أصلح لإيواء سفنهم، وإليها يستطيع أسطولهم أن يصل بالميرة من بلادهم فى وقت قصير وجهد قليل.

غير أن الكولت أرتوا (Aetoi) - أخو الملك لويس - عارض هذا الرأى ونصح الملك بالاتجاه مباشرة نحو القاهرة للاستيلاء عليها، وحجته فى ذلك أن القاهرة هى عاصمة الديار المصرية كلها، فالاستيلاء عليها يستتبع حتما الاستيلاء على مصر كلها، وأضاف إلى هذا قوله: «إذا أنت أردت قتل الأفعى فاضربها على رأسها». واحتدم النقاش، وانتهى بإعراض الملك عن رأى قواده، وأخذه برأى أخيه، وتقرر بذلك مسير الجيش الفرنسى جنوبًا نحو القاهرة، فكان هذا القرار حلقة جديدة فى سلسلة الأخطاء التى انتهت بفشل الحملة.

أما المعسكر المصرى فقد اضطرب اضطرابًا شديدًا لانسحاب حامية دمياط وفرار أهلها ووقوعها فى يد العدو، وكان السلطان الملك الصالح معسكرًا بأشموم طناح والمرض يشتد به يومًا بعد يوم، ولكنه مع هذا لم يفقد شجاعته، بل قرر أن يتراجع مع جيشه جنوبًا إلى مدينة المنصورة لأنها تمتاز بموقع حصين، فالنيل يحميها غربًا، وبحر أشموم طناح يفصل بينها وبين قوى الفرنسيين فى الشمال. وبدأ الجند المصريون فى تحصين المنصورة. فأصلحوا السور الذى كان يحيط بها وستروه بالستائر، «وقدمت الشوانى المصرية بالعدد الكاملة والرجالة، وجاءت الغزاة والرجال من عوام الناس الذين يريدون الجهاد من كل النواحى، ووصلت عربان كثيرة جدا، وأخذوا فى الغارة على الفرنج ومناوشتهم» وأخذ هؤلاء المجاهدين والعربان يهاجمون معسكرات الفرنسيين حتى أقضوا مضاجعهم، فلم يكن يمر يوم دون أن يعودوا بعدد من الأسرى.

وفى ليلة الاثنين النصف من شعبان سنة ٦٤٧هـ (٢٢ نوفمبر سنة ١٢٤٩) مات السلطان الملك الصالح فكانت الطامة الكبرى، لأن الجند لو علموا بموته لتفرق شملهم وضعفت روحهم المعنوية، ولكن القدر هيأ لمصر فى تلك الساعة العصيبة امرأة حازمة مدبرة هى شجر الدر زوجة الملك الصالح، فقد أخفت عن الجميع خبر موت السلطان، وأمرت بحمل جثته سرا فى حراقة إلى قلعة الروضة، وعهدت للأمير فخر الدين بقيادة الجيش، وكان الأطباء يدخلون كالعادة إلى حجرة السلطان كل يوم وكأنهم يعودونه، كما كانت الأوراق الرسمية تدخل إلى نفس الغرفة وتخرج ممهورة بإمضاء السلطان وعلامته بخط يشبه خطه كل الشبه.

وأرسلت الرسل إلى الملك المعظم تورانشاه بن الصالح - وكان مقيمًا فى حصن كيفا - لاستدعائه إلى مصر، وبهذه الإجراءات السريعة الحكيمة أنقذت مصر من أزمتها وسارت الأمور سيرًا طبيعيًا.

ووصلت أخبار موت السلطان - رغم كتمانها - إلى الفرنسيين فى دمياط، فانتهزوا الفرصة وبدأوا زحفهم نحو الجنوب حتى وصلوا إلى المنصورة، فعسكروا شمال بحر أشموم طناح، وأصبح هذا البحر حاجزًا بين معسكرهم ومعسكر المسلمين، وبدأ كل من الفريقين يستعد للمعركة الحاسمة.

أما الفرنج فقد بدأوا يحصنون معسكرهم، فحفروا حوله - كعادتهم - خندقًا، وأقاموا سورًا وستروه بالستائر، ونصبوا المجانيق، وأتت شوانيهم فوقفت بإزائهم فى النيل. وأما المصريون فكانوا مطمئنين إلى مدينتهم وحصانة موقعهم، فأخذوا يناوشون الفرنج ويتحيلون فى اختطافهم وأسرهم، وكانوا يفتنون فى مناوشاتهم ويأتون فيها بكل طريف، وقد روى بعض المؤرخين أن جنديًا مصريًا قور بطيخة وحملها على رأسه وغطس فى الماء حتى حاذى الفرنج، فظنه بعضهم بطيخة ونزل لأخذها، فشطره المصرى بسيفه وحمله إلى معسكر المسلمين.

رأى ملك الفرنسيين أنه لا يستطيع الغلبة على المصريين إلا إذا التحم معهم فى معركة، ولا سبيل إلى هذا وبحر أشموم يفصل بينه وبينهم، ففكر فى بناء جسر على هذا البحر ليعبر عليه جنوده إلى البحر الآخر، وصدرت الأوامر بإقامة هذا الجسر، ولكن الفرنسيين لم يكادوا يتمون بضعة أمتار من الجسر حتى تساقط عليهم وابل من قذائف المسلمين ردهم على أعقابهم، فرأى الملك أن يبنى برجين زودهما بالقذائف والقاذفين لحماية العمال الذين يعملون فى البحر، وعاد الفرنج إلى عملهم يبغون إتمام الجسر للعبور عليه، ولكن المسلمين استطاعوا بمهارتهم الحربية وخطتهم الموفقة أن يفسدوا على أعدائهم عملهم، فكان الفرنج كلما أتموا من جسرهم مترا هدم المسلمون أمتارا أمامه فى شاطئهم المقابل، فاتسع المجرى من جديد، يقول جوانفيل - مؤرخ الحملة وأحد فرسانها: «فكانوا يفسدون علينا فى يوم واحد ما كنا ننجزه فى أسابيع ثلاثة».

وإلى هذا كله استعد المصريون بمجانيقهم ومقاليعهم فكانوا يمطرون الفرنسيين وأبراجهم بقذائف من النار اليونانية التى أنزلت الرعب فى أفئدتهم ونالت من شجاعتهم كل منال، وليس أروع من وصف جوانفيل لهذا الذعر الذى استولى على الفرنسيين أمام هذا السلاح الخطير حين يقول:

«وقال ولتردى كوريل: أيها السادة نحن فى خطر داهم لأن العدو لو صوب النار نحو أبراجنا وبقينا نحن فى أماكننا لأتأنا الموت من كل مكان، ولو أننا غادرنا مراكزنا التى استولينا عليها للحقنا العار، فلا منقذ لنا من هذا الخطر الداهم إلا الله.. فنصيحتى إليكم أن نخر سجدًا - كلما صوبوا هذه النار نحونا - لنبتهل إلى الله سبحانه وتعالى أن ينجينا من هذا الخطر».

ولم يكن الملك لويس نفسه أقل جزعًا من رجاله، يقول جوانفيل واصفًا الرعب الذى استحوذ على الملك: «وكانت النار ترسل فى انطلاقها الأضواء الباهرة التى تملأ رحاب المعسكر فيبدو وكأننا فى وضح النهار، ولقد صوب العدو النار نحونا هذه الليلة ثلاث مرات، كما أطلقوها من قسيهم أربع مرات، وكان الملك القديس كلما سمع أن النار الإغريقية قد صوبت نحونا انتصب

واقفًا على سريره ورفع يديه إلى السماء وابتدأ الصلاة وعيونه مخضلة بالدموع وهو يقول: أيها الإله الطيب احفظ لى شعبى».

يتضح من هذه الحوادث والأقوال أن الغلبة كانت للمصريين فى أول المعركة، ولو سارت الأمور سيرًا طبيعيًا لتم لهم النصر النهائى، ولكن خائنًا من البدو دل الفرنسيين فى ذلك الحين على مخاضة فى بحر أشموم، يستطيع الفرسان عبورها على خيولهم، نظير مبلغ من المال.

وفرح الفرنسيون بهذا الكشف، ووضع الملك لويس خطة جديدة للمعركة، وتتلخص هذه الخطة فى أن يعبر الكونت أرتوا بفرقة الفرسان من هذه المخاضة، فإذا وصل إلى الشاطئ الذى يعسكر فيه المسلمون اشتبك معهم فى قتال مؤقت ليشغلهم عن مهاجمة الفرنسيين الذين يقيمون الجسر إلى أن يتموه، فإذا تم بناء الجسر عبر عليه لويس ببقية جيشه وانضم إلى فرسان الكونت أرتوا، وانقضوا جميعًا على جيش المسلمين.

كانت الخطة كما ترى محكمة وخطيرة، ولو أنها نفذت كما وضعت لقضى الفرنسيون على الجيش المصرى قضاء مبرمًا، ولكن تهور أرتوا كان السبب فى فشلها.

عبر أرتوا بفرسانه هذه المخاضة فى الرابع أو الخامس من ذى القعدة سنة ٦٤٧ هـ (فبراير سنة ١٢٥٠م)، وانقض على معسكر المسلمين فجأة فشتت شملهم، لأنهم لم يكونوا مستعدين للقتال، إذ لم يخطر على بالهم أن يهاجموا من هذه الناحية، وكان قائد الجيش الأمير فخر الدين فى الحمام عند ما علم بهجوم الفرنج على معسكره، فخرج مشدوها، وركب فرسه دون أن يتخذ للدفاع عدته، فدهمه فرسان الفرنج، فتفرق عنه جنده، وتكاثرت عليه الرماح والسيوف حتى خر صريعًا، وانقلبت بهذا هزيمة الفرنسيين إلى نصر باهر، وفرح أرتوا بهذا النصر السريع، وملكه حماس الشباب فلم يقف عند نهاية الجسر لحماية العاملين فيه -- كما أمره أخوه - وإنما اندفع بفرسانه إلى المنصورة، ودخلها، وتقدم حتى وصل إلى قصر السلطان بها.

وكاد النصر النهائى يتم للفرنسيين لولا أن صمدت لهم فرقة المماليك بقيادة ركن الدين بيبرس، وحملت على الفرنسيين حملة عنيفة حتى ردتهم عن القصر، فلما فروا راجعين تعقبتهم بالسيوف والدبابيس، وأقام الأهالى المتاريس فى الطرقات، واشتبك الفريقان فى قتال عنيف فى شوارع المدينة وأزقتها، واتخذ السكان حصونًا من منازلهم يلقون من نوافذها بالقذائف والحجارة على الفرنسيين، وانتهت المعركة أخيرًا بالقضاء على فرقة الفرسان قضاء مبرمًا، وكان فى مقدمة الضحايا الكونت أرتوا قائدها.

وكان الفرنسيون - أثناء هذه المعركة - يجدون ويبذلون كل الجهد لإتمام الجسر حتى يتمكنوا من العبور عليه والانضمام إلى فرسانهم، ولكنهم لم يكادوا يشرفون على إتمامه حتى

وصلتهم أخبار الهزيمة التى نزلت بجنودهم، فنال هذا الخبر من شجاعتهم وفقدوا قوتهم المعنوية، فكانوا يلقون بأنفسهم إلى النيل يبغون العودة إلى معسكرهم. وبهذه الهزيمة عاد الفريقان إلى ما كانا عليه، كل منهما على شاطئ، والبحر الصغير يفصل بينهما.

وبعد أيام قليلة وصل الملك المعظم تورانشاه إلى مصر، واستقر فى قصر السلطنة بالمنصورة يوم الثلاثاء تاسع عشر ذى القعدة سنة ٦٤٧ هـ (فبراير سنة ١٢٥٠م)، وفرح المصريون بسلطانهم الجديد، وبدأوا يستعيدون ثقتهم بأنفسهم.

ولجأ تورانشاه إلى الحيلة التى سبق أن لجأ إليها المصريون فى عهد جده الملك الكامل عندما نزلت بنفس المكان جيوش جان دى بريين، فأمر بأن تصنع سفن بالمنصورة، وحملت هذه السفن مفصلة على الجمال إلى بحر المحلة حيث أعيد تركيبها، وملئت بالمحاربين وسارت شمالاً، فلما وفدت سفن الفرنج تحمل الميرة من دمياط خرجت عليها هذه السفن «فأخذت مراكب الفرنج أخذا وبيلا - وكانت اثنين وخمسين مركبًا - وقتل وأسر نحو ألف أفرنجى، وغنم سائر ما فيها من الأزواد والأقوات، وحملت الأسرى إلى المعسكر، فانقطع المدد من دمياط عن الأفرنج، ووقع الغلاء عندهم، وصاروا محصورين لا يطيقون المقام ولا يقدرون على الذهاب».

واشتدت الضائقة بالفرنسيين لانقطاع الميرة من دمياط، فأرسل الملك لويس إلى السلطان يطلب الصلح، ويعرض عليه أن يتنازل عن دمياط مقابل بيت المقدس، ولكن السلطان رفض هذا الطلب. فلم يجد لويس بدأ من الاستمرار فى المقاومة حتى يستطيع إنقاذ ما يمكن إنقاذه، فأشعل النار فى أسلحته وعتاده ورحل بجيشه - ليلة الأربعاء لثلاث مضين من المحرم سنة ٦٤٨ هـ (إبريل سنة ١٢٥٠م) - متوجها إلى دمياط ولم يكد يصل إلى فارسكور حتى كانت جيوش المصريين قد لحقت به، وانقضت على جيشه انقضاض الصاعقة فقضت على معظمه، حتى قيل إن من قتل من فرسان الفرنسيين كان أكثر من عشرة آلاف، كما أسر من الخيالة والرجالة والصناع ما يناهز مائة ألف، وارتقى الملك لويس وأمراء جيشه تلاً هناك، وسألوا الأمان فأمنوا، وأسر لويس وقواده، وحمل إلى المنصورة حيث سجن بدار ابن لقمان التى لا تزال بقاياها قائمة حتى اليوم، ووكل بحراسته الطواشى صبيح.

ولم يكن المعظم تورانشاه كأبيه ثباتًا واتزانًا وحكمة، بل كان شابًا أهوج، فلم يقدر لزوجة أبيه شجر الدر تدبيرها ولا للمماليك البحرية جهدهم، بل أخذ يهدد شجر الدر ويطالبها بمال أبيه، كما أبعد مماليك أبيه، وقرب إليه حاشيته التى وصلت معه من كيفا، وصار إذا سكر جمع الشمع وضرب رؤوسها بسيفه حتى تتقطع ويقول: «هكذا أفعل بالبحرية»، فتآمر عليه هؤلاء البحرية، واقتحموا عليه البرج الخشبى الذى كان يقيم به فى فارسكور، فأدرك الشر فى عيونهم، وصعد إلى أعلا البرج، فرموه بالنشاب، وأطلقوا النار فى البرج،فألقى بنفسه من أعلا

وجرى نحو النيل، فلحقوا به وقتلوه، وكان ذلك فى التاسع والعشرين من المحرم سنة ٦٤٨ هـ (مايو ١٢٥٠م).

وهكذا كاد المصريون يفقدون بهذه الفعلة النصر الباهر الذى أحرزوه ولم يمض عليه غير خمسة وعشرين يوما، ولكن المماليك سرعان ما تداركوا الموقف، فأجمعوا على إقامة شجر الدر ملكة على مصر، فكان حدثا فذا فى تاريخ العالم الإسلامى كله، كما عينوا الأمير عز الدين أيبك قائدًا أعلى للجيش.

وبدأت المفاوضات بين الملك لويس وبين المصريين، وتولاها عنهم الأمير حسام الدين بن أبى على – نائب السلطنة فى عهد الملك الصالح – وتم الاتفاق أخيرا على إطلاق سراح الملك وجميع الأسرى على أن يخلوا دمياط، وأن يدفعوا مبلغ ألف دينار فدية للملك، يدفعوا نصفها قبل أن يطلق سراحه والنصف الآخر بعد وصولهم إلى عكا. وجمعت الملكة – وكانت مقيمة فى دمياط – نصف المبلغ المطلوب، فأطلق المصريون سراح الملك، ودخل المسلمون ثانية إلى دمياط، ورفعوا عليها العلم المصرى يوم الجمعة الثالث من صفر، بعد أن ظلت فى أيدى الفرنج أحد عشر شهرًا وتسعة أيام.

وهكذا أقلعت فلول الحملة إلى عكا بعد أن ودعها شاعر مصر جمال الدين بن مطروح بقصيدته المشهورة التى يقول فيها:

قل للفرنسيس إذا جئته	مقال نصح عن قؤول فصيح
آجرك الله على ما جرى	من قتل عباد يسوع المسيح
أتيت مصرا تبتغى ملكها	تحسب أن الزمر يا طبل ريح
فساقك الحين إلى أدهم	ضاق به عن ناظريك الفسيح
وكل أصحابك أودعتهم	بحسن تدبيرك بطن الضريح
سبعون ألفا لا يرى منهم	إلا قتيل أو أسير جريح
وفقك الله لأمثالها	لعل عيسى منكم يستريح
إن كان بابكم بذا راضيا	فرب غش قد أتى من نصيح
وقل لهم إن أضمروا عودة	لأخذ ثأر أو لفعل قبيح
دار ابن لقمان على حالها	والقيد باق والطواشى صبيح

الكتـــاب الثــانى
العصر المـــلوكى



المقـــدمة

قيام دولة المماليك
فى مصر
٦٤٨ هـ - ١٢٥٠م

١ - عهد الصالح نجم الدين أيوب ونهاية الدولة الأيوبية.

٢ - دولة المماليك استمرار لدولة بنى أيوب.

٣ - لماذا سميت بدولة المماليك البحرية؟

المقـــدمة

قيــام دولة المماليك

فى مصر

٦٤٨هــ - ١٢٥٠م

- ١ -

عهد الصالح نجم الدين أيوب ونهاية الدولة الأيوبية

خلف الملك الكامل على عرش مصر ابنه العـادل الثـانى (٦٣٥هــ - ٦٣٧ هــ) = (١٢٣٧م - ١٢٤٠ م)، ولكنه كان طفلاً صغيرًا غرًا ليس له صفـات أبيـه، وقـد تمكـن أخـوه الملـك الصـالح نجم الدين أيوب من خلعه فى سنة ٦٣٧ هـ (١٢٤٠م)، وسجنه فى القلعة ثم قتله بعد قليل.

وكان الصالح ذا شخصية تعيـد إلى الأذهـان شخصية جـدة العـادل الأول وشخصية أبيـه الكامل.

وقد شهد عصر الصالح نجم الدين حدثين خطيرين:

- شهد حركات المغول الأولى نحو الشرق الأدنى.

- وشهد حملة لويس التاسع على مصر.

ويعنينا هنا من أخبار الحدث الأول أن المغول كـانوا حـوالى ذلـك الوقـت قـد اشـتد خطرهـم وقضوا علـى الدولـة الخوارزميـة - الجبهـة الأولى للعـالم الإسـلامى - بعـد أن قاومتـهم مقاومـة عنيفة، وكان من نتائج القضاء على هذه الدولة أن شرد الجنود الخوارزميون، فتقدمـوا يعرضـون خدماتهم الحربية على كل من يريد استخدامهم من ملوك الدول الإسلامية المجاورة، وقد اتصل بعض هؤلاء الخوارزمية بجيش الملك الصـالح نجـم الديـن أيـوب فـى الشـام ومصـر، فأفـاد مـن خدمتهم وخاصة فى الشام، ففى ذلك الوقت وصلت إلى الشام إحدى الحملات الصليبية - ومـن رجالها سيمون دى منتفرات - فتقدم الملـك الصـالح ومعـه هـؤلاء الخـوارزمية إلى بيـت المقـدس واستولى عليها فى سنة ٦٤١ هـ (١٢٤٤م) - وقد كـانت بـأيدى الصليبيـين منـذ المعـاهدة التـى عقدها الملك الكامل محمد مع الإمبراطور فردريك الثانى - واستعان الصـالح كذلـك بالخوارزميـة فى نضاله ضد ملوك الأيوبيين.

وكان لسقوط بيت المقدس فى يد الملك الصالح صدى قوى فى أوربا يشبه صدى سقوطها قديمًا فى يد صلاح الدين، فبدأت الدعوة لحرب صليبية جديدة قوية، وكان أكبر المتحمسين لها الملك القديس لويس التاسع. وقد حاول لويس عند التمهيد للحملة أن يزيل ما بين البابا انوسنت الرابع والإمبراطور فردريك الثانى من خلاف، ولكنه لم يوفق، وقد دعا البابا فى نفس الجلسة التى أعلنت فيها الحملة الصليبية على مصر إلى حملة صليبية أخرى على فردريك باعتباره خارجا على الكنيسة محرومًا منها.

وخرجت حملة لويس إلى مصر، ومنيت بالفشل[1].

والمعروف من أخبار هذه الحملة أن الملك الصالح توفى والفرنج على أهبة المسير من دمياط إلى المنصورة، وأن زوجه شجر الدر استعانت بحزمها وقوة إرادتها على إخفاء خبر موته وإدارة المعركة إلى أن وصل تورانشاه بن الصالح من الشمال. فقام بالعبء إلى أن تم للمصريين النصر النهائى، ولكن المماليك لم يلبثوا أن ثاروا به وقتلوه، وأقاموا على العرش شجر الدر، فهى بذلك تعتبر أولى سلاطين دولة المماليك البحرية.

---

(١) يراجع الحديث المفصل عن الحملة فى الفصل الأخير من الكتاب الأول من هذا المجلد.

- ٢ -

دولة المماليك استمرار لدولة بنى أيوب

فى أعقاب الحملة الصليبية السابعة قامت دولة المماليك فى مصر. ودولة المماليك تعتبر فى الواقع استمرارًا لدولة الأيوبيين، لأن سلاطينها الأول كانوا مماليك للأيوبيين، ولهذا نراهم يسيرون على نهجهم فى إدارة البلاد وحكمها، فنظم الحكم واحدة فى الدولتين إذا استثنينا بعض النظم الجديدة التى أدخلوها فيما بعد واقتبسوها عن المغول بحكم اتصالهم وتأثرهم بهم[١].

وهناك فارق هام بين الدولتين، وذلك أن الدولة الأيوبية - رغم استقلالها - كانت تدين بالولاء الروحى للخلافة العباسية التى كانت لا تزال قائمة فى بغداد، فهناك إذن نقص كان يشوب استقلالها، أما الدولة المملوكية فقد عاصرت عند قيامها سقوط الخلافة العباسية على أيدى المغول، وسعى سلاطينها حتى نجحوا فى نقل هذه الخلافة إلى مصر، فتم لهم بهذا كل مظاهر الاستقلال، وأصبح لمصر منذ ذلك الحين مركز الزعامة على كل دول الشرق الأدنى، بل وعلى كل الدول الإسلامية الأخرى.

(١) يراجع الفصل الذى كتبه المقريزى عن «رياسة جنكزخان» فى كتابه «الخطط».

- ٣ -

لماذا سميت بدولة المماليك البحرية ؟

ويحق لنا قبل أن ندخل فى تفاصيل الحديث عن تاريخ دولة المماليك البحرية أن نشير إشارة سريعة إلى الاسم الذى عرفت به فى كتب التاريخ وهو «دولة المماليك البحرية».

والذى تذكره المراجع أن الدولة تنسب إلى فرقة المماليك البحرية التى كونها الصالح نجم الدين، وسماها البحرية نسبة إلى بحر النيل[1]، وذلك لأنه أسكنها فى القلعة التى بناها خصيصًا لهم فى جزيرة الروضة والتى كانت تطل على النيل.

ولكن هذا السبب كان موضع مناقشة لأن المراجع التى أرخت للدولة الأيوبية تشير إلى وجود فرقة أخرى من المماليك كونها الملك العادل أبو بكر (جد الملك الصالح) وأسماها «البحرية العادلية»، كما أن الفرقة التى كونها الصالح كانت تعرف باسم «البحرية الصالحية» تمييزًا لها عن الفرقة البحرية التى كونت قبل عهده أو بعد عهده مثل «البحرية الظاهرية» التى تنسب إلى الملك الظاهر بيبرس.

ويلاحظ كذلك أن المؤرخ ابن تغرى بردى أشار فى كتابه «النجوم الزاهرة» عند وصفه لموكب الخليفة الفاطمى الآمر إلى وجود فرقة من الجند تسمى «البحرية».

وفى الوقت الذى أنشئت فيه فرقة المماليك البحرية الصالحية فى مصر كانت توجد فرقة من المماليك البحرية فى اليمن، فقد ذكر الخزرجى فى كتابه «العقود اللؤلؤية فى تاريخ الدولة الرسولية» أن السلطان نور الدين عمر بن رسول - مؤسس الدولة الرسولية فى اليمن سنة ١٢٣٢م - استكثر من المماليك البحرية حتى بلغ عددهم ألف فارس، وأنهم كانوا يحسنون من الفروسية والرمى ما لا يحسنه مماليك مصر البحرية.

فهذا القول يثبت بطلان نسبة البحرية إلى بحر النيل بعد أن أثبت وجود بحرية بعيدة عن مصر والنيل.

ومؤرخو الحروب الصليبية المسلمون يشيرون فى كتبهم إلى وجود فرق من جند الصليبيين الوافدة من أوربا تحمل اسم «البحرية» وأطلقوا عليها اسم «الفرنج البحرية».

---

(١) أول من قال بهذا الرأى من المؤرخين القدامى ابن خلدون فى تاريخه، طبعة بولاق، ج ٥، ص ٣١٣، قال: «وشاع أنهم سموا البحرية نسبة إلى القلعة التى بناها الصالح بين شعبتى النيل إزاء المقياس» - ومن بعده قال المقريزى: الخطط، طبعة النيل: ج ٣، ص ٣٧٤: «وأسكنهم معه فى قلعة الروضة وسماهم البحرية».

والأرجح - فيما نرى - أن هؤلاء المماليك سموا بالبحرية لأنهم جاءوا من وراء البحار أوعن طريق البحار. ويؤيد هذا رأى «جوانفيل» مؤرخ الحملة الصليبية السابعة على مصر فقد قال فى كتابه «سيرة القديس لويس» إنهم يسمون البحرية أو رجال ما وراء البحار، ورأى جوانفيل له قيمته لأنه اشترك فى محاربة المماليك البحرية الصالحية، وأسر عندهم، واتصل بهم، وتحدث إليهم.

وممن يأخذ بهذا الرأى أيضًا المؤرخ التركى رضا نور، فقد قال فى كتابه «تاريخ الترك» إنهم سموا بالبحرية لأنهم جاءوا مع تجارهم البنادقة عن طريق البحر[1]، وقال فى موضع آخر من كتابه إن المغول كانوا يحبون البنادقة ويقفون عليهم تجارة الرقيق الذى كانوا يأخذونه من القفجاق[2].

فإذا عرفنا أن هؤلاء المماليك الغرباء كانوا رقيقًا يجمع من أسواق الرقيق فى بلاد القفجاق والقوقاز أى فى الأراضى الواقعة بين بحر قزوين والبحر الأسود - وأن التجار البنادقة كانوا هم الذين ينقلون هؤلاء المماليك فى سفنهم، وأن الطريق المعتاد الذى كانوا يسلكونه من بلادهم إلى مصر كان - كما يصفه القلقشندى عبر البحر الأسود ثم بحر القرم إلى خليج القسطنطينية، ومنه عبر البحر الأبيض المتوسط إلى ميناء الإسكندرية أو ميناء دمياط، إذا عرفنا هذا كله تأكد لدينا التفسير السابق أنهم إنما سموا بالبحرية لأنهم جاءوا إلى مصر عبر البحار ومن وراء البحار.

---

(١) تاريخ الترك: ج ٩، ص ١٩١، طبعة ١٩٢٦ م.

(٢) نفس المرجع، ج ٩، ص ١٩٠، وانظر كذلك: أمين الخولى: صلات بين النيل والفولجا، القاهرة ١٩٦٤ م، ص١٧ - ١٨.



الباب الأول
سنوات التجربة العشر

الفصل الأول : الملك المعز عز الدين أيبك

١ - توليته السلطة .
٢ - النزاع مع الأيوبيين فى الشام .
٣ - التنافس بين زعماء المماليك .
٤ - ثورة الأعراب فى صعيد مصر .
٥ - الصراع بين أمراء المماليك .
٦ - نور الدين على بن أيبك .
٧ - نظام تولية السلطنة فى العصر المملوكى .

الفصل الثانى: الملك سيف الدين قطز.

١ - كيف تولى العرش؟.
٢ - موقعة عين جالوت.
٣ - نتائج موقعة عين جالوت.
٤ - مقتل قطز وتولية بيبرس.
٥ - سنوات التجربة العشر.

الفصل الأول

الملك المعز عز الدين أيبك

١ – توليته السلطنة :

كانت شجرة الدر أولى سلاطين المماليك ، وقد راعى المماليك عند اختيارها أنها كانت زوج أستاذهم الصالح، وأم ولده خليل – الذى مات طفلاً – وأنها وقفت إلى جانبه فى محنته الشديدة أثناء اعتقاله فى الكرك قبل أن يلى السلطة فى مصر، وأنها أبدت استعدادًا كبيرًا لتولى السلطنة عندما أشرفت بحزمها على إدارة المعركة بعد موت الصالح، ولكن هذا كله لم يكن كافيًا لإقناع الرأى العام فى مصر والعالم الإسلامى وخاصة بعد أن أرسل الخليفة العباسى يستنكر تولية امرأة ملك المسلمين .

وقد كان التقليد المتبع فى عهد الأيوبيين أن السلطان لا تصبح ولايته شرعية إلا إذا اعترف بها الخليفة العباسى وأرسل إليه التقليد بذلك .

وخطاب الخليفة العباسى المستعصم الذى استنكر فيه تولية شجرة الدر يحمل ضمنا عدم موافقته على توليتها، ولذلك أسرع أمراء المماليك فولوا أحدهم – وهو الأمير عز الدين أيبك – السلطنة، ولقب بالملك المعز، وتزوج من شجرة الدر التى خلعت نفسها من السلطنة بعد أن تولتها ثمانين يومًا.

غير أن انتقال الملك إلى المماليك أثار معارضة جديدة ، وذلك لأنهم لا ينتمون إلى أسرة مالكة، وإلى هذا أيضًا فإنهم ليسوا أحرارًا، بل هم - كما قال بعض المؤرخين المعاصرين – (قد مسهم الرق)، فاستقر الرأى أخيرًا بين أمراء المماليك على أن يشترك فى الحكم مع المعز عز الدين أيبك طفل من سلالة الأيوبيين هو الأشرف موسى – حفيد الكامل محمد – وكان عمره حينذاك نحو ست سنوات .

ولكن هذا الإجراء لم يسكت غضبة ملوك الأيوبيين فى الشام ، فهم يعتبرون مصر جزءًا من ملكهم الموروث بل أعظم أجزاء هذا الملك ، ويعتبرون محاولة المماليك اغتصابها نوعًا من العقوق والخروج يجب معاقبتهم عليه، لهذا خرج كبير البيت الأيوبى الملك الناصر - صاحب حلب – بجيش كبير واتجه نحو مصر لتأديب هؤلاء المماليك واستعادة مصر منهم .

وحاول المعز أيبك أن يقطع حجة الأيوبيين فأعلن – إلى جانب إشراك الطفل الأيوبى معه فى الحكم – أن مصر تابعة كما كانت قديمًا للخلافة العباسية، وأراد كذلك أن يكسب عطف

الرأى العام فاحتفل بنقل جثمان أستاذه الملك الصالح احتفالاً مهيبًا من قلعة الروضة إلى المقبرة التى بناها لنفسه بين القصرين، وفى نفس الوقت أخذ يستعد لملاقاة الناصر.

ووصل الناصر بجيشه واشتبك مع جيش المماليك فى معركة بالقرب من الصالحية، وكادت تدور الدوائر فى أول المعركة على المماليك، ولكنهم لم يلبثوا أن انتصروا، وفر الناصر ومن معه من أفراد البيت الأيوبى إلى الشام.

وقد كان لهذا النصر نتائج خطيرة، وذلك أن الملك لم يصف المماليك بمجرد موت المعظم تورانشاه بن الصالح وإنما قامت فى سبيلهم عقبات كثيرة استنفد القضاء عليها جهودًا كثيرة وسنوات طويلة.

٢ - النزاع مع الأيوبيين فى الشام :

كان أول هذه العقبات وأخطرها معارضة الأيوبيين أصحاب الحق الشرعى فى ملك مصر، فهذا النصر على جيش الملك الناصر - صاحب حلب - كان أول نصر أحرزه المماليك ضد الأيوبيين، وكان من نتائجه أن أبعدوهم نهائيًا عن مصر، فلم يفكر واحد من الأيوبيين فى المجىء إلى مصر غازيًا بعد ذلك، وكان من نتائج هذا النصر أيضًا أن أقدم المعز أيبك على عزل الطفل الأيوبى - شريكه فى الحكم - واستقل نهائيًا بملك مصر.

ثم خدمه الحظ مرة أخرى عندما تدخل الخليفة المستعصم فى النزاع بينه وبين الأيوبيين، فأرسل رسوله إلى الطرفين يطلب إليهما حسم النزاع القائم بينهما، وتقرير قواعد الصلح، وكان الدافع للخليفة على هذه الوساطة، خوفه من الخطر المغولى الذى كان يقترب من ملكه، فرأى أن يسرع ملوك المسلمين إلى الاتحاد لتكوين جبهة قوية تقف فى وجه هذا الخطر المدمر.

نجح رسول الخليفة فى مهمته، وتقررت قواعد الصلح بين الطرفين على أن تكون مصر والجزء الجنوبى من فلسطين بما فيه غزة والقدس وبلاد الساحل للمعز أيبك، وأن تكون الأجزاء الواقعة شمال هذه المنطقة لأصحابها من أبناء البيت الأيوبى، وأن يطلق المعز سراح من وقع فى أسره من رجال الملك الناصر ومن أبناء البيت الأيوبى.

وبهذا بدا النزاع بين المماليك والأيوبيين وكأنه قد انتهى، ولكنه لم ينته فى الواقع، وإنما بقيت له ذيول ستنتهى نهائيًا فى عهد الملك الظاهر ركن الدين بيبرس وفى سنة ٦٦١هـ بالذات، كما سنبين فيما بعد.

وبعد القضاء مؤقتًا على هذه العقبة ظهرت عقبات أخرى ومعظمها عقبات داخلية، ومن أهمها :

٣ - التنافس بين زعماء المماليك :

وذلك أن أيبك لم يل السلطنة لأنه كان أكبر الأمراء سنا أو أقدرهم أو أقربهم إلى البيت الأيوبى، بل لأنه كان حائزًا لرضا معظم الأمراء من المماليك .

فلما ولى العرش بدأ الأمراء الآخرون يبدون غضبهم لهذه التولية ، فقد كان الكثيرون منهم يرون أنفسهم أحق بالسلطنة من أيبك، وقد بقى بعض هؤلاء المماليك فى مصر، وشاركوا فى سلسلة المؤامرات التالية، وآثر البعض الآخر ترك مصر حيث التحقوا بخدمة الملك الناصر كبير ملوك الأيوبيين فى الشام .

كذلك أبعد المعز أيبك الأمراء الأكراد ، فهم ليسوا أتراكًا ، وقلوبهم مع الأيوبيين بحكم الانتماء إلى جنس واحد . ونشير هنا إلى كبيرهم الأمير حسام الدين بن أبى على، فقد قطع المعز أيبك خبزه (أى استرد منه إقطاعه) ، ورحل حسام الدين إلى الشام والتحق بخدمة الناصر .

وكان أكبر زعماء المماليك الذين بقوا فى القاهرة الأمير سيف الدين أقطاى، وسيشتد خطر هذا الأمير ويتطلع إلى السلطنة، ولكن المعز يبادر إلى إلقاء القبض عليه وقتله . وسنفصل الحديث عن مقتله بعد حديثنا عن ثورة الأعراب .

٤ - ثورة الأعراب في صعيد مصر :

ومن الصعاب الخطيرة التى اعترضت سبيل المماليك فى أول أمرهم ثورة العناصر العربية فى مصر، فقد كانت فى مصر على ذلك العهد قبائل عربية كثيرة، استقرت فى الصعيد وفى بعض مديريات الوجه البحرى وبخاصة فى مديريتى الشرقية والبحيرة .

وقد أنفت هذه القبائل أن تخضع للدولة الجديدة ، لأن ملوكها من الجنس التركى، ولأنهم مماليك، وثارت هذه القبائل فى الصعيد عند مدينة ديروط بزعامة شيخ من شيوخها اسمه حصن الدين ثعلب ، وفى كلمة حصن الدين التى حاول أن يبرر بها ثورته إيضاح لدوافع هذه الثورة فقد قال :

(نحن أصحاب البلاد ، وإنا أحق بالملك من المماليك ، وقد كفى أنا خدمنا بنى أيوب وهم خوارج خرجوا على البلاد) .

وأرسل الملك المعز أيبك الأمير فارس الدين أقطاى على رأس جيش لإخضاع هذه الثورة، واستطاع أقطاى أن ينتصر على حصن الدين بالقرب من ديروط، ثم طلب حصن الدين الأمان من المعز فأمنه، وإستدعاه إليه ، فلما وصل إلى معسكره قبض عليه وعلى كثير من أتباعه الذين

كانوا فى صحبته وقتل كبار الأمراء العرب، أما زعيمهم حصن الدين فقد سجن فى الإسكندرية .

ثم تتبع المعز أيبك القبائل العربية فى مديريات الوجه البحرى وأنزل بها الهزائم الكثيرة، ثم زاد فى الضرائب التى تؤخذ منهم إلى أن ضعف أمرهم فلم يقووا على القيام بثورة لها شأنها طول العصر المملوكى .

يقول المقريزى تأييدًا لهذا :

(وأمر المعز بزيادة القطيعة على العرب ، وبزيادة القود المأخوذ منهم، ومعاملتهم بالعسف والقهر فذلوا وقلوا، حتى صار أمرهم على ما هو عليه الحال فى وقتنا) .

(أى الوقت الذى كان يعيش فيه المقريزى وهو القرن الخامس عشر الميلادى) .

٥ - الصراع بين أمراء المماليك :

ارتفع شأن أقطاى بعد نجاحه فى القضاء على ثورة العرب ، ومالت إليه المماليك البحرية والتفوا حوله، فبدأ الملك المعز أيبك يستشعر خوفًا منه وراح يدبر الأمر لقتله قبل أن يشتد بأسه ويفكر فى عزله وتولى السلطنة مكانه .

وأرسل المعز يستدعى أقطاى إلى القلعة بحجة أنه يريد استشارته فى أمر من الأمور، ولما وصل أقطاى إلى القلعة أمر أيبك بغلق أبوابها، ومنع مماليك أقطاى من الصعود معه، ثم لم يلبث أن قبض عليه وقتله .

وسرت الإشاعة فى القاهرة بقتل أقطاى ، فذهب نحو سبعمائة من أصحابه إلى القلعة ظنًا منهم أنه سجن ولم يقتل، وكان فى مقدمتهم أميران كبيران سيكون لهما شأن وذكر فى تاريخ مصر بعد ذلك وسيليان عرشها، وهما: بيبرس البندقدارى، وقلاوون الألفى. ولما وصل هؤلاء إلى القلعة، ألقى إليهم المعز أيبك برأس أقطاى ، فلما أيقنوا من هلاكه خرجوا من مصر فى الحال خوفًا على أنفسهم وتفرقوا شيعًا، فمنهم من اتجه إلى الملك الناصر صاحب حلب، ومنهم من اتجه إلى الملك المغيث صاحب الكرك، أو إلى الخليفة العباسى فى بغداد، أو إلى الملك علاء الدين ملك سلاجقة الروم فى آسيا الصغرى .

وقد تتبع الملك المعز أيبك من بقى فى مصر من المماليك البحرية، فقبض عليهم ، وقتل البعض، وسجن البعض الآخر، وصادر أموالهم، وبات يقلقه أمر البحرية الفارين خشية أن يحرضوا الناصر صاحب حلب أو سلاجقة الروم على الإغارة على مصر، فأرسل إلى الملكين الناصر وعلاء الدين يحذرهما من البحرية وغدرهم، ولكنهما لم يستمعا إليه، بل قرب كل منهما هؤلاء الأمراء الفارين وألحقوهم بخدمتهما .

وكان لمقتل أقطاى نتائج أخرى داخلية ، وذلك أن المماليك انقسموا منذ ذلك الحادث قسمين ، وأصبح المعز أيبك يخشى على عرشه من الفريق المعادى إذا قوى واشتد بأسه، وخاصة أن زعماء هذا الفريق على اتصال بملوك ذوى خطر، فسعى للتحالف مع أمير مجاور من أمراء المسلمين، وهو بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، وكان بدر الدين أقوى شخصية فى الشرق الأوسط وقتذاك، فأعلنه أيبك برغبته فى التزوج من ابنته .

ولقد جر هذا السعى على المعز الوبال الكثير ، بل لقد كان السبب فى القضاء على حياته، فقد علمت زوجته شجرة الدر بمشروع الزواج فحنقت على المعز وتزعمت حركة المعارضة، وانتهى بها حنقها إلى أن دبرت مؤامرة لقتله فى سنة ٦٥٥هـ، وثار مماليك المعز لقتله ودبروا مؤامرة أخرى انتهت بقتل شجرة الدر[١] .

٦ - نور الدين على بن أيبك :

وأقيم على بن أيبك - وهو غلام صغير فى نحو الخامسة عشرة من عمره - فى السلطنة ولقب بالملك المنصور نور الدين على وذلك فى ربيع الأول سنة ٦٥٥هـ (١٢٥٧م) غير أنه لم يل السلطنة إلا نحو ٣ سنوات ثم عزله سيف الدين قطز .

٧- نظام تولية السلطنة فى العصر المملوكى :

وهذا تقليد بدأ فى عهد نور الدين على بن المعز أيبك وسيظل متبعًا طول عصر المماليك. وذلك أن كل سلطان من سلاطينهم كان يعنى عناية كبيرة بتوريث ابنه السلطنة، فيأخذ له الأيمان ويوصى له بولاية العهد، فإذا توفى احترم الأمراء المماليك هذه الأيمان مؤقتا، وأقاموا الصغير على العرش ، ولكنه لا يمكث سلطانًا إلا ريثما يصفى الأمر ء ما بينهم من حساب وتنتهى مؤامراتهم ومنافستهم إلى الاتفاق على تولية واحد منهم ، فيعزل الصبى الصغير دون جلبة، وينفى إلى دمياط أو الإسكندرية، وقد يبعد خارج مصر فيرسل إلى أراضى الدولة البيزنطية مثلا .

ومعنى هذه الظاهرة أن الدولة المملوكية لم تعرف النظام الوراثى، وإن كانت قد حاولته فإنها لم تفلح فى التمكين له أو الأخذ به، وذلك باستثناء حالات قليلة حدثت لأبناء قلاوون .

ويرجع السبب فى عدم نجاح نظام الوراثة الشرعية عند المماليك إلى أنهم كانوا جنودًا محاربين، نشأوا نشأة واحدة وربوا تربية واحدة متجانسة، فهم قوم قد انقطعت صلاتهم بأسراتهم منذ اشتروا فى أسواق الرقيق أو أسروا فى ميادين الحروب، فضعفت عندهم مع الزمن

---

(١) يراجع فى هذا كتاب السلوك للمقريزى ، وكتاب النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى .

معانى الصلات الأسرية وقويت عندهم فى نفس الوقت معانى صلات أخرى كان لها شأن كبير فى حياتهم وهى :

– صلات الأستاذية التى تربط بين المملوك وأستاذه (أى السلطان أو الأمير الذى اشتراه ورباه) .

– وصلات الخجداشية (الخشداشية) أو الزمالة التى تربط المملوك بالمملوك .

فكان يصعب على المماليك دائمًا أن يلى السلطنة ابن سلطان سابق، لأنه لم ينشأ نشأتهم ولم يرب تربيتهم وليس بينهم وبينه من العلاقات ما يلزمهم بالولاء له، فكانوا فى العادة يقبلون سلطنة هذا الابن مؤقتًا، احترامًا لما أخذ عليهم من مواثيق وأيمان إلى أن تنتهى المشاورات بين كبار أمرائهم ويتفقوا على تولية أحدهم. وكان الاختيار يقع عادة على أقرب الأمراء إلى السلطان السابق ، وأقرب الأمراء إلى السلطان السابق كان فى العادة أقدمهم، والأخذ بنظام الأقدمية من المبادئ الهامة التى كان يحترمها ويعمل بها المماليك .

الفصل الثانى

سيف الدين قطز

١ - كيف تولى العرش :

كان نائب السلطنة لنور الدين على هو سيف الدين قطز وهو الذى ولى السلطنة بعد عزله، ويقال إنه من البيت المالك الخوارزمى، فلما قضى المغول على الدولة الخوارزمية شرد مع من شرد من جنودها وسيق إلى أسواق الرقيق، وقادته المقادير إلى مصر حيث ترقى فى سلك الجندية إلى أن أصبح نائبًا للسلطنة .

كان نور الدين على بن أيبك غلامًا صغيرًا ومع هذا لم تكن له حمية الملوك، بل كان يقضى معظم وقته فى اللهو واللعب بالحمام ومنافرة الديوك ومناطحة الكباش وركوب الحمير، ولهذا تركت السلطة كلها فى يد نائب السلطنة سيف الدين قطز .

وأهم حدث جرى فى عهد نور الدين على هو محاولة الأيوبيين فى الشام للمرة الثانية الإغارة على مصر واستعادتها من أيدى المماليك، وقد قام بهذه المحاولة الملك المغيث عمر بن العادل الثانى بن الكامل محمد - صاحب الكرك - وذلك فى سنة ٦٥٦هـ، فتولى الدفاع عن مصر وعن دولة المماليك الناشئة سيف الدين قطز، وتقابل بجيشه مع المغيث عمر عند مدينة الصالحية وهزمه هزيمة شنعاء ارتد بعدها إلى الكرك .

وفى عهد نور الدين على أيضًا هاجم هولاكو العراق وقضى نهائيًا على الخلافة العباسية، وقتل الخليفة المستعصم بالله وخرب بغداد تخريبًا شديدًا .

وبهذا النصر قرب الخطر المغولى من الشام ومصر قربًا شديدًا، ولم يكن فى الشام ملك قوى يستطيع الوقوف أمام هذا الخطر الداهم ومقاومته، فعقدت الآمال كلها على مصر وعلى جيشها المملوكى، وبعبارة أدق على سيف الدين قطز، لأن السلطان الشرعى نور الدين على لم يكن له من السن أو المقدرة ما يؤهله لتحمل هذا العبء .

ويضاف إلى هذا سبب آخر وهو أن قطز كان موتورًا من التتار وكان أعرف الناس بهم وبخطرهم على العالم الإسلامى، إذا هم نجحوا فى الاستيلاء على الشام ومصر، وذلك لأنه كما يقال من أصل خوارزمى، فيقال إن أمه كانت أخت السلطان جلال الدين خوارزمشاه، وأن أباه كان ابن عم ذلك السلطان، وأنه حضر المعارك الأخيرة التى قضى فيها المغول على الدولة الخوارزمية ، وقد أسر فى أعقابها وبيع فى دمشق ثم حمل إلى القاهرة .

لهذا كله رأى قطز أنه لا يستطيع العمل وهو نائب السلطنة ، والسلطان الفعلى غلام لاه، فأقدم فى الحال على عزل نور الدين على. ودافع عن فعلته بقوله :

(ولابد من سلطان قاهر يقاتل هذا العدو، والملك المنصور صبى صغير لا يعرف تدبير المملكة) .

وقبض على الملك المنصور وأخيه وأمه وأبعدهم إلى دمياط ثم إلى الإمبراطورية البيزنطية.

وقد غضب لعزل المنصور على بعض مماليك أبيه، فاعتذر إليهم قطز بقوله :

(إنى ما قصدت إلا أن نجتمع على قتال التتار ، ولا يتأتى ذلك بغير ملك ، فإذا خرجنا وكسرنا هذا العدو فالأمر لكم أقيموا فى السلطنة من شئتم) .

وأخذ يترضاهم بعد هذا حتى هدأت غضبتهم .

٢ – موقعة عين جالوت:

وقرب الخطر المغول من مصر خطوة أخرى، فقد تقدم المغول إلى الشام، واستولوا على حلب، ثم على دمشق. وفى تلك اللحظة نسى المماليك الذين كانوا قد فروا من مصر بعد مقتل أقطاى أحقادهم القديمة، وعادوا إلى مصر. وفى مقدمتهم ركن الدين بيبرس البندقدارى، وأخذوا يتكتلون لملاقاة هذا الخطر الجديد .

وهذه ظاهرة امتاز بها المماليك وتكرر ظهورها أكثر من مرى طوال تاريخهم، فهو دائم النزاع فيما بينهم حتى إذا دهمهم خطر خارجى تناسوا ما بينهم من خلاف ووقفوا أمام هذا الخطر صفا واحدا وذلك بدافع الشعور الغريزى للدفاع عن كيانهم .

وبعد الاستيلاء على دمشق أرسل هولاكو سفارة إلى قطز ومعها كتاب[1] كان تهديد ووعيد يطلب فيه من المماليك الاعتراف بالولاء للمغول بسيادتهم على الشام ومصر .

وأقدم قطز بدافع من شجاعته وحبه للدفاع عن العالم الإسلامى وكرهه الشديد للمغول على تمزيق الخطاب. وقتل سفراء هولاكو وعلق رؤوسهم على أبواب القاهرة، وأخذ يحشد قواه ويستعد لملاقاة المغول .

ومات فى ذلك الحين الخان الأعظم مانجوخان، وأنفذ قطز طلائع جيشه بقيادة بيبرس لملاقاة المغول فتقابلوا وإياهم عند مدينة غزة، وانتصر بيبرس على طلائع المغول لأول مرة وردهم عن غزة .

وخرج قطز ببقية جيشه ، ثم تقدم الجيش المملوكى كله نحو الشمال إلى أن إلتقى بجيش المغول قرب مدينة بيسان فى موضع يقال له عين جالوت، وبدا النضال العنيف بين عنصرين من أخطر وأقوى العناصر المحاربة، وبين فنيين من فنون الحرب الممتازة فى العصور الوسطى .

---

(١) راجع نص الخطاب فى كتاب السلوك للمقريزى .

وكانت هذه الوقعة تجربة خطيرة يتوقف على نتائجها مصير العالم الإسلامى بل مصير العالم العربى الأوربى المسيحى كذلك إذا انتصر المغول . وقد تأرجح النصر مرات بين الفريقين أثناء المعركة، وذلك لأن قطز كان قد عانى كثيرا لإقناع الأمراء فى القاهرة للخروج معه لقتال التتار، وكاد الخلاف بينه وبينهم بالكثيرين عن الخروج معه. ويقول المؤرخون إن قطز لما يئس من إقناع المماليك، ركب بكوساته (أى بموسيقى الجيش وطبوله) وقال:

(أنا ألقى التتار بنفسى)

فلما رأوا مسيره ساروا على كره .

وفى أول المعركة هزم المماليك وتفرقوا، ولكن قطز ثبت فى مكانه وألقى بخوذته إلى الأرض وصرخ بأعلى صوته : (وا إسلاماه!) ، وحمل بنفسه على العدو . فالتف المماليك حوله ثانية، وانتصروا على عدوهم ، وقتل قائد المغول كتبغا .

غير أن التتار لم يلبثوا أن ضموا صفوفهم وتجمعوا وتقدموا، وأوشكوا أن ينتصروا على المماليك ثانية فتقدم قطز، وصرخ صرخته الأولى ثلاث مرات .

(وا إسلاماه، يا الله: انصر عبدك قطز على التتار) .

فأثارت هذه الصرخة وهذا الدعاء حمية المماليك، وحملوا على التتار حتى هزموهم هزيمة شنعاء، فلما تم النصر نزل قطز عن فرسه ومرغ وجهه على الأرض وقبلها، وصلى ركعتين شكرًا لله .

وفر التتار بعد هذه الهزيمة من دمشق ، ثم من شمال الشام كله، فاستولى عليه قطز، وبذلك أصبحت مملكته تضم مصر والشام كله حتى حلب .

وأقام قطز واليًا من قبله من دمشق ، وأعاد بعض ملوك الأيوبيين إلى ممالكهم، كالملك المنصور صاحب حماة، والملك الأشرف موسى صاحب حمص، وكان قد انضم إلى هولاكو فأقامه نائبًا على حمص، فلما انتصر قطز طلب منه الأمان فأمنه، أما حلب فقد أقطعها قطز للملك السعيد علاء الدين على بن بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل .

٣ - نتائج موقعة عين جالوت :

وموقعة عين جالوت تعتبر من أهم المواقع الحاسمة فى تاريخ المماليك، بل فى تاريخ الشرق الأدنى الإسلامى، بل فى تاريخ العالم كله، وأهميتها بالنسبة للمماليك أنها كانت تجربة من أخطر التجارب التى مرت بها الدولة المملوكية الجديدة، وأنها كانت من أقوى العوامل التى ساعدت على تدعيم ملكهم، وقد كان حتى ذلك الحين مزعزعًا غير معترف به، وذلك أن

القوى الإسلامية كلها لم تستطع الوقوف فى وجه هذا التتار الجارف المدمر، فهزم الخوارزميون- رغم قوتهم الحربية الممتازة - بعد نضال عنيف، ثم هزمت الخلافة العباسية فى العراق وقضى عليها نهائيا هناك، ثم هزمت جيوش الأيوبيين فى الشام.

فالتتار منذ خروجهم من موطنهم الأصلى لم يذوقوا طعم الهزيمة أبدا قبل هذه الموقعة، ولهذا أثاروا الرعب الشديد فى العالم الإسلامى كله. وليس أوضح فى التعبير عن هذا الرعب من الأوصاف التى أثبتها المؤرخ العربى الكبير عز الدين بن الأثير فى كتابه (الكامل فى التاريخ)، أدرك ابن الأثير قبيل موته السنوات الأولى من تاريخ هذه الغارات وهى فى طريقها إلى قلب العالم الإسلامى، وظل سنوات يقاوم نفسه أن تسطر أخبارها، فإنه كان يستشف ما وراء الأفق، ويعى وعيا باطنيا أن فى تاريخ هذه الحوادث نعيا للإسلام والمسلمين، إنه يعبر عن هذا كله بقوله فى حوادث سنة ٦١٧هـ :

(لقد بقيت عدة سنين معرضًا عن ذكر هذه الحادثة استعظامًا لها كارهًا لذكرها، فأنا أقدم رجلا وأؤخر أخرى، فمن الذى يسهل عليه أن يكتب نعى الإسلام والمسلمين، ومن الذى يهون عليه ذكر ذلك؟! فياليت أمى لم تلدنى، وياليتنى مت قبل هذا وكنت نسيًا منسيًا).

ثم يعدد ابن الأثير بعد ذلك الأقطار والبلدان الإسلامية التى اجتاحتها جيوش المغول فى أقل من سنة فيقول :

(فإن قومًا خرجوا من أطراف الصين ، فقصدوا بلاد تركستان مثل كاشغر وبالاساغون ثم منها إلى بلاد ما وراء النهر مثل سمرقند وبخارى وغيرهما فيملكونها ويفعلون بأهلها ما تذكره ، ثم تعبر طائفة منهم إلى خراسان فيفرغون منها ملكًا وتخريبًا وقتلاً ونهبًا ، ثم يتجاوزونها إلى الرى وهمذان وبلاد الجبل وما فيه من البلاد إلى حد العراق، ثم يقصدون بلاد أذربيجان وأرمنية ويخربونها ويقتلون أكثر أهلها، ولم ينج إلا الشريد القادر فى أقل من سنة، هذا ما لم يسمع بمثله).

لم يشاهد ابن الأثير هذه الغارات فقد كان مقيمًا فى الشام حينذاك، ولكنه كان معاصرًا لها واستمع إلى أولئك السعداء الذين نجوا بأنفسهم وفروا بأرواحهم إلى الشام، ثم روى بعض ما سمع. ومما يدل دلالة واضحة على مبلغ الذعر والرعب اللذين أصابا نفوس المسلمين فى ذلك الوقت أنه يتابع حديثه فيقول :

(ولم يثبت أحد من البلاد التى لم يطرقوها إلا وهو خائف يتوقعهم ويترقب وصولهم إليه، ثم إنهم لا يحتاجون إلى ميرة ومدد يأتيهم، فإنهم معهم الأغنام والبقر والخيل وغير ذلك من الدواب يأكلون لحمها لا غير، وأما دوابهم التى يركبونها فإنها تحفر الأرض بحوافرها وتأكل من عروق النبات، لا تعرف الشعير، فهم إذا نزلوا منزلاً لا يحتاجون لشىء من خارجه).

إلى أن يقول :

ولقد حكى لى عنهم حكايات يكاد سامعها يكذب بها من الخوف الذى ألقاه سبحانه وتعالى فى قلوب الناس منهم، حتى قيل إن الرجل الواحد منهم كان يدخل القرية أو الدرب وبه جمع كثير من الناس فلا زال يقتلهم واحدًا واحدًا لا يتجاسر أحد بمد يده إلى ذلك الفارس، ولقد بلغنى إن إنسانًا منهم أخذ رجلاً ولم يكن مع التترى ما يقتله به فقال له : ضع رأسك على الأرض ولا تبرح، فوضع رأسه على الأرض ومضى التترى أحضر سيفا فقتله به .. إلخ) .

أما المؤرخ الجغرافى ياقوت فقد كان مقيمًا بمدينة مرو وشاهد هذه الكارثة ففر منها كما يقول :

(بقلب واجب، ودمع ساكب، ولب غارب، وحلم غائب، فيتوصل ، وما كاد حتى استقر بالموصل، بعد مقاساة أخطار، وابتلاء واصطبار، وتمحيص الأوزار، وإشراف غير مرة على البوار والتبار، لأنه مر بين سيوف مسلولة، وعساكر مغلولة، ونظام عقود محلولة، ودماء مسكوبة مطلولة، وكان شعاره كلما علا قتبًا، أو قطع سبسبًا : لقد لقينا من سفرنا هذا نصبًا .

فالحمد لله الذى أقدرنا على الحمد ، وأولانا نعما تفوق الحصر والعد، وجملة الأمر أنه لولا فسحة الأجل، لعز أن يقال : سلم البائس أو وصل ، ولصفق عليه أهل الوداد صفقة المغبون، وألحق بألف ألف ألف هالك بأيدى الكفار أو يزيدون، وخلف خدفه ذخيرته، ومستمد معيشته.. إلخ) .

وعندما أغار المغول على شمال الشام واستولوا على معظم مدنه وخاصة حلب (فى سنة ٦٥٧هـ)، فمر منها من استطاع النجاة بنفسه وحياته إلى جنوبى الشام ومصر يتملكهم الذعر، ويروون من قوة التتار وتخريبهم تاريخًا جديدًا . وكان من الفارين مؤرخ حلب القاضى كمال الدين بن العديم، وقد عاد إليها فى سنة ٦٦٠هـ بعد أن استردها المسلمون سنة ٦٥٨هـ فشاهد من تخريب المغول لها ما أثار حفيظته وأيقظ شاعريته، فرثاها رثاء قويًا بقصيدة طويلة باكية[١] .

هذه الأقوال وغيرها كثير تبين فى وضوح القيمة الكبرى للانتصار الذى أحرزه المماليك فى موقعة عين جالوت، وتؤكد ما ذكرناه من أنها كانت من أهم الأسباب التى ساعدت على تدعيم ملك المماليك، فقد بدأ العالم الإسلامى ينظر إليهم نظرة عطف واكبار .

ويعترف المؤرخون الأوربيون عند التأريخ لهذه المعركة أنها لم تنقذ العالم الإسلامى وحده من خطر المغول المخرب المدمر، بل لقد أنقذت العالم المسيحى كذلك، لأنه لم يكن فى أوربا

---

(١) انظر القصيدة كاملة فى : ابن واصل ، مفرج الكروب، وبعض أبياتها فى : (أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر، جـ٣، ص ٢٥١) .

المسيحية وقتذاك ملك قوى يستطيع مقاومة المغول لو أنهم انتصروا على المماليك وتقدموا فى اتجاههم الطبيعى نحو أوربا .

ومن النتائج الهامة لهذه الموقعة أيضًا أنها قضت نهائيًا على المعارضة الأيوبية، بل لقد وضعت السلطان المملوكى موضع السيادة ممن بقي من ملوك الأيوبيين، فقد طلب صاحب حمص الأمان من قطز، فأمنه وأعاد إلى ملكه – كما أسلفنا – وكذلك فعل بصاحب حماة، أما الملك الناصر صاحب حلب فكان قد أرسل يستغيث بالمماليك فى مصر عندما قرب الخطر المغولى فى بلاده، ولما تأخرت النجدة وهاجم المغول حلب اضطر أن يستسلم لهم، ثم قصد هولاكو بعد عودته إلى فارس فأكرمه وأعطاه فرمانًا بتوليته على الشام ومصر، وخرج من عنده قاصدًا الشام، فوصلت أخبار هزيمة المغول عند عين جالوت فأعاده هولاكو إليه وقتله .

٤ – مقتل قطز وتولية بيبرس :

وقد طمع بيبرس بعد الانتصار على المغول وضم الشام لملك مصر أن يولى على حلب، ولكن قطز أقطعها للملك السعيد علاء الدين بن بدر الدين لؤلؤ – صاحب الموصل – مكافأة له على ما أداه أبوه للدولة المملوكية الناشئة من خدمات جليلة، فقد دل سلاطينها على حركات المغول وعلى أسرار مشروعاتهم الحربية للتقدم نحو الشام .

ولكن بيبرس كان يعتقد أن جهوده فى مقاومة المغول لا تقل عن جهود بدر الدين لؤلؤ إن لم تتفوق عليها، فإليه يرجع الفضل الأكبر فى إثارة المماليك بالشام لمقاومة التتار، وهو صاحب الفضل الأكبر فى إحراز النصر الأول عليهم عند غزة، ثم هو من الأمراء القلائل الذين صدقوا القتال مع قطز فى عين جالوت . لهذا غضب بيبرس الغضب كله عندما آثر قطز ابن بدر الدين لؤلؤ بنيابة حلب، وأخذ منذ ذلك الحين يأتمر بقطز. وتدبير المؤامرات فن قديم يتقنه بيبرس منذ ائتمر على قتل المعظم تورنشاه بن الصالح نجم الدين .

وعاد قطز بجيشه إلى مصر، فلما وصل إلى الصالحية وثب به بيبرس والمؤتمرون معه وقتله، ولم يقدر لقطز أن يشهد الزينات العظيمة التى أقامتها القاهرة لاستقباله وإنما شهدها السلطان الجديدة ركن الدين بيبرس البندقدارى، فقد تقدم واحد من أمراء المماليك (وهو الأمير أقطاى المستعرب) عندما انتشر خبر مقتل قطز، وسأل المؤتمرين :

– من الذى قتل السلطان ؟

فقال بيبرس: (أنا قتلته) .

فقال الأمير :

– (ياخوند ، إجلس فى مرتبة السلطنة مكانه) .

وهكذا أصبح بيبرس سلطانًا للدولة المملوكية ، ولقب بالملك القاهر، ثم بالملك الظاهر.

٥ - سنوات التجربة العشر :

عشر سنوات كاملة مضت منذ قتل الملك المعظم تورانشاه إلى أن ولى بيبرس، وهذه المدة هى الدور الأول من تاريخ الدولة المملوكية، ويعتبر هذا الدور بحق دور التجربة والامتحان، وقد اجتازته الدولة بنجاح بعد بذل الجهود المضنية، فقد قضت على معظم الصعوبات التى قامت فى سبيلها .

قضت على ثورة البدو العرب فى مصر، وتغلبت على كبار ملوك البيت الأيوبى، ولم يحاول الانتقاض على الدولة بعد ذلك إلا الملك المغيث عمر صاحب الكرك، وسيقضى بيبرس على حركته فى يسر وسهولة .

وأهم من هذا كله أن الدولة الجديدة أثبتت فى هذه السنوات العشر أنها ذات مقدرة وجدارة حربية ممتازة، وخاصة بعد انتصارها الرائع فى عين جالوت، لهذا بدأ الرأى العام فى مصر وفى العالم الإسلامى يحترمها ويمجدها ويعترف بها .

ولم يعد ينقص الدولة الجديدة من المقومات إلا السند الدينى الأعلى، أى اعتراف الخليفة بها، فمصر كانت دار خلافة فى العصر الفاطمى، وفى العصر الأيوبى ما كان ملوك الأيوبيين يصبحون ملوكًا شرعيين إلا إذا صدر إليهم تقليد الولاية من الخليفة العباسى فى بغداد. وفى هذا الحين كانت بغداد قد سقطت فى أيدى التتار بعد أن قتلوا المستعصم آخر خلفاء العباسيين، لهذا نرى سلاطين المماليك يبذلون محاولات كثيرة لإقالة هذه الخلافة من عثرتها بإحيائها فى بغداد أولاً، ثم بنقلها إلى القاهرة أخيرًا، وسيكون نقل الخلافة إلى مصر مشروعها من أهم المشروعات التى قام على تنفيذها الظاهر بيبرس لتدعيم أركان الدولة الجديدة .

الباب الثانى

عصر الظاهر بيبرس

الفصل الأول : بيبرس ونقل الخلافة العباسية إلى مصر .

الفصل الثانى : العلاقات بين المماليك والمغول فى عهد بيبرس .

١ - علاقات عداء مع مغول فارس .

٢ - علاقات صداقة مع مغول القبيلة الذهبية .

٣ - الفرقة الوافدية .

الفصل الثالث : العلاقات بين المماليك والصليبيين فى عهد بيبرس .

١ - لويس التاسع فى سوريا .

٢ - بيبرس يواجه الخطرين الصليبى والمغولى .

٣ - مهارة بيبرس الدبلوماسية .

٤ - سفارة ابن واصل إلى الإمبراطور منفرد .

٥ - نضال بيبرس ضد الصليبيين .



الفصل الأول

بيــبرس
ونقل الخلافة العباسية إلى مصر

من الأخطاء الشائعة أن بيبرس كان أول من فكر في نقل الخلافة العباسية إلى مصر، والحقيقة أنه كان أول من نجح في تنفيذ هذا المشروع ، وقد سبقه إلى التفكير فيه كثيرون .

وأول من فكر في هذا المشروع أحمد بن طولون . وذلك عندما اشتد الخلاف بينه وبين ولى عهد الخلافة أبى أحمد الموفق طلحة، فقد فكر ابن طولون فى استدعاء الخليفة العباسى المعتمد إلى مصر للإقامة بها، وكاد الخليفة ينجح فى الفرار من العراق والمجيء إلى مصر لولا أن قبض عليه الموفق وأعاده إلى بغداد ثانية.

ثم فكر فى تحقيق هذا المشروع محمد بن طغج الإخشيد لنـاصرة الخليفة ضد الحمدانيين، وليقوى دعائم دولته إذا أصبحت مصر مركزًا للخلافة، غير أنه لم يوفق فى مسعاه .

وقد لاحظنا كيف كان يسعى الأيوبيون دائما لاستصدار التقاليد من الخليفة العباسى بالموافقة على توليتهم. بدأ هذا التقليد منذ عهد صلاح الدين، فقد سعى أثناء نضاله ضد ابن نور الدين لاستصدار تقليد من الخليفة بتوليته مصر واليمن وبلاد العرب والشام وما قد يتم على يديه من فتوح، وكان لهذا التقليد أثره فى تقوية مركزه ونجاحه فى نضاله ، وقد حرص على هذا التقليد ملوك الدولة جميعا، وكثيرًا ما كانوا يلجأون للخليفة العباسى كلما نشب نزاع بين بعضهم والبعض الآخر ، وقد ذكرنا أن الصالح نجم الدين كان قد أوصى نائبه الأمير حسام الدين ابن أبى على بأن يعهد بالبلاد بعد وفاته إلى الخليفة العباسى لأنه كان ضعيف الثقة بابنه تورانشاه .ولما قامت الدولة المملوكية سعى أمراؤها وسلاطينها للحصول على موافقة الخلافة العباسية واعترافها لتدعيم مركزهم أمام ادعاءات أمراء البيت الأيوبى ومحاولتهم لاسترجاع مصر، فقد بدأوا بتنصيب شجرة الدر ملكة على مصر، وأرسلوا يسألون الخليفة موافقته، ولكن الخليفة لم يقر هذا الوضع ، وإنما أرسل يقول لهم: (إن كانت الرجال قد عدمت عندكم فأعلمونا حتى نسير إليكم رجلاً) .

وخضع المماليك للأمر الواقع ، وخلعوا شجرة الدر وولوا المعز أيبك ، وقد سعى المعز لتأكيد هذا المعنى منذ الشهور الأولى لتوليته ، وخاصة عندما علم أن فريقًا من الجند يسعون لتولية أحد الأيوبيين، فقد أمر بأن ينادى فى القاهرة:

(إن البلاد للخليفة المستعصم بالله العباسى وإن الملك المعز نائبه بها) .

ولما تقررت قواعد الصلح بين المعز أيبك والناصر الأيوبى فى سنة ٦٥٤هـ (١٢٥٦م) ، أرسل المعز إلى الخليفة العباسى (يلتمس تشريفه بالتقليد والخلع والألوية أسوة بمن تقدمه من ملوك مصر).

وبعد هذا الحادث بسنتين حطم المغول الخلافة العباسية ببغداد ، وقتل الخليفة المستعصم وولده وكثير من رجال البيت العباسى، واستطاع أفراد منهم القرار بأرواحهم. وهنا لجأ المماليك إلى سياسة جديدة .

كانت هذه السياسة ترمى أولاً إلى محاولة إحياء الخلافة فى بغداد، ثم تطورت إلى التفكير فى نقلها إلى القاهرة .

بدأ المحاولة قطز ، وذلك بعد انتصاره على المغول فى عين جالوت ، فقد استدعى إلى دمشق واحدًا من العباسيين الفارين – واسمه أبو العباس أحمد – وبايعه بالخلافة، واتجه هذا الخليفة نحو بغداد وفى صحبته جماعة من العرب فافتتح عانة والحديثة والأنبار، وعند ذلك قتل قطز ، وتولى بيبرس، فاستدعى أبا العباس هذا لمقابلته ، وعند وصوله إلى القاهرة كان قد سبقه إليها عباسى آخر يدعى أبو القاسم أحمد، فآثر أبو العباس للعودة إلى الشام، وسار إلى حلب حيث بايعه بالخلافة أميرها شمس الدين أقوش البرلى، الخارج عن طاعة السلطان بيبرس، وأمده بسبعمائة فارس من التركمان، فتولى قيادتهم ووصل بهم إلى عانة .

أما أبو القاسم أحمد فكان قد وصل إلى القاهرة قبل ذلك وفى صحبته جماعة من العربان، فقابله بيبرس خارج القاهرة ، ثم عقد مجلسًا عامًا حضره كبار رجال الدولة، وشهد جماعة من هؤلاء العربان أمام الحاضرين بأن أبا القاسم أحمد هو ابن الخليفة الظاهر العباسى. وعند ذلك أعلن قاضى القضاة قبوله لهذه الشهادة، وبايع أبا القاسم ، ثم تبعه السلطان وجميع الحاضرين، ولقب أبو القاسم منذ ذلك الحين بالمستنصر بالله.

وبعد أن تمت البيعة للمستنصر قلد بيبرس ما بيده من ملك ، وما قد يضيفه إليها أو يفتحه من بلاد الكفار، ثم كتب السلطان إلى النواب والملوك بسائر البلاد يأمرهم بأخذ البيعة فى بلادهم للخليفة الجديد، وأن يدعى له على المنابر، ثم يدعى للسلطان الظاهر بيبرس بعده، كما أمر أن تنقش السكة باسم الخليفة والسلطان معا .

وكان بيبرس حتى ذلك الحين لا يزال يتجه الاتجاه القديم الذى بدأه قطز وهو محاولة إحياء الخلافة العباسية وإعادتها إلى بغداد. ولذلك بدأ يزود الخليفة المستنصر بالجند والسلاح والمال ليعمل على استرداد بغداد من أيدى التتار ويستقر بها. ويقال إن ما أنفقه بيبرس لإعداد الخليفة وجيشه بلغ ألف ألف دينار .

وبلغ من عناية بيبرس بتحقيق هذا المشروع أنه خرج مع الخليفة إلى دمشق وفى عزمه أن يزوده بجند آخرين من جيش الشام. وفى دمشق بدأ بيبرس يغير رأيه فى هذا المشروع، فإنه يقال إن أحد أمراء الموصل أسر إليه (أن الخليفة إذا استقر فى بغداد نازعك وأخرجك من مصر).

وبدأ بيبرس يعيد التفكير فى الموضوع من جديد، وضعفت حماسته الأولى لتزويد الخليفة بجيش كبير، واكتفى بأن أرسل معه ثلاثمائة فارس فقط، وكأنه أراد بإرساله فى هذا العدد القليل أن يلقى به إلى حتفه.

واتجه المستنصر بهذا الجيش الضئيل إلى الرحبة ، وهناك انضم إليه أربعمائة فارس آخرون من عرب العراق، ثم لحق به ستون مملوكًا من مماليك الموصل وثلاثون من جند حماة، وتقدم المستنصر بهذا الجيش المختلط من الرحبة إلى مشهد على حيث تقابل مع رفيقه أبى العباس أحمد (وكان معه سبعمائة فارس من التركمان) واتفقا على أن يعملا معا لإعادة الخلافة العباسية، وتقدمًا إلى الحديثة، وخرجا منها يقصدان هيت. وقرب هذه المدينة الأخيرة إلتقى جيشهما بجيش التتار، فقضى التتار على جيشهما قضاء مبرمًا، ولم ينج من هذا الجيش إلا عدد قليل فيه أبو العباس أحمد، أما الخليفة المستنصر فلم يعثر له على أثر.

وعاد أبو العباس أحمد إلى مصر ، فأحسن بيبرس استقباله، ويبدو أن بيبرس بدأ منذ ذلك الحين ينفض يده نهائيًا من المشروع القديم، كما أخذ يفكر جديًا فى إقامة الخلافة العباسية بمصر، فعقد مجلسًا عامًا يشبه ذلك المجلس الذى كان قد عقده لمبايعة المستنصر، وقرىء إشهاد بإثبات نسب أبى العباس أحمد، وأقره قاضى القضاة ، وبويع الخليفة من السلطان والحاضرين، ولقب بالحاكم بأمر الله . وخطب له على منابر مصر والشام ، ولما تمت البيعة قلد السلطان الظاهر بيبرس أمور البلاد وحكمها .

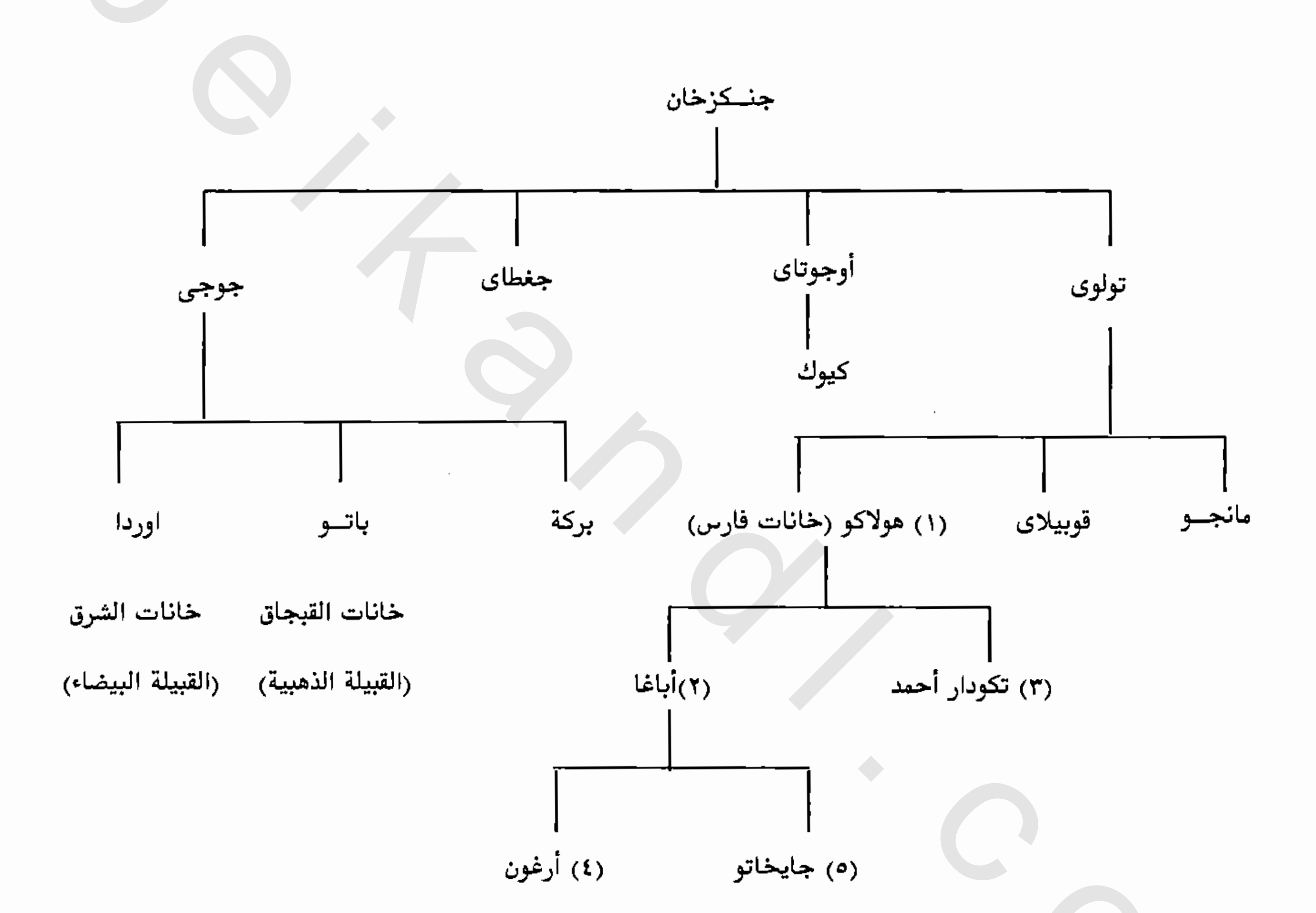
وبهذا تم إحياء الخلافة العباسية نهائيًا . غير أن بيبرس لم يفكر فى تزويد هذا الخليفة الجديد بجيشه لاستعادة بغداد، وإنما أبقاه فى القاهرة ليكون قريبًا منه وتحت عينه، وبذلك لا يخشى بأسًا من محاولاته .فالظاهر بيبرس لم يشأ أن يخلق قوة ثانية إلى جانبه، وإنما أراد أن يكتب سندًا شرعيًا أمام الرأى العام يقوى به مركزه ومركز دولته، ولهذا أسكنه فى أحد أبراج القلعة وعيونه ترقبه من بعيد، ولم يكن له من مظاهر السيادة إلا الخطبة باسمه يوم الجمعة .

فالخلافة العباسية لم تستفد شيئًا من هذا الإحياء ، وحتى مظهر التبعية القديم وهو ضرب اسم الخليفة على السكة مع اسم السلطان ، والذى تمتع به الخليفة السابق المستنصر حرم منه الخليفة الجديد الحاكم، وإنما الذى استفاد من إحياء الخلافة العباسية هم سلاطين المماليك وعاصمتهم القاهرة، فقد أصبح سلاطين المماليك منذ ذلك الحين إلى الفتح العثمانى لمصر

سنة ١٥١٧هـ ولهم المقام الأسمى على كل ملوك وحكام العالم الإسلامى باعتبار أنهم حماة الخلافة والمتمتعون ببيعتها، وكذلك أصبحت القاهرة مكانة سياسية ممتازة تفوق كل عواصم العالم الإسلامى ، لأنها مقر الخلافة التى يدين لهما بالولاء الروحى كل العالم الإسلامى .

حقيقة كانت القاهرة مقرًا للخلافة الفاطمية قبل ذلك ، ولكن كانت هناك خلافتان أخريان تعاصرانها وتنافسانها وتناوئانها وتطعنان فى نسبها وشرعيتها، وهما الخلافة العباسية فى بغداد، والخلافة الأموية فى قرطبة .

أما فى العصر المملوكى فلم يكن هناك فى العالم الإسلامى سوى خلافة واحدة هى خلافة القاهرة، وحتى الخلافة الأموية فى الأندلس كانت قد زالت ولم يكن يدين لها بالولاء - حتى فى عنفوان قوتها - إلا الأندلس وحدها .


جنــكزخان
تولوى
أوجوتاى
جغطاى
جوجى
كيوك
مانجــو
قوبيلاى
(١) هولاكو (خانات فارس)
بركة
باتــو
اوردا
خانات القبجاق
خانات الشرق
(القبيلة الذهبية)
(القبيلة البيضاء)
(٣) تكودار أحمد
(٢)أباغا
(٥) جايخاتو
(٤) أرغون



الفصل الثانى

العـــــلاقات

بين المماليك والمغول

فى عهد بيبرس

قسمت دولة المغول بعد موت جنكز خان بين أولاده الأربعة:

- أوجوتاى، وحكم الجزء الشرقى من الإمبراطورية.
- جغطاى، وحكم الجزء الأوسط.
- باتو بن جوجى، وحكم الجزء الغربى، وحكام هذا الجزء يسمون خانات القبيلة الذهبية أو خانات القفجاق.
- تولوى، وحكم بلاد فارس، ثم ضم ابنه هولاكو إليها جزءًا كبيرًا من آسيا الصغرى.

وقد قامت العلاقات بين الدولة المملوكية فى عهد بيبرس وبين فرعين من هذه الفروع:

- خانات القفجان - أو خانات القبيلة الذهبية - وكانت العلاقات معهم علاقات تحالف وصداقة.
- وخانات فارس، وكانت العلاقات معهم علاقات عداء وحروب.

١ - علاقات عداء مع مغول فارس:

لم تكن موقعة عين جالوت خاتمة العلاقات بين الدولة المملوكية وبين المغول، بل كانت فاتحة هذه العلاقات، وقد قدر بيبرس منذ اللحظة الأولى أن المغول لابد مقدمون على الأخذ بثأرهم، ولهذا لم يكد ينتهى من مشكلة الخلافة حتى أخذ يستعد لمناضلة المغول. وقد كان نضاله مع المغول متصلا اتصالا وثيقا بنضاله ضد بقايا الصليبيين فى الشام، وذلك أن الصليبيين والدول المسيحية عامة كانت تطمع فى نشر الدين المسيحى بين المغول، وفى أن يعتنق خانات المغول هذا الدين، وبهذا يتعاون المغول والصليبيون معًا على القضاء على الدولة المملوكية.

لم يكد يعلم المغول بموت قطز حتى اجتمعت فلولهم الموجودة على حدود الدولة المملوكية، وأغارت بقيادة بيدرا على مدينة البيرة، ثم تقدموا إلى حلب واستولوا عليها، كان الملك السعيد بن بدر الدين لؤلؤ شخصية ضعيفة، فلم يستطع الوقوف أمام هذه الجنود التترية، وترك التتار حلب إلى حماة، وانتصروا هناك على صاحبها الأيوبى. وبذل بيبرس الجهد فى ذلك

الحين حتى عقد حلفًا مع بركة خان ملك التتار الشماليين، ثم هادن الصليبيين، وذلك كي يتفرغ تمامًا لمناضلة إيلخانات فارس، وأرسل بيبرس جزءًا من جيشه استرد البيرة.

وفى ذلك الحين مات هولاكو وخلفه ابنه أباغا، وقد حاول هذا الملك أن يسعى إلى مصالحة بيبرس، فأرسل إليه خطابًا فى هذا المعنى، غير أن الخطاب كان ذا لهجة تهديدية فقد قال فيه:

«وأنت لو صعدت إلى السماء، أو هبطت إلى الأرض ما تخلصت منا، فالمصلحة أن تجعل بيننا صلحًا».

ولهذا رفض بيبرس المصالحة، وأرسل إلى أباغا خطاب أكثر تهديدًا وقال لرسوله:

«اعلم أنى وراءه بالمطالبة، ولا أزال أنتزع من
يده جميع البلاد التى استحوذ عليها من
بلاد الخليفة وسائر أقطار الأرض».

وقامت مناوشات كثيرة بينت جيوش التتار وجيوش المماليك فى السنوات التالية إلى أن كانت سنة ٦٧١ هـ.

وكان بيبرس فى دمشق وقد فرغ من أمر الصليبيين وعلم أن التتار قد أعادوا الهجوم على البيرة، فتقدم نحو الشمال يقود الجيش بنفسه، ثم حمل بعض السفن المفككة إلى نهر الفرات حيث أعاد تركيبها، وعبر بجنوده إلى الشاطئ الشرقى حيث انتصر على التتار الذين تقهقروا سريعًا، واحتل بيبرس البيرة وحصنها وأقام بها حامية للدفاع عنها.

ومنذ ذلك الحين اتجه النضال بين بيبرس وبين التتار إلى ميدان آخر، إلى آسيا الصغرى.

كانت دولة سلاجقة الروم فى آسيا الصغرى تتاخم حدود الدولة المملوكية الشمالية، وكانت هذه الدولة قد ضعفت وأصبحت تابعة للمغول منذ أيام هولاكو، ولذلك فكر بيبرس فى مهاجمة أملاك هذه الدولة ليقضى على نفوذ التتار بها.

وكانت السلطة فى الدولة حينذاك فى يد معين الدين سليمان البرواناه (والبرواناه لفظ فارسى معناه الحاجب)، وكان البرواناه فى أول الأمر فى صف المغول أصحاب النفوذ الفعلى على الدولة، فلما علم بتقدم بيبرس نحو الشمال انضم إليه وراسله، واشتبك بيبرس مع جيوش سلاجقة الروم وجيوش المغول فى موقعة حاسمة عند الأبلستين فى سنة ١٢٧٧م، وفيها انتصر بيبرس انتصارًا حاسمًا عظيمًا، وانتقل بعد هذا النصر إلى قيسارية عاصمة الدولة، ونزل بدار السلطنة، وجلس على عرش سلاجقة الروم.

ولهذه الوقعة نتيجة هامة أخرى، فقد حطمت دولة سلاجقة الروم، وأتاحت الفرصة لقيام دويلات تركية أخرى فى أنحاء آسيا الصغرى سيكون لبعضها شأن عظيم فيما بعد، من هذه الدويلات: دولة بنى قرمان، ودولة بنى عثمان، ودولة ذى القدرية وغيرها[1].

عاد بيبرس بعد انتصاره إلى الشام، غير أنه لم يلبث أن سمع باستعداد التتار للانتقام، وقد ذهبت جيوشهم فعلاً إلى آسيا الصغرى وانتقموا من سكان الأبلستين وقيسارية وغيرها من المدن انتقامًا شديدًا لمساعداتهم السابقة لبيبرس، وصحب أباغا البرواناه معه عند عودته، ثم قتله بتحريض خوندات البيت المغولى، لأنه كان السبب فى قتل رجالهم وجنودهم فى موقعة أبلستين.

كانت دولة سلاجقة الروم قد أصبحت من أملاك بيبرس بعد انتصاره، وكان من المنتظر أن يعود إليها لطرد التتار منها ثانية، ولكنه لم يفعل، ولعل السبب الأكبر فى أنه لم يذهب أنه مات بعد ذلك بقليل فى أواخر سنة ٦٧٦ هـ. (١٢٧٧م).

٢ - علاقات صداقة مع مغول القبيلة الذهبية:

هذا موجز العلاقات بين بيبرس وبين مغول فارس، أما العلاقات بينه وبين مغول القبيلة الذهبية - أو مغول القفجاق - فقد كانت علاقات ود وصداقة.

ويرجع هذا إلى أن ملك هذه القبيلة المعاصر لبيبرس بركة خان بن جوجى كان من أول من أسلم من خانات المغول، وقد تبودلت الرسائل والسفارات بين الملكين، بل ظلت تتبادل هذه الرسائل والسفارات بين سلاطين المماليك البحرية وخانات القبيلة الذهبية أمدًا طويلاً، وقد بلغ عدد السفارات المتبادلة بين الدولتين نحو أربعين سفارة، منها تسعة فى عهد الظاهر بيبرس نفسه.

٣ - السفارات المتبادلة بين الدولتين فى عهد بيبرس:

١ - فالسفارة الأولى أرسلت من قبل الظاهر بيبرس إلى بركة خان فى سنة ٦٦٠ هـ (١٢٦١م)، وكان الرسل عددًا من تجار العلان - وهم كما تذكر المراجع جنس من الناس من سكان القرم - وقد حملهم بيبرس رسالة إلى بركة يحرضه فيها على هولاكو ويحثه على ضرورة مقاتلة الكفار، حتى وإن كانوا من أهله، ويضرب له المثل بالنبى محمد - عليه السلام - فإنه قاتل عشيرته الأقربين فى سبيل إعلاء كلمة الله، وهذا - كما يقول بيبرس فى رسالته - «هولاكو لأجل زوجته النصرانية أقام دين الصليب».

---

(١) راجع رحلة ابن بطوطة.

٢ - وفى السنة الثانية ٦٦١ هـ (١٢٦٢م) أرسلت السفارة الثانية من قبل بيبرس إلى بركة خان، وكانت تتكون من الأمير كش (وهو أصلاً من رجال خوارزمشاه) وله معرفة طيبة بالبلاد والألسنة، والفقيه مجد الدين، واثنين من التتار الواصلين أخيرًا يعرفان البلاد، وكانت الرسالة التى حملوها تتضمن استجلاب محبة بركة وحثه على الجهاد، ووصفا للعساكر الإسلامية فى مصر وأجناسها وقوتها، مع بيان بالبلاد التى خضعت لبيبرس والملوك الذين دانوا له بالطاعة، وذلك للتهوين من شأن هولاكو وتقبيح إهمال محاربته، وتختتم بالإشارة إلى جنود بركة الذين وصلوا إلى مصر وما قوبلوا به من إكرام، وأرفقت بالرسالة وثيقة كتب فيها نسب الخليفة العباسى بماء الذهب.

٣ وفى نفس السنة ٦٦١ هـ (١٢٦٢م) أرسلت أول سفارة من بركة إلى بيبرس، وكان على رأسها الأمير جلال الدين، والشيخ نور الدين على، وتعتبر ردا على السفارة الأولى، وقد تقابل أعضاؤها مع أعضاء السفارة الثانية المرسلة من بيبرس إلى بركة فى القسطنطينية. وفى الخطاب الذى حملته هذه السفارة يتقدم بركة بالشكر لأخيه بيبرس ويثنى عليه، ويطلب منه النجدة لمقاتلة هولاكو، ويأخذ عليه مخالفته لياسة جنكز خان، وينبئ بركة السلطان بيبرس أنه هو وأخوته الأربعة يعملون جاهدين على محاربة هولاكو من مختلف الجهات إعزازا لكلمة الإسلام، ثم يلتمس منه إرسال عسكره إلى الفرات لسد الطريق على هولاكو، فيهاجمه بركة من ناحية، وبيبرس من الناحية الأخرى؛ وبذلك يتمكنان من القضاء عليه.

وقد احتفل بيبرس بهذه السفارة فى القاهرة احتفالاً فخمًا، وأسهم الخليفة العباسى كذلك فى الاحتفال بها، فخطب خطبة الجمعة، ودعا فى نهايتها للسلطان بيبرس ثم للملك بركة خان، واجتمع بعد ذلك بالرسل وتحدث إليهم فى شئون الإسلام، وقدم لهم الملابس والخلع، وقد أرسل بيبرس إلى مكة والمدينة وبيت المقدس يأمر بالدعاء لبركة بعده على المنابر.

٤ - وأرسلت السفارة الرابعة من بركة إلى بيبرس فى نفس السنة ٦٦١ هـ (١٢٦٢م) وكانت تتكون من أربوغا، وارتمور، وأوناماس، وشهاب الدين غازى، وكانت مهمتها مرافقة البعثة الموفدة من بيبرس أثناء عودتها إلى القاهرة. وكانت تحمل رسالة مكتوبة وأخرى شفوية لإعلان سرور الإسلام وأهله بما حل بهولاكو، وبيان بعدد من أسلم من بيوت التتار وقبائلهم وعشائرهم. وكلف شهاب الدين بأن يصف للسلطان ما شهد من حرب بركة ضد هولاكو، لأنه كان حاضرًا وشاهد عيان لهذه الحرب، وأن يشكر لبيبرس جهوده الموفقة لإقامة خليفة عباسى. وقد شهد

أعضاء هذه السفارة أثناء مقامهم في القاهرة حفل ختان بركة خان[1] بن بيبرس، وعرضًا عسكريًا للجيش المصرى نال إعجابهم. وقبل سفرهم حملهم الخليفة وصايا شفوية لبركه يحثه فيها على إقامة الشريعة والعدل، والجهاد فى سبيل الله.

٥ - وأرسلت السفارة الخامسة من بيبرس إلى بركة خان فى سنة ٦٦١ هـ (١٢٦٢م) وعلى رأسها فارس الدين أقرش السعودى الأسدى، والشريف عماد الدين عبد الرحيم الهاشمى، وكانت مهمتها مرافقة البعثة السابقة أثناء عودتها إلى سراى، وكانت تحمل خطابًا فيه استمالة لبركة وإظهار المودة له، مع حثه على الجهاد والاقتداء فيه بالرسول - عليه السلام -.

وقد جهزت لهم طريدة (نوع من السفن) بها عدد كبير من البحريين ومعهم مؤونة سنة، كما حملت بالكثير من الهدايا من المستطرفات الخاصة بالديار المصرية. وفى المراجع التاريخية بيان مفصل بهذه الهدايا، من بينها: مصحف - ذكر أنه مصحف عثمان - بغلاف أطلس أحمر مزركش، وقد وضع فى درج من الأدم مبطن بعتابى، وكرسى للمصحف مصنوع من العاج والأبنوس مخرم بنقط فضة، وسجادات، وقناديل، وزرافة، وحمير، وهجن نادرة، وعبى، وألبسة وثياب من صنع الإسكندرية، وسيوف ورماح وأوتار حرير، وخيل ولجم وسروج،

---

(١) نحب أن نشير هنا إلى خطأ شائع يتردد فى كتب بعض المؤرخين الأوربيين والعرب المعاصرين، فقد ذكر لين بول فى كتابه «تاريخ مصر فى العصور الوسطى» وعنه نقل الدكتور جمال الدين سرور فى كتابه عن الظاهر بيبرس، والدكتور سعيد عاشور فى كتابه «مصر فى عصر دولة المماليك البحرية» أن السلطان الملك السعيد بركة خان بن الظاهر بيبرس هو حفيد بركة خان بن جوجى بن جنكزخان زعيم وإمبراطور مغول القبيلة الذهبية، والحليف الأكبر للسلطان المملوكى بيبرس، ويعللون ذلك بأن بيبرس عندما أراد أن يوثق علاقته به تزوج من ابنته، ويبالغ بعض هؤلاء المؤرخين فيبنى على هذه المقدمة الخاطئة نتائج خطيرة.

ومن الواجب أن نصحح هذا الخطأ، ودليلنا فى هذا أن المراجع العربية القديمة التى أثبتت الاسم الكامل لهذا الجد الذى سمى ابن بيبرس باسمه تقول إنه الأمير حسام الدين بركة خان بن دولة خان الخوارزمى، وتذكر أنه كان أحد قواد الفرقة الخوارزمية التى فرت أمام الضغط المغولى فى عهد جنكز خان ولجأت إلى الشام واتصلت بخدمة الملك الصالح نجم الدين أيوب.

ويؤيد هذا أيضًا أن عز الدين بن شداد المؤرخ المعاصر لبيبرس وصاحب كتاب «سيرة الملك الظاهر» ذكر فى كتابه هذا ثبتا بأسماء زوجات بيبرس ثم قال: «وأول أولاده كان الملك السعيد ناصر الدين بركة خان الذى ولد فى صفر سنة ٦٥٨ هـ فى حارة العش بالقاهرة وأمه ابنة الأمير حسام الدين بركة خان بن دولة خان الخوارزمى اليمكى».

وذكرت هذه المراجع كذلك اسم الأمير بدر الدين محمد وقالت إنه خال الملك السعيد بركة خان وابن الأمير حسام الدين بركة خان السابق الذكر.

ونستطيع أن نضيف إلى هذا أن بركة بن بيبرس ولد فى صفر سنة ٦٥٨ هـ قبل أن يلى والده السلطنة بعشرة أشهر، وقبل أن يعقد الحلف بين دولة المماليك ومغول القبيلة الذهبية بما يزيد على سنتين، ففى هذا التاريخ لم يكن من المحتمل أن يفكر بيبرس فى عقد أى رابطة زواج مع المغول، ولم يكن من المحتمل أيضًا أن يفكر خان القبيلة الذهبية فى أن يعطى ابنته لأمير مملوكى.

ونسانيس معلمة وقرود، وخدام سود، وجوار طباخات، ومن يقوم بخدمة هذه الحيوانات ورعايتها.

وقد عملت الدولة البيزنطية على تعويق هذه السفارة أثناء مرورها بالقسطنطينية مما أدى إلى سوء العلاقات بين مصر والدولة البيزنطية وقتًا ما.

٦ - وفى سنة ٦٦٣ هـ (١٢٦٤م) توجه شجاع الدين بن الداية الحاجب رسولاً من قبل بيبرس إلى الملك بركة، ومعه ثلاث عمرات اعتمر بها عند مكة، حملت فى أوراق مذهبة، وشيء من ماء زمزم، ودهن بلسان وغيره[1]، وكلف الرسول أن يطلب من بركة أن يوقف غاراته على القسطنطينية استجابة لرجاء الأشكرى (إمبراطور بيزنطة)، فقد تقدم بالرجاء إلى بيبرس أن يقوم بالوساطة بينه وبين الملك بركة.

٧ - وفى سنة ٦٦٦ هـ (١٢٦٧م) أرسلت سفارة من الظاهر بيبرس إلى منكوتمر - ابن أخى بركة وخليفته على العرش - وكان أعضاء هذه السفارة هم رسل الملك بركة لدى الظاهر وقت وصول الأخبار بوفاة بركة، وقد حملهم بيبرس رسالة تتضمن تقديم العزاء فى بركة والتهنئة بتولية منكوتمر، وتحريضه على قتال أباغا بن هولاكو.

٨ - وفى سنة ٦٧٠ هـ (١٢٧١م) أرسلت سفارة من منكوتمر إلى بيبرس وكانت تحمل رسالة يقول فيها بأنهم أعداء لأعداء السلطان، وأنهم مقيمون على محبته، ويطلبون منه النجدة على هولاكو بشرط أن ينتقل ما فى يده من بلاد إلى السلطان فى حالة النصر.

وقد اعترض المرسيلية طريق هذه السفارة وأسروا الرسل، فاحتاط الظاهر بيبرس على المرسيلية وممتلكاتهم فى جميع ثغور مصر والشام، فأطلقوا سراح الرسل وأرسلوهم إلى السلطان ومعهم جميع ما أخذ منهم.

٩ - والسفارة الأخيرة أرسلت فى سنة ٦٧١ هـ (١٢٧٢م) من الظاهر بيبرس إلى منكوتمر، وكانت تضم رسل منكوتمر السابق ذكرهم وفى صحبتهم الأمير سيف الدين الصوابى المهمندار، وبدر الدين بن عزيز الحاجب. وحملت السفارة معها هدية فاخرة وعقاقير كان منكوتمر قد التمس إتحافه بها.

هذا عرض موجز للسفارات المتبادلة بين بيبرس ودولة مغول القبيلة الذهبية ومنه يتضح أمران: أولهما نجاح بيبرس فى سياسته التى كانت تهدف إلى عقد أواصر الصداقة بين دولة المماليك فى مصر ودولة المغول الشمالية، وثانيهما الإفادة من هذا التحالف للقضاء على دولة مغول فارس المعادية، فقد كان بيبرس يلح دائمًا فى تحريضه بركة خان على محاربة هولاكو، واستجاب بركة فعلاً لهذا الطلب، واشتبك فى حروب ضد هولاكو.

---

(١) المقريزى: السلوك ٥٣٨/١.

٤ - الفرقة الوافدية

وكان من نتائج هذه الصداقة وهذا التحالف أن لجأ إلى مصر فى عهد بيبرس عدد كبير من أفراد القبيلة الذهبية الفارين من هولاكو، فأكرمهم بيبرس كل الإكرام، فاعتنقوا الإسلام، وأدخل عددا منهم جنودًا فى جيشه. وقد شجع هذا الإكرام الكثير من التتار على القدوم إلى مصر والالتحاق بجيشها، وكونوا فرقة خاصة عرفت باسم «الفرقة الوافدية».

وكانت الغالبية العظمى من أفراد الفرقة الوافدية من المغول، وقد أتى العدد الأكبر منهم إلى مصر فى عهد السلطانين الظاهر بيبرس والعادل كتبغا، والمعروف أن بيبرس كان من أكبر المعجبين بالنظم المغولية، وأن كتبغا كان مغولى الأصل.

بدأت حركة الوافدية فى أواخر العصر الأيوبى، وظلت مستمرة متتابعة نحو سبعين أو ثمانين سنة فى العصر المملوكى الأول، وقد كان أفراد الوافدية الذين أتوا إلى مصر أحرارًا، وظلوا بعد التحاقهم بخدمة الجيش المملوكى أحرارًا، فى حين أن نظام الدولة فى العهد المملوكى ما كان يسمح لأحد أن يصل إلى الوظائف الحربية أو يرقى سلمها إلا إذا نشأ نشأة مملوكية.

وإذا نحن تتبعنا خطوات ورود الوافدية إلى مصر، نجد أن أول جماعة من الوافدية المغولية وصلت إلى مصر فى عهد بيبرس فى ذى الحجة سنة ٦٦٠ هـ، وكانت تتكون من مائتى فرد بما فيهم النساء والأطفال، وكان هؤلاء جزءًا من قوة حربية أرسلها بركة خان لمساعدة هولاكو، فلما ساءت العلاقات بين الرجلين وقامت الحرب بينهما أمر بركة قواته بالعودة إليه، فإن وجدوا صعوبة يذهبون إلى الأراضى المملوكية، وقد اتجهوا فعلاً نحو مصر، ولما علم بيبرس بوصولهم خرج لمقابلتهم بنفسه، وأكرمهم، وأمر بعضهم، وألحق البعض الآخر جنودًا بالفرقة البحرية.

هذه المعاملة الكريمة شجعت التتار الآخرين على الانضمام إلى الجيش المملوكى، ففى سنة ٦٦١ هـ وصلت إلى مصر مجموعة أخرى تتكون من ١٣٠٠ فارس من المغول والبهادرية، وفى سنة ٦٦٢ هـ وصلت مجموعات جديدة تضم وافدين من شيراز يتولى قيادتهم سيف الدين بكلك Baklak واكتبار Iktibar الخوارزمى جمدار جلال الدين خوارزمشاه (والجمدار هو الموظف الذى يتصدى لإلباس السلطان أو الأمير ثيابه، وأصله جامادار، ويتكون من لفظين فارسيين: أحدهما جاما ومعناه الثوب، والثانى دار ومعناه ممسك)، والأمير حسام الدين بن ملاح أمير العراق، ومعهم كثيرون من أمراء العرب من قبيلة خفاجة، وخرج السلطان بيبرس لمقابلتهم بنفسه كذلك، وأنعم على بكلك بإمرة طلبخاناه:

وفى نفس السنة وصل إلى مصر بعض التتار والأتراك البغدادية مستأمنين، ولكن المراجع تشير إلى أن بيبرس أوجس خيفة من هذه الهجرة الأخيرة وأعطى أوامره للجيش أن يكون على استعداد.

وفى سنة ٧٦٥ هـ وصل إلى مصر حاكم خرتبرت ونفر من فرسانه ووافدية من الأناضول، وخرج السلطان كعادته لمقابلتهم.

ففى عهد بيبرس بلغ مجموع الفرسان الذين وفدوا على الدولة المملوكية ٣٠٠٠ فارس، وقد أمر بعض هؤلاء أمراء طبلخاناه أو أمراء عشرينات أو أمراء عشرات، كما عين البعض الآخر فى وظائف الدولة، فكان منهم الساقى والسلاحدار والجمدار، وألحق نفر آخرون بالخدمة فى فرق الأمراء.

ومن الملاحظ أن بيبرس أنزل كل التتار الوافدية فى عهده فى العاصمة القاهرة، ولم يرسلهم إلى السواحل الشامية الفلسطينية، بل أرسل بدلاً عنهم بعض القبائل التركمانية.

وفى المدة بين عهد بيبرس وعهد كتبغا فترت حركة قدوم أو هجرة الوافدية من التتار، ففى سنة ٦٨٢ هـ وفد على مصر ١٩ فارسًا فقط وفى صحبتهم عائلاتهم، وفى سنة ٦١ هـ وفد إلى مصر ٣٠٠ فارس آخرون.

وكانت أكبر هجرة من هجرات الفرسان التتار الوافدية على الدولة المملوكية فى سنة ٦٩٥ هـ فى عهد السلطان العادل كتبغا (وهو مغولى الأصل)، وكانت هذه الهجرة تتكون من الأويراتية، وبلغ عددها فى رأى بعض المراجع ١٠,٠٠٠ حصان، وعند البعض الآخر ١٨,٠٠٠ حصان، وكان عدد قواد هذه الفرقة يتراوح حسب المراجع المختلفة بين ١١٣ و ٢٠٠ و ٣٠٠. وقد قوبلوا فى مصر بكل ترحاب وإكرام.

أما بقية هذه القبيلة وما كان يصحبهم من أغنام وماشية فقد أرسلوا إلى مدن الساحل بالشام حيث استقروا فى عثليت والمنطقة المحيطة بها، وبعد وقت قصير اختلط أفراد هذه القبيلة بالسكان الأصليين فى مدن الساحل، ثم لم نعد نسمع عنهم شيئا.

أما الأويراتية الذين دخلوا مصر فقد بهروا بجمال وجوههم أعين الأمراء المماليك، وألحق الكثيرون منهم والكثيرون من أولادهم بالخدمة فى فرق الأمراء المماليك. وبعد قليل استدعى نفر من أفراد الأويراتية المقيمين بالساحل إلى مصر وألحقوا بفرق الأمراء المماليك، كما تزوج هؤلاء الأمراء بزوجات من نساء الأويراتية، وقد نزل الأويراتية عند وصولهم إلى القاهرة فى حى الحسينية، وكانت لهم بهذا الحى أخبار كثيرة، روى طرفًا منها المقريزى فى كتابه الخطط عند كلامه عن «حارة الحسينية» فقال فى وصف الفرقة الأويراتية التى وصلت أيام العادل كتبغا:

«ولما قرب الجماعة من القاهرة خرج الأمراء بالعسكر إلى لقائهم، واجتمع الناس من كل مكان حتى امتلأ الفضاء للنظر إليهم، فكان لدخولهم يوم عظيم، وصاروا إلى قلعة الجبل، فأنعم السلطان على طرغاى - مقدمهم - بإمرة طبلخاناه، وعلى اللصوص بإمرة عشرة، وأعطى البقية تقادم فى الحلقة وإقطاعات وأجرى عليهم الرواتب، وأنزلوا الحسينية. وكانوا على غير الملة

الإسلامية، فشق ذلك على الناس، وبلوا مع ذلك منهم بأنواع من البلاء لسوء أخلاقهم ونفرة نفوسهم وشدة جبروتهم .

ولما دخل شهر رمضان من سنة خمس وتسعين وستمائة لم يصم أحد من الأويراتية، وقيل للسلطان ذلك فأبى أن يكرههم على الإسلام، ومنع من معارضتهم، ونهى أن يشوش عليهم أحد، وأظهر العناية بهم، وكان مراده أن يجعلهم عونا له يتقوى بهم، فبالغ فى إكرامهم حتى أثار فى قلوب أمراء الدولة منه إحنا، وخشوا إيقاعه بهم، فإن الأويراتية كانوا أهل جنس كتبغا».

ثم يستطرد المقريزى فيصف جمال الأويراتية ورغبة الأمراء فى التزوج من نسائهم فيقول: «وكانوا مع ذلك صورا جميلة، فافتتن بهم الأمراء وتنافسوا فى أولادهم من الذكور والإناث، واتخذوا منهم عدة صيروهم من جملة جندهم.. ثم ما قنع الأمراء بما كان منهم فى مصر حتى أرسلوا إلى البلاد الشامية واستدعوا منهم طائفة كبيرة، فتكاثر نسلهم فى القاهرة واشتدت الرغبة من الكافة فى أولادهم.. إلى أن آل الأمر بسببهم وبأسباب أخر إلى خلع السلطان العادل كتبغا من الملك فى صفر سنة ست وتسعين وستمائة، فلما قام فى السلطنة من بعده الملك المنصور حسام الدين لاجين قبض على طرغاى مقدم الأويراتية وعلى جماعة من أكابرهم وبعث بهم إلى الإسكندرية فسجنهم بها وقتلهم، وفرق جميع الأويراتية على الأمراء، فاستخدموهم وجعلوهم من جندهم، فصار أهل الحسينية لذلك يوصفون بالحسن والجمال البارع، وكان للناس فى نكاح نسائهم رغبة.. إلخ».



الفصل الثالث
العـــــلاقات
بين المماليك والصليبيين فى عهد بيبرس

١ - لويس التاسع فى سوريا :

خرج الملك لويس التاسع من دمياط يجر أذيال الخيبة والفشل، وصحبه فى خروجه مائة جندى فقط كانوا هم البقية الباقية من حملته التى وفد بها إلى مصر والتى كانت تضم ثمانين ألف مقاتل .

ولم يتجه لويس إلى وطنه فرنسا بل آثر الذهاب إلى فلسطين ، فقصد إلى مدينة عكا ووصلها فى مايو سنة ١٢٥٠م بعد أن سمح لأخوته ومعظم رجاله بالسفر إلى فرنسا ، وحملهم الرسائل إلى ملوك أوربا يطلب فيها نجدة ومددًا حربيًا عله يستطيع أن يحرز نصر جديدا فى الشام يمسح به وصمة الفشل والهزيمة التى لحقت به فى مصر .

وقد أقام لويس فى فلسطين أربع سنوات ، وهو السنوات الأولى من حكم الدولة الجديدة فى مصر والشام وهى دولة المماليك ، وكان النزاع وقتذاك على أشده بين المماليك والأيوبيين. وقد أراد زعيم الأيوبيين الملك الناصر صاحب حلب أن يستغل فرصة وجود الملك المعز أيبك. ولكن لويس كان قد اختار الإقامة فى فلسطين لتحقيق أهداف أخرى كان فى مقدمتها أن يعمل على تنفيذ المعاهدة المعقودة بينه وبين المماليك، وأن يحاول أن يصلح فى هدوء ما أحدثته هزيمة المنصورة، ولم يكن لويس قد نسى بعد مرارة ما ذاقه على أيدى المماليك، ولهذا لم يكن على استعداد أن يشتبك معهم فى معركة جديدة .

وهو إلى هذا كله كان يعلم أنه قد ترك فى مصر عشرة آلاف أسير من رجاله ، وأن حياة هؤلاء الأسرى ستكون لا محالة معرضة للخطر لو أنه دخل فى معركة جديدة مع المماليك. لهذا آثر لويس أن يقف مؤقتًا على الحياد بين الأمويين والمماليك، بل وحاول أن يستغل الموقف لتعديل شروط المعاهدة المعقودة بينه وبين المماليك .

وكللت جهوده بالنجاح ، واستجاب المعز أيبك لرغباته، ووافق فى مايو سنة ١٢٥٢م على إطلاق سراح عدد من كبار قواده الأسرى ، وعلى التنازل عن بقية الفدية المطلوبة من لويس، وذلك مقابل أن يتعهد الملك لويس بالتعاون مع السلطان أيبك على منه الملك الناصر صاحب حلب من التقدم نحو مصر أو الإغارة عليها .

وفى هذا الوقت كان الخطر المغزلى يقترب بخطوات سريعة نحو الخلافة العباسية، وبدأ الخليفة المستعصم يدرك أمام هذا الخطر الداهم أنه لابد من توحيد القوى الإسلامية المجاورة لتقف إلى جانبه فى محنته المقبلة ، ولهذا أرسل فى سنة ١٢٥٣م رسولاً من قبله يسعى لعقد الصلح بين الملك الناصر صاحب حلب والمعز أيبك سلطان مصر، وقد وفق الرسول فى مهمته ، وعقد الصلح بين الملكين فى أبريل سنة ١٢٥٣م، وبذلك خابت آمال الملك لويس فى أن يجد فرصة لتحقيق آماله الصليبية أو لاستعادة بيت المقدس .

وأخيرًا وصلته الأخبار من فرنسا تحمل نبأ وفاة والدته الملكة بلانش، وكانت سيدة حازمة ماهرة استطاعت أن تدير شئون الحكم فى فرنسا كوصية على العرش طيلة مدة غياب ابنها الملك لويس فى الشرق، ولهذا رأى لويس أن من واجبه الإسراع بالعودة إلى وطنه وخاصة أنه كان قد فقد الأمل فى تحقيق أى هدف من أهدافه فى فلسطين ، وفى وصول أى نجدة حربية من أوربا، ولكنه سعى قبل سفره حتى وفق لعقد صلح مع الملك الناصر صاحب حلب لمدة ثلاث سنوات تبدأ من فبراير ١٢٥٤م، ولم يكن فى حاجة لعقد صلح جديد مع سلطان مصر، لأن الصلح القديم كان لا يزال قائمًا ومدته عشر سنوات تبدأ من تاريخ عقده وهو سنة ١٢٥١م .

وأبحر الملك لويس من عكا فى أبريل سنة ١٢٥٤، ووصل إلى فرنسا فى يوليو من نفس السنة .

٢ - بيبرس يواجه الخطرين الصليبى والمغولى :

وتولى بيبرس عرش مصر بعد مقتل قطز ، وبعد توليته اتضح للرأى العام وللعالم الخارجى أن دولة المماليك قد مرت بالتجربة بنجاح ، وأنها قد استقرت على قواعد ثابتة ، أنها تستطيع أن تبقى فى الحكم، وخاصة بعد الانتصار الباهر الذى أحرزته فى عين جالوت ضد أكبر قوة مقاتلة فى الشرق وقتذاك وهى المغول .

وبدأ بيبرس يعيد النظر فى سياسة المهادنة التى اتبعها المماليك قبله نحو الصليبيين، ورأى أنها سياسة ألجأت إليها الضرورة حتى لا يضطروا لمواجهة الخطرين المغولى والصليبى فى وقت واحد ، ولم تعد به الآن حاجة إلى مهادنة الصليبيين بعد أن بعد الخطر المغولى عن مصر والشام، وخاصة أنه كان على علم بالمحاولات التى بذلها المغول والصليبيون للتحالف معا ضد القوى الإسلامية الأيوبية ثم المملوكية، وقد سبق للبابا إنوسنت الرابع أن أرسل رسلا من قبله إلى المغول لإقناعهم بعقد حلف صليبى مغولى للقضاء على المسلمين فى الشام ومصر. وسار الملك لويس التاسع على نفس النهج، وجرت بينه وبين المغول اتصالات لتحقيق هذا الهدف. وأرسل الخان جغطاى بن جنكيز خان اثنين من رجاله إلى الملك لويس أثناء مقامه فى جزيرة قبرص قبل إبحاره إلى دمياط يعرضان عليه التحالف ضد المسلمين، ورحب لويس بهذا العرض. غير أن

الهزيمة الكبرى التى منى بها لويس فى مصر وضعت حدًا لمشروع التحالف الصليبى المغولى، وعلى العكس من هذا استطاع السلطان قطز أن يعقد صلحًا مع الصليبيين كان من أهم العوامل التى ساعدته عى الانتصار على المغول فى عين جالوت .

ولهذا نجد أن بيبرس قد رسم لنفسه بمجرد التغلب على مشاكله الداخلية -- خطى تهدف إلى معالجة مشكلتى العباسيين والمغول فى وقت واحد حتي لا يدع فرصة للتقرب أو التحالف بين الفريقين .وقد بدأ بيبرس بمواجهة الخطر الصليبى أولاً ، وفى هذا دليل واضح على مبلغ إحساسه بخطر الصليبيين وبخطر ما قد يحدث نتيجة لتحالفهم مع المغول، ولهذا اتجه أول ما اتجه إلى مركز الدعوة لهذا الحلف المغولى، أى إلى أنطاكية، فإن صاحبها بوهمند السادس كان ممن أيدوا سياسة التحالف مع المغول منذ أيام عين جالوت .

ولكن بيبرس لم يقدم على مهاجمة الصليبيين إلا بعد أن اختط لنفسه خطة واضحة تدل على ما كان يمتاز به من ذكاء خارق ومواهب سياسية فذة .

كانت هذه الخطة تتلخص فى عقد سلسلة من التحالفات مع كل القوى الإسلامية والمسيحية المحيطة به وبالصليبيين لتحقيق هدفين :

أولهما - أن يمنع هذه القوى أن ترسل أو تسمح بمرور أى مدد إلى الصليبيين .

وثانيهما - أن يستعين بهذه القوى لمنع أى تحالف بين المغول والصليبيين، ولإيقاف جيوش المغول إن فكرت فى التقدم لمساعدة الصليبيين .

٣ - مهارة بيبرس الدبلوماسية :

ووفق بيبرس فى تنفيذ خطته وعقد سلسلة من المعاهدات والاتفاقات الودية مع ميخائيل باليولوجس ، إمبراطور الدولة البيزنطية –، ومع منفرد هوهنشتاوفن - إمبراطور الدولة الرومانية الغربية وملك صقلية –، ومع الجمهوريات الإيطالية، ومع بركة خان زعيم مغول القنجاق، ومع سلطان سلاجقة الروم فى آسيا الصغرى .

أما الإمبراطورية البيزنطية فقد كانت لها سياسة تقليدية نحو الصليبيين منذ أن عاث جنود الحملة الصليبية الأولى فسادًا فى أراضيها أثناء مرورهم بها وهى سياسة مبنية على العداء والترقب .

أما بيت هوهنستاوفن فقد كانت تربط بينه وبين حكام مصر الأيوبيين صداقة طويلة مستمرة منذ أيام فردريك الثانى والملك الكامل محمد. وقد وضعت المعاهدة التى عقدت بينهما حدًا للحملة الصليبية السادسة، وقد تجددت هذه الصداقة أيام الملك الصالح نجم الدين أيوب، وكان

فردريك هو الذى أرسل رسولاً من قبله متخفيًا فى زى تاجر ليحمل إلى الصالح أنباء حملة لويس التاسع وإبحارها قاصدة مصر .

وقد سار منفرد بن فردريك على نفس السياسة فرحب بسفير بيبرس إليه، ولم يكن هذا السفير إلا المؤرخ المعروف جمال الدين بن واصل مؤلف كتاب (مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب) .

وأما بركة خان فقد كان – وهو الملك المسلم – الصديق الحميم لبيبرس ، كما كان العدو اللدود لمغول فارس، وفى إمكانه أن يقف لهم بالمرصاد فيمنعهم من التقدم لمساعدة الصليبيين لو حاولوا ذلك .

٤ – سفارة ابن واصل إلى الإمبراطور منفرد :

ودراستنا للسفارة التى أرسلها بيبرس إلى الإمبراطور منفرد بن فردريك الثانى – إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة وصاحب الصقليتين – تلقى أضواء جديدة واضحة على ما كان يمتاز به السلطان الملك الظاهر بيبرس من كفاءة سياسية ومقدرة دبلوماسية، وتشرح الأسس الهامة التى أقام عليها بيبرس سياسته الخارجية .

أرسل بيبرس فى أوائل عهده سفارة إلى الإمبراطور منفرد بن فردريك الثانى، وكان على رأس هذه السفارة جمال الدين بن واصل مؤرخ الدولة الأيوبية، ومن العجيب أن الأستاذ كاهن Cahen ذكر فى كتابه (سوريا الشمالية فى عصر الحروب الصليبية) أن ابن واصل أرسل فى سفارته هذه فى سنة ٦٦٣هـ (١٢٦٥م) دون أن يعين المرجع الذى أخذ عنه، وإن كان أبو الفدا قد ذكر فى كتابه (المختصر فى أخبار البشر) أنه أرسل إلى منفرد فى سنة ٦٥٩هـ، وأما ابن واصل نفسه فقد حدد الشهر والسنة التى سافر فيها، فقال إنه سافر فى شهر رمضان سنة ٦٥٩هـ (أغسطس سنة ١٢٦٠م)، غير أنه لم يشر بكلمة واحدة إلى غرض هذه السفارة أو إلى أعضائها الذين صحبوه، إو إلى المدة التى قضاها فى إيطاليا، بل اكتفى بأن عين المدينة التى أقام بها وهى مدينة (برليتا Barletta) إحدى مدن جنوبى إيطاليا، وذكر أنه اجتمع مرارًا بالإمبراطور منفرد، ووصفه بأنه كان (متميزًا محبًا للعلوم العقلية) .

وأشار ابن واصل إلى أهمية مدينة (لوجارة Lucora) معسكر المسلمين فى قلب جنوبى إيطاليا، قال : (توجهت رسولاً إلى منفرد من السلطان الأعظم الملك الظاهر ركن الدين بيبرس فى شهر رمضان سنة تسع وخمسين وستمائة . فأقمت عنده مكرمًا بمدينة من مدائن انبوليه (Naples) فى البر الطويل المتصل ببر الأندلس يقال لها (برلت Barletta) ، واجتمعت به مرارًا، فوجدته متميزًا محبًا للعلوم العقلية يحفظ عشر مقالات من كتاب إقليدس فى الهندسة، وبالقرب من البلد التى كنت بها نازلاً مدينة تسمى (لوجارة) (Lucera) أهلها كهلم مسلمون من

أهل جزيرة صقلية، وتقام الجمعة فيها ، ويعلن فيها بشعائر الإسلام . وهى على هذه الصفة من عهد أبيه الإمبراطور، وكان قد شرع فى بناء دار علم بها ليشتغل فيها بجميع أنواع العلوم النظرية، وأكثر أصحابه الذين يتولون أموره الخاصة مسلمون، ويعلن فى معسكره بالآذان والصلاة) .

بهذه الكلمات القليلة أرخ جمال الدين بن واصل لسفارته إلى منفرد، فأهمل الإشارة إلى أمور كثيرة كان يعنينا أن نعرفها ، غير أن ما قاله – رغم اختصاره – هام جدًا ، وذلك لأنه يتضمن حقائق ثابتة عن منفرد، وعن مدينة لوجارة، وعن دار العلم التى كان يزمع منفرد إنشاؤها.

وهذه الحقائق تتفق تمامًا وما ذكره المؤرخون الغربيون ، فقد ذكرت هذه المراجع أن منفرد كان صورة من أبيه من حيث عنايته بالعلوم واشتغاله بها، وذكرت أيضًا أن فردريك الثانى لما تولى حكم الصقليتين عانى كثيرًا من جماعات المسلمين الذين كانوا يعتصمون بمناطق صقلية الجبلية، ويهددون بغاراتهم المتتابعة الأمن والسلام فى الجزيرة، فسعى فردريك حتى نقل هذه الجماعات – وكان عددها يقرب من ١٦٠,٠٠٠ مسلم – إلى الصقلية الشمالية – أى جنوبى إيطاليا –، وخصص لإقامتهم مدينة (لوجارة Lucera) ، وجعلها مستعمرة عسكرية، وبنى بها الحصون والقلاع ، واتخذ من جنود هؤلاء المسلمين مماليك وحرسًا خاصًا به طالما استعان بهم فى حروبه الداخلية وخاصة ضد البابا، وعهد إلى غير الجنود بفلاحة الأرض وزراعتها ، وقنع بأن فرض عليهم نوعين من الضرائب : ضريبة على الأرض terragium نظير تمتعهم باستغلالها، وضريبة على الرؤوس وكان يسميها باسمها العربى: الجزية Jisya نظير تمتعهم بحريتهم الدينية .

فاتخذت هذه الجالية الإسلامية لها قاضيًا خاصًا بها ، ورئيسًا منها هو قائد حاميتها، وفقهاء يفقهون الأفراد فى أمور دينهم، وبنت المساجد، وكانت - كما يقول ابن واصل - (تقام الجمعة فيها، وتعلن فيها شعائر الإسلام) .

وتسمية ابن واصل للجامعة التى كان منفرد يزمع إنشاءها (دار العلم) لها دلالتها عند التأريخ العلاقات الثقافية بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى، وذلك أن إيطاليا كانت من أولى الممالك الأوربية التى أنشئت فيها الجامعات، وأول جامعة أنشئت بها هى جامعة نابلى، أنشأها فردريك الثانى فى سنة ١٢٢٤م (٦٢٢هـ) ، والاسم الذى كان يطلق على الجامعة فى إيطاليا هو Sapienza ، والترجمة الحرفية لهذا اللفظ هى (دار الحكمة أو دار العلم) ، وهو مصطلح عرفه الشرق منذ القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) ، وكانت أعظم وأشهر دار حكمة أو علم عرفها الشرق الإسلامى هى دار الحكمة التى أسسها الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله فى القاهرة فى سنة ٣٩٥هـ ، فنص ابن واصل يحمل الدليل القوى على أن الأوربيين أنشأوا

جامعاتهم فى العصور الوسطى على نمط دور العلم أو الحكمة بالمشرق، بل لقد أطلقوا عليها نفس الاسم الذى كان يطلقه المشارقة على هذا النوع من معاهدهم .

ذكر ابن واصل أن الإمبراطور منفرد كان (متميزًا محبًا للعلوم العقلية) ويبدو أنه كان كأبيه يعرف العربية ويتكلمها، فقد روت المراجع التى ترجمت لابن واصل أنه ألف لمنفرد - أثناء إقامته القصيرة فى صقلية - رسالة فى المنطق سماها (الرسالة الأنبرودية) أو (نخبة الفكر فى المنطق) ، ويبدو كذلك أن منفرد - وقد كان بلاطه عامرًا بعلماء المسلمين - قد أعجب بجمال الدين بن واصل وبثقافته المنوعة ، فكان يدعوه إلى مجالسه الخاصة حيث كانت تدور المناقشات العلمية المختلفة بين الحاضرين، وبديهى أن منفرد وابن واصل كانا يساهمان فى هذه المناقشات بأوفر نصيب .

فقد روى الصفدى فى ترجمته لابن واصل التى أوردها فى كتابه (نكت الهميان فى نكت العميان) . أن الأنبرور قال مرة لجمال الدين بن واصل :

(يا قاضى : أنا عندى ما أسألك عنه ، لا فقه ولا عربية ، وسأله ثلاثين سؤالاً فى علم المناظر، فبات تلك الليلة وصبحه بالجواب عنها) .

وهذه رسالة أخرى فى علم البصريات تضم إلى مؤلفات ابن واصل وإن كان مؤرخوه لم يشيروا إليها عند إحصاء مؤلفاته لأنها بقيت عند منفرد بصقلية، ويبعد أن يكون ابن واصل قد احتفظ بنسخة منها لنفسه، فالصفدى يذكر أنه ألفها فى ليلة واحدة، وأنه لم يرجع - عند وضعها - إلى أى كتاب فى هذا الموضوع ، لأنه لم يصحب معه فى هذه الرحلة كتبًا، وإنما كان مرجعه الوحيد معارفه الخاصة المختزنة، فقد قال الصفدى تعقيبًا على الخبر السابق :

(فصلب الأنبرو على وجهه وقال : هكذا يكون قسيس المسلمين، لأن القاضى لم يكن معه كتب فى تلك السفارة ، وإنما أجابه عن ظهر قلب) .

وقد روى الصفدى أيضًا قصة مجلس آخر من المجالس التى جمعت بين منفرد وابن واصل فى إيطاليا ، وخلاصتها أن منفرد أحضر فى هذا المجلس (الأرغل) وأمر فضرب به ، يقصد بهذا أن يستخف ابن واصل بالطرب ليرى مبلغ ما تؤثر فيه الموسيقى، وصدى هذا التأثير فى حركاته وأقواله ، وقد كان ابن واصل عالمًا بالموسيقى، ودرس أصولها النظرية فى الكتب التى قرأها، فقد قال فى مقدمة شرحه لقصيدة ابن الحاجب .

(لأن وزن الشعر أمر طبيعى وأنه يحتاج إليه من أراد أن يشتغل بعلم الموسيقى، قلت: وعلم الموسيقى أحد أنواع العلم الرياضى، وهى: الهندسة، والأرنماطيقة، والهيئة الفلكية، وعلم الموسيقى. ثم الموسيقى فنان، أحدهما علم النغم ، والثانى علم الإيقاع، والنظر فى علم العروض مشاكل للنظر فى علم الإيقاع.. إلخ) .

وابن واصل كان أيضًا عصبى المزاج، سريع التأثر، فقد روى الصفدى أنه كان يحتد فى البحث ويحمر وجهه، ورجل هذا مزاجه لابد أن يستخفه الطرب، وتسرى النشرة فى نفسه إذا سمع اللحن الجميل، ولكن ابن واصل لم ينس فى هذا المجلس أنه عالم دينى وسفير عظيم، فاضطر أن يكبت شعوره وأن يصطنع الوقار، فما تحرك ولا اهتز، وتثبت ، وما أظهر لهم خفة لذلك ولا طربا) .

يقول الصفدى : (إلا أنه لما قام وجدوا تحته نقط دم، يقال إنه بقى يحك كعبيه فى الأرض إلى أن أدماها ، فعظم أمره عند الأنبرو) . والصفدى ينقل كثيرا من أخبار ابن واصل عن تلاميذه، فهو قريب عهد منه، فلابد أن لهذه القصة أساسًا من الصحة، وإن كان يبدو أن الخيال والمبالغة قد عملا عملهما فى صياغتها .

هذه هى قصة سفارة جمال الدين بن واصل إلى الإمبراطور منفرد، جلونا ما اكتنفها من غموض بالقدر الذى أمدتنا به المراجع المختلفة. وفى مقدمتها ابن واصل نفسه، وبقيت ناحية واحدة نرى أنه من الواجب مناقشتها . وهى لم أرسل ابن واصل فى هذه السفارة.. ؟

لم يشر ابن واصل ولم تشر المراجع المعاصرة والمتأخرة إلى أسباب إرسال هذه السفارة، غير أنه يبدو أننا لو استعرضنا أحداث مصر التاريخية فى تلك السنة لأمكننا أن نفترض أسباب لهذه السفارة .

فى سنة ٦٥٨هـ، ولى الظاهر بيبرس عرش مصر ، والظاهر مملوك من مماليك الصالح نجم الدين أيوب، أى أنه لم يكن فى يوم من الأيام سليل بيت مالك، فليس غريبًا إذن أنه كان يحس أن توليه العرش أمر غير طبيعى ولم تهيأ النفوس فى العالم الإسلام لقبوله بعد .

حقيقة لقد سبقه على عرش مصر منذ موت المعظم نورانشاه أفراد من غير البيت الأيوبى، ولكن أول هؤلاء الأفراد - وهو الملك المعز عز الدين أيبك - لم يكن مملوكًا، بل كان واحدًا من أمراء الصالح نجم الدين، وقد قضى السنوات القليلة التى حكم فيها مصر فى نضال مستمر مع ملوك بنى أيوب بالشام لأنهم اعتبروه مغتصبا للعرش .

وبعد مقتله خلفه على العرش ابنه الصغير الملك المنصور نور الدين على، وقد تولى أتابكيته سيف الدين قطز، غير أن قطز سرعان ما عزل الطفل الصغير وتولى هو عرش مصر فى سنة ٦٥٧هـ، وكانت حجته فى هذا العزل أنه لابد من وجود ملك كبير على عرش مصر يستطيع أن يحشد الجهود للقضاء على الخطر المغولى الذى كان يهدد شمال الشام فى تلك السنة، وخرج قطز فعلا لملاقاة التتار فى سنة ٦٥٨هـ وانتصر عليهم انتصاره الحاسم فى موقعة عين جالوت، غير أن بيبرس اغتاله أثناء عودته إلى مصر، وخلفه على عرش مصر.

والظاهر بيبرس يعتبر بحق أول سلطان حقيقى من سلاطين المماليك . وكان بيبرس ملكًا طموحًا يريد أن يوطد الأمور لاستقرار عرشه، بل ولإبقاء هذا العرش فى أسرته ، ولم يكن من الممكن أن تثبت أركان هذا العرش إلا إذا اعترف به ملكًا على مصر : ملوك بنى أيوب فى الشام، والمجتمع الإسلامى، وملوك الدول المسيحية ذات الصلات الوثيقة بمصر .

أما الفريق الأول فلم يكن قد بقى منه ملك ذو خطر ، لأن أقواهم وصاحب الصدارة فيهم، وهو الناصر صاحب حلب قد قضى عليه التتار عند إغارتهم على حلب سنة ٦٥٨هـ ، وبقى بعد موته من ملوك بنى أيوب الملك المغيث عمر صاحب الكرك، والملك الأشرف صاحب حمص، والملك المنصور صاحب حماة . وقد دان الأول والثانى بالولاء للظاهر بيبرس منذ اللحظة الأولى . وعندما حاول المغيث أن يتمرد بعد ذلك على بيبرس وأن يتصل بالتتار للاستعانة بهم، خرج إليه بيبرس فى سنة ٦٦١هـ وقبض عليه وقتله . أما المنصور صاحب حماة فقد سار على سياسة أسرته التقليدية ، وهى مصافاة القائم بالأمر فى مصر أيا كانت شخصيته ، يؤيد هذا قوله المشهور : (أنا مع من يملك الديار المصرية كائنا من كان) .

وأما للفريق الثانى وهو الرأى العام فى المجتمع الإسلامى فقد ضمن بيبرس ولاءه واعترافه به ملكًا باحتضانه أحد أفراد العباسيين الفارين إلى مصر ومبايعته بالخلافة سنة ٦٥٩هـ ، وانابة هذا الخليفة الجديدة (المستنصر) له فى حكم مصر وممتلكاتها باسمه .

بقى الفريق الثالث ، وهو الممالك المسيحية ذات الصلات الوثيقة بمصر، وكان يعنيه العناية كلها أن يوثق صلاته بها لأسباب كثيرة منها : أن الخطر المغولى كان لا يزال قريبًا من شمال الشام، ومنها أنه كان يريد أن يركز جهوده للقضاء نهائيًا على القوة الصليبية فى الشام، ولإبعاد الخطر المغولى كان لابد له من مصادفة إمبراطورية القسطنطينية ، وللتوفر على محاربة الصليبيين كان لابد له من مصادفة إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة حتى لا يمد صليبى الشام بالمعونة الحربية أو المادية ، وإلى هذا كله فإن اعتراف هذين الإمبراطورين بالوضع الجديد فى مصر تقوية لعرش بيبرس .

فنحن إذا فهمنا الأمور المحيطة بالظاهر بيبرس فى سنة ٦٥٩هـ - وهى السنة الأولى من تولية العرش - على هذا الوضع أدركنا فى سهولة لم أرسل فى هذه السنة بالذات سفارتيه إلى إمبراطور القسطنطينية وإلى الإمبراطور منفرد بن فردريك ، وأدركنا بالتالى الغرض من إرساله سفارة بن واصل إلى منفرد ، فهو - كما نرجح - أرسل هذه السفارة ليخطره بتوليه عرش مصر، وليجدد بينه وبينه صلات الود والصداقة التقليدية بين مصر والصقليتين، وذلك تحقيقًا لأغراضه العامة السالف ذكرها .

هذه هى الناحية الغامضة الهامة التى تكتنف تاريخ هذه السفارة ، قد أوضحناها استنتاجًا . أما النواحى الأخرى التى تحدد الطريق الذى سلكه ابن واصل فى سفره وعودته، وأعضاء السفارة الذين صحبوه، ونتيجة هذه السفارة، فبقيت كلها غامضة .

ولكنا نستطيع أن نرجح أن ابن واصل لم يقم فى إيطاليا طويلاً بل عاد فى أواخر سنة ٦٥٩هـ أو أوائل سنة ٦٦٠هـ على أكثر تقدير، وأن نتيجة السفارة كانت مرضية ومحققة للغرض منها، وأن سفارة أخرى أرسلت من مصر إلى منفرد فى أوائل سنة ٦٦٠هـ وكانت تحمل معها هدايا كثيرة ، منها : زرافة، (وجماعة من أسرى التتار المأخوذين فى نوبة عين جالوت بخيولهم التترية وعدتهم) ، لأن ابن واصل أشار إلى عودة هذه السفارة إلى القاهرة فى شعبان سنة ٦٦٠هـ، قال :

(وفى شعبان من هذه السنة ، وهى سنة ستمائة وستين ، وصل الأمير سيف الدين الكردى، والقاضى أصيل الدين خواجا الذين توجها رسلا إلى الإنبرور ملك الفرنج بهدية من عند السلطان ، وفى جملة الهدية زرافة، وصحبتهما كتابه، فذكروا أن الإنبرور اهتم بها اهتماما عظيما، وتجمل لها تجملا عظيما، وأعرضت عليه الهدية، فأعجبته الزرافة إعجابا عظيما . ورأى من التحف ما أذهله وملأ عينيه، وقرأ عليه كتاب السلطان إحدى عشرة مرة وهو يردده ويتفهمه، وأحسن إلى الرسل غاية الإحسان، وجهز رسولاً وهدية فيما بعد، وكانت هدية لا تحصى ، ولما وصل رسل الظاهر المذكورين كان فى جملتهم نفران من البحرية قد أساء الأدب ، فلما شاهدهما السلطان أمر بتأديبهما لأنه بلغه سوء اعتمادهما، فسيرهما إلى قلعة الجزيرة يعملان فيها مقيدين) .

وعقب ابن واصل إلى هذا بقوله : (وفى ذلك تأديب وحسن سياسة وردع للمعتدى ، وحفظ لناموس السلطنة، وإقامة لحرمة المملكة) .

٥ - نضال بيبرس ضد الصليبيين :

كان بيبرس - فى جهاد المستمر ضد الصليبيين - يريد أن يتشبه بصلاح الدين . ولئن كان صلاح الدين قد انتصر انتصاره الحاسم فى (حطين) ثم توج هذا الانتصار باستعادة الإمارة الصليبية الكبرى (بيت المقدس) ، فإن بيبرس كان يعمل دائمًا للقضاء على الإمارتين الباقيتين : إمارة انطاكية وإمارة طرابلس، وتطهير سواحل الشام تطهيرًا تامًا من بقايا الصليبيين .

وقد قضى بيبرس عشر سنوات كاملة (٦٥٩هـ - ٦٦٩ هـ = ١٢٦١م - ١٢٧١م) فى نضاله هذا ضد الصليبيين، فلم تمض سنة من هذه السنوات دون أن يهاجم فيها مدينة من مدنهم أو يخضع حصنًا من حصونهم ، وقد تخللت هذه السنوات فترات قليلة كان يشغل فيها بيبرس

بمحاربة المغول، أو حشيشية الشام ، أو مملكة أرمينية الصغرى ، تلك القوى التى كانت تعوق جهوده الحربية أو تعمل للتحالف مع الصليبيين ضده .

وقد لقى بيبرس فى حملاته ضد الصليبيين مشاق ومتاعب جمة ، غير أنه كان المنتصر دائمًا، فلم ينهزم قط فى معركة من معاركهم، ولم يمتنع عليه حصن من حصونهم .

(أ) الاستيلاء على مدينة صفد :

وبدأ بيبرس سنة ٦٦١هـ (١٢٦٣م) بمحاصرة عكا .

ولكن أول حملاته القوية كانت هى الحملة التى قادها بنفسه لمهاجمة مدينة قيسارية فى سنة ٦٦٣هـ (١٢٦٥م) فكتب له النصر واستولى على المدينة . وفى السنة التالية قاد جيشًا كبيرًا واتجه إلى قلعة صفد وحاصرها . فلم يمض إلا ثلاثة أسابيع حتى اشتد الضيق بالفرنج وعجزوا عن المقاومة ، فاستسلموا وسقطت القلعة، وأمن بيبرس من بها، وسمح لهم أن يخرجوا سالمين، ويرحلوا إلى عكا بشرط أن لا يصحبوا شيئًا من سلاحهم، ولكنهم نقضوا العهد كعادتهم ، فحملوا معهم أثناء مغادرتهم القلعة أسلحتهم ومتاعهم، بل صحبوا معهم بعض أسرى المسلمين بعد أن ألبسوهم ملابس الصليبيين ، وعلم بيبرس بما فعلوا فغضب غضبة شديدة، وأمر بالقبض على حامية القلعة جميعًا وأن تضرب أعناقهم على تل قريب من صفد .

واستولى بيبرس على مدينة صفد بعد أن خرب قلعتها، وهى مدينة قوية لها أهميتها الحربية. وفى السنة التالية أعاد بناءها، واشترك بنفسه مع العمال فى بنائها، وسجل انتصاره فى نص تاريخى هام رقم على أسوارها .

(ب) سقوط أنطاكية :

وفى سنة ٦٦٦هـ (١٢٦٨م) غادر بيبرس القاهرة على رأس جيش كبير واتجه نحو الشام، وهدفه إمارة أنطاكية ومدينتها. فاستولى فى طريقه على عدة مدن أهمها يافا وشقيف أرنون، ثم قصد حماة واتخذها قاعدة لهجومه، فقسم جيشه إلى فرق ثلاث، وتولى هو قيادة إحداها، ثم بدأ الزحف نحو أنطاكية، وظل محاصرًا لها إلى أن عجزت عن المقاومة واستسلمت .

وعقد لبيبرس ألوية النصر ، وعمت الأفراح أركان العالم العربى لاستعادة الإمارة اللاتينية الثالثة أنطاكية، ولم يبق إلا الإمارة الأخيرة وهى إمارة طرابلس .

(جـ) حملة لويس التاسع على تونس :

وفى سنة ١٢٧٠م وصلت الأخبار إلى بيبرس فى الشام تنبىء أن لويس التاسع - ملك فرنسا - يعد حملة صليبية جديدة لمهاجمة الشرق الإسلامى، فأسرع بيبرس بالعودة إلى مصر يترقب

أخبار هذه الحملة، ويعمل على تحصين الثور وترميم أسوارها وإقامة الاستعدادات الحربية. فقد حسب بيبرس أن لويس سيتجه بحملته إلى مصر انتقامـًا للهزيمة التى منى بها فى حملته السابقة. والواقع أن الشرق الأدنى الإسلامى كان هدف لويس فى حملته الجديدة، ولكن أخاه شارل دانجو - ملك صقلية - استطاع أن يقنعه بتحويل الحملة إلى هدف آخر هو تونس، وذلك ليتمكن من تحقيق بعض مشروعاته ضد الدولة البيزنطية، وليعمل على تأمين ملكه فى صقلية بالاستيلاء على تونس ولنشر المسيحية فيها.

ووصل لويس بحملته إلى تونس، ولكنه أصيب بالحمى، ومات بعد قليل. وخلفه على قيادة الحملة أخوه شارل، ولكنه عجز عن تحقيق أى نصر، واضطر إلى عقد مفاوضات مع ملك تونس انتهت بالاتفاق على الجلاء، وأن يدفع ملك تونس مبلغًا من المال، أن يحصل الفرنسيون على بعض الامتيازات فى تونس.

(د) المفاوضات مع طرابلس وعكا :

وقد اتجه بيبرس فى سنة ١٢٧١م وبعد أن اطمأن لنتيجة حملة لويس إلى الشام ليستأنف النضال ضد الصليبيين. وبدأ بمهاجمة مدن إمارة طرابلس، وتوالت انتصاراته. وبدأت طرابلس تحس أنها الهدف التالى بعد أنطاكية، فأرسلت إلى بيبرس تطلب المفاوضة والصلح.

واستجاب بيبرس لطلبها، وأرسل وفد لمفاوضة صاحبها، ويقال بأن بيبرس نفسه رافق سفراءه متخفيـًا فى زى خادم ليتعرف أثناء مقامه فى مدينة طرابلس على أحوالها وتحصيناتها تمهيدا لحصارها فيما بعد.

وزلزت كذلك مدينة عكا - البقية الباقية من إمارة بيت المقدس - وأرسلت تطلب المفاوضة للصلح كذلك، وقدم رسلها إلى دمشق لمفاوضة السلطان، واتفق الطرفان على عقد الصلح بشرط أن تكون عكا مناصفة بين بيبرس والصليبيين، ولكن هذه الاتفاقية حين عرضت على صاحب عكا لم تلق منه قبولاً.

(هـ) محاولة غزو قبرص :

كانت هذه البقايا الصليبية تتلفت حينذاك نحو أوربا تنشد المساعدة علها تستطيع درأ خطر بيبرس، ولم تجد ملبيًا غير ملك جزيرة قبرص هو الثالث لوزنيان الذى كان قد ضم بقايا إمارة بيت المقدس فى عكا إلى ملكه، وقد أرسل بعض المساعدات الحربية إلى الصليبيين فى الشام، كما أرسل بعض قراصنته يعيثون فسادًا بسفنهم فى موانى مصر والشام، ولذلك أسرع بيبرس فى سنة ١٢٧٥ بإعداد أسطول من سبع عشرة سفينة، وأرسله لتأديب جزيرة قبرص وملكها. غير أن رياحا عاصفة هبت على الأسطول فحطمته وألقت به على ميناء ليماسول، وقد أرسل

هيو إلى بيبرس رسالة يتباهى فيها بانتصاره على أسطول مصر، فأجابه بيبرس برسالة أخرى هون فيها من قيمة هذا النصر، وأشاد فيها بانتصاراته هو الكثيرة الحاسمة على قوى الصليبيين وحصونهم فى الشام، وفيها يقول: (وما العجب أن يفخر بالاستيلاء على حديد وخشب، والاستيلاء على الحصون الحصينة هو العجب.. وما النصر بالهواء مليح، وإنما النصر بالسيف هو المليح.. إلخ).

وقد شغل بيبرس خلال السنوات القليلة الباقية من حياته بالنضال ضد المغول الذى انتهى بانتصاره الحاسم عليهم فى سنة ١٢٧٦م ودخوله قيصرية عاصمة سلاجقة الروم فى آسيا الصغرى. وعاد بعد هذا النصر إلى دمشق حيث توفى بها فى سنة ١٢٧٧م.

بيبرس البطل والأسطورة:

وقد كان لانتصارات بيبرس المتتالية أثرها القوى فى نفوس الشعب العربى فى مصر والشام، فأعجب ببطولة بيبرس وأكبره، وراح يتغنى بشجاعته وانتصاراته، وألف أديب مصرى مجهول (سيرة الظاهر بيبرس)، فكانت ملحمة للبطولة، وظلت قرونًا يتغنى بها الشعراء والقصاص فى المقاهى ومجالس السمر ليثيروا النخوة والعزة والبطولة فى نفوس الشعب.

البـــاب الثـالث

عصر المنصور قلاوون

الفصـــل الأول : أولاد بيبرس وتولية قلاوون العرش.

الفصل الثانى : العلاقات بين المماليك والمغول فى عهد قلاوون.

الفصل الثـالث: العلاقات بين دولة المماليك والصليبيين فى عهدى قلاوون وابنه الأشرف خليل.

الفصل الرابع : إصلاحات ومنشآت قلاوون.

الفصل الأول

أولاد بيبرس

وتولية قلاوون العرش

دولة المماليك ونظام وراثة العرش:

لم يكن المماليك يؤمنون بمبدأ الوراثة، فهم كانوا يؤمنون بالمساواة لأنهم جميعًا نشأوا نشأة واحدة، ولم يل سلاطينهم الأول الملك عن طريق الميراث، بل كانت العلاقات التى تربط بينهم تقوم أساسا على علاقتين: علاقة الأستاذية، وعلاقة الخشداشية أو الزمالة، فولاء الأمير المملوكى كان لأستاذه أولا، ولخشداشه ثانيا.

ومع هذا فقد شذت عن هذه القاعدة أسرة قلاوون وحاولت أن تصطنع نظام الوراثة فى الحكم، وقد نجحت إلى حد كبير فى إقامة هذا النظام، فحكم قلاوون وعدد من أولاده وأحفاده مدة تنيف عن القرن (١٢٧٩م - ١٣٨٢م) حقيقة كان يثور بعض أمراء المماليك ضد عدد من أفراد أسرة قلاوون ويبعدونهم عن الحكم ويلون السلطنة مكانهم، ولكن هؤلاء المبعدين من آل قلاوون كانوا لا يلبثون أن يعودوا إلى العرش.

وقد يرجع السبب فى نجاح أسرة قلاوون فى إقامة نظام الوراثة إلى أن اثنين من سلاطينهم وهما قلاوون وابنه الناصر محمد قد حكمًا مدة طويلة استطاعا فى أثنائها أن يدعما: بشخصيتيهما القريتين وأعمالهما المجيدة قواعد النظام الوراثى بحيث استطاع أفراد الأسرة رغم صغر سن الكثيرين منهم أن يلوا الحكم فى سلسلة متتابعة إلى نهاية دولة المماليك البحرية.

لقد حاول من قبل كل من أيبك وبيبرس أن يورث ابنه العرش، ولكن التجربتين انتهيتا بالفشل، وقد يرجع هذا إلى أن كلاً من الرجلين شغل بحروبه الكثيرة عن أن يفرغ لتربية ابنه التربية الصالحة التى تؤهله للسلطنة، فكان المنصور على بن المعز أيبك - كما سبق أن أسلفنا - يحيا حياة كلها لهو ولعب، فلم يستطع أن يسمو إلى مستوى الأحداث عندما هدد المغول حدود مصر، واضطر المظفر قطز أن يبعده، وأن يمسك هو بمقاليد الأمور، وأن يتقدم الجيوش لصد العدو المغير.

أولاد بيبرس:

وشبيه بهذا ما حدث بعد موت الظاهر بيبرس.

لقد سعى بيبرس أثناء حياته لتوريث السلطنة لابنه بركة خان، وفى سنة ١٢٦٢م أعلنه وليًا لعهده، وأخذ له الأيمان والمواثيق من كبار أمراء الدولة، ومع هذا كان بيبرس يعتقد أن الملك لن يصفو لابنه - بعد موته - فى يسر وسهولة، وأيقن أن كبار أمراء المماليك لم يبايعوا ولده بولاية العهد إلا رهبة وخوفًا منه، وتوقع أن يقوموا بتدبير المؤامرات بعد وفاته لاغتصاب الملك منه، لهذا لجأ قبيل وفاته فى سنة ١٢٧٥م إلى تزويج ابنه بركة خان من ابنة كبير الأمراء المماليك وقتذاك سيف الدين قلاوون، ليضمن بذلك ولاء هذا الأمير الكبير، وبالتالى ولاء أمراء المماليك الصالحية لابنه.

ومع هذا فإن بيبرس لم يطمئن نفسًا، فقد كان أعرف الناس بأمراء المماليك وأساليبهم ورأيهم فى نظام ولاية العرش، ولهذا ترك لابنه قبل وفاته وصية أوصاه فيها باستعمال العنف ضد كل من يقف فى طريقه، فقال فى وصيته لابنه: «إنك صبى، وهؤلاء الأمراء الأكابر يرونك بعين الصبى؛ فمن بلغك عنه يشوش عليك ملكك وتحققت ذلك عنه فاضرب عنقه فى وقته، ولا تعتقله، ولا تستشر أحدا فى هذا، وافعل ما أمرتك به وإلا ضاعت مصلحتك».

وتوفى بيبرس سنة ١٢٧٧م، وبايع القضاة والأمراء الملك السعيد بركة خان سلطانًا، ودعى له على المنابر فى مصر والشام، وكان عمره وقتذاك تسعة عشر عامًا، وهى سن كانت تمكنه من تحمل أعباء السلطنة لو أنه احتذى حذو والده، ولكنه كان شابًا مستهترًا يميل لمجالس اللهو والشراب، وقد أدى سلوكه هذا إلى ازدياد نفوذ مماليكه الخاصكية مما أغضب كبار الأمراء الصالحية وفى مقدمتهم صهره قلاوون والأميران سنجر الحلبى وسنقر الأشقر، وتآمروا فما بينهم على عزله، وعزلوه فعلاً فى سنة ١٢٧٩م، أى بعد سنتين من حكمه، وعينوه نائبًا على الكرك تنفيذا لرغبته.

وكان قلاوون ماكرًا فلم يشأ أن يلى السلطنة مباشرة بعد عزل بركة خان عندما عرضها عليه بقية الأمراء، بل قال لهم «أنا ما خلعت الملك السعيد طمعًا فى السلطنة، والأولى ألا يخرج الأمر عن ذرية الملك الظاهر». والواقع أن قلاوون كان يخشى بأس كبار الأمراء وبأس المماليك الظاهرية، وأعلن زهده فى الملك إلى أن يتمكن من تدبير الأمر وتمهيد الطريق، فرشح الأمير سلامش - الابن الثانى لبيبرس - لتولية العرش، ووافق الأمراء، وعين سلامش، وكان طفلاً صغيرًا فى السابعة من عمره، فعين قلاوون أتابكًا له، كما عين الأمير عز الدين الأفرم نائبًا للسلطنة.

لم يحكم سلامش سوى مائتى يوم استطاع قلاوون فيها أن يعمل على تدعيم مركزه، فاقتنع الأمراء أن يقسموا له يمين الطاعة باعتباره أتابكا للسلطان، واتخذ كل الوسائل التى تجعله

شريكًا فعليًا فى الحكم، فأمر أن يخطب باسمه واسم سلامش معا على المنابر، وأن يضرب اسمه مع اسم السلطان على السكة، فنقشت السكة وعلى أحد وجهيها اسم سلامش وعلى الوجه الآخر اسم قلاوون، كما عمل خلال هذه الأيام على استمالة كبار الأمراء إليه، وتعيين مماليكه وأنصاره فى النيابات والوظائف الكبرى.

عند ذلك فعل قلاوون ما فعله قطز من قبل، فجمع الأمراء وأعلنهم أن الملك لا يصلح مع وجود طفل قاصر على العرش، وقال لهم: «قد علمتم أن المملكة لا تقوم إلا برجل كامل»، فوافقه الأمراء على رأيه، وعزل سلامش، وأبعد إلى الكرك ليكون قريبًا من أخيه بركة، أما خضر الابن الثالث لبيبرس فقد عين نائبًا على حصن الشوبك.

تولية قلاوون العرش:

وعين الأمير قلاوون الألفى (وسمى كذلك لأنه اشترى بألف دينار) سلطانًا فى سنة ١٢٧٩م، ولقب بالملك المنصور.

كان قلاوون - كزميله بيبرس - واحدًا من المماليك البحرية الصالحية، وقد أسهم فى الأحداث التى صاحبت قيام دولة المماليك، فخرج من مصر مع المماليك البحرية الذين رحلوا إلى الشام عندما اشتدت وطأة عز الدين أيبك على البحرية بعد مقتل أقطاى، ثم عاد إلى مصر مع بيبرس ليقدم المعونة إلى قطز عند إعداد جيشه لمقاتلة التتار، وكانت له جهود محمودة فى حروب المماليك ضد المغول فى عهد بيبرس.

ثورة سنقر الأشقر:

ورغم كل هذه المآثر، ورغم كل الجهود التى بذلها قلاوون لتمهيد الطريق قبل أن يلى السلطنة. فإن الملك لم يصف له بمجرد توليه العرش، بل قام بعض الأمراء بمحاولات لإقصائه، فقد اعتقد كبار أمراء الصالحية أن لهم أمجادًا حربية لا تقل عن أمجاد قلاوون، وأن لهم مثله الحق فى تولية السلطنة، كما غضب الأمراء الظاهرية لعزل بركة وسلامش ابنى أستاذهم.

من هؤلاء الثائرين الأمير سنقر الأشقر نائب الشام. وقد رفض الاعتراف بسلطنة قلاوون. وأعلن نفسه سلطانًا على الشام، وتلقب بالملك الكامل، وخطب له على منبر الجامع الأموى بدمشق.

أدرك قلاوون خطورة هذا الموقف، وخاصة بعدما علم أن خضرا وسلامش ابنى بيبرس قد انضما إلى سنقر - وكان بركة قد توفى - لهذا آثر أن يستعمل اللين والسياسة، فأرسل إلى سنقر يعاتبه ويستميله ويعده الوعود الطيبة، ولكن سنقر أصر على موقفه. فاضطر قلاوون إلى استعمال

العنف، فأرسل فى سنة ١٢٨٠م حملة إلى الشام استطاعت أن تهزم أعوان سنقر عند مدينة غزة.

عند ذلك اتصل سنقر بأباقا - خان مغول فارس - وحرضه على المسير لغزو الشام، وكان رد قلاوون على هذه المحاولة أن خرج بنفسه إلى الشام، فأدرك سنقر أن لا فائدة من المقاومة، وأرسل إلى قلاوون يطلب الصلح بشروط خاصة قبلها قلاوون. وفى سنة ١٢٨٧م عاد سنقر إلى القاهرة، فعفا عنه قلاوون وأكرمه. وبإخماد هذه الفتنة زالت المتاعب الداخلية، وبدأ قلاوون يركز جهوده لاستئناف الجهاد ضد العدوين التقليديين: الصليبيين والمغول.

الفصل الثانى

العلاقات بين المماليك والمغول

فى عهد قلاوون

انتهز مغول فارس فرصة الاضطرابات التى أصابت مصر بعد موت بيبرس والفتنة التى قامت بعد تولية قلاوون وبدأوا يهددون حدود الدولة المملوكية، لهذا رأى قلاوون أنه لا يستطيع مجابهة الصليبيين والمغول فى وقت واحد، وآثر أن يبدأ بالمغول أولاً، ولهذا جدد الهدنة التى كان بيبرس قد عقدها مع الصليبيين، وليضمن عدم تحالفهم مع المغول أو استنجادهم بقوى أوربية سار على نهج سلفه بيبرس فعقد عدة معاهدات واتفاقيات مع مغول القفجاق، وإمبراطور بيزنطة، وصقلية، وقشتالة، وجمهورية جنوة.

وركز جهوده لمقاتلة المغول، فلم يكد يعلم أنهم وصلوا بجيوشهم إلى قرب حلب حتى أرسل فى سنة ١٢٨٠م حملة استطاعت أن تستولى على بعض المدن المحيطة بحلب، فاضطر المغول إلى الانسحاب محملين بالأسلاب وفى السنة التالية ١٢٨١م أعاد أباقا الهجوم على الشام ووصل بجيشه إلى حماة، فخرجت جيوش قلاوون، وتقابل الجيشان عند حمص، وانتصر الجيش المملوكى، وهزم المغول هزيمة منكرة، وفر أباقا إلى بغداد حيث توفى بعد قليل فى سنة ١٢٨٢م.

وخلف أباقا أخوه تكودار، وكان يدين بالمسيحية، فأعلن إسلامه وسمى نفسه أحمد، وفى عهده بدأت العلاقات تتحسن بين دولة المماليك ودولة مغول فارس، فقد أصبح الإسلام يجمع بين الدولتين والملكين، لهذا بدأ تكودار أحمد بإرسال رسالة إلى السلطان قلاوون أعلن فيها عن رغبته فى خدمة الإسلام وحقن دماء المسلمين وإقامة العلاقات الطيبة بينه وبين إخوانه وجيرانه المسلمين، «فقد وجب التمسك بالعروة الوثقى، وسلوك الطريق المثلى، بفتح أبواب الطاعة والاتحاد، وبذل الإخلاص بحيث تعمر تلك الممالك وتلك البلاد، وتسكن الفتنة الثائرة، وتغمد السيوف الباقرة، وتخلص رقاب المسلمين من أغلال الذل والهوان»، ورد قلاوون على تكودار أحمد برسالة رحب فيها بدعوته، وأعلن فيها استعداده للتعاون على خدمة الإسلام والمسلمين.

غير أن فترة الصفاء هذه لم تعمر طويلاً، فإن اعتناق تكودار الإسلام أثارت غضب أمراء المغول وقوادهم، فثار ضده ابن أخيه أرغون ونجح فى قتله، وولى العرش مكانه فى سنة ١٢٨٤م.

واضطهد أرغون المسلمين فى مملكته وأبعدهم عن مناصب الدولة، وعادت العلاقات بين مغول فارس والمماليك إلى أسوأ مما كانت عليه. وسيقوم بعبء مناضلة المغول أبناء قلاوون، وخاصة خليل والناصر محمد.

أما العلاقة بين قلاوون ومغول القبيلة الذهبية فقد استمرت على ما كانت عليه من المحبة والمودة وتبادل السفارات والهدايا، وقد بلغ عدد السفارات المتبادلة بين الدولتين فى عهد قلاوون أربع سفارات. وكانت الأولى فى سنة ٦٧٩ هـ (١٢٨٠م) من قلاوون إلى منكوتمر، والثانية فى سنة ٦٨٢ هـ (١٢٨٣م) من مانجو خان إلى قلاوون، والثالثة فى سنة ٦٨٣ هـ (١٢٨٤م) من قلاوون إلى مانجو، والأخيرة فى سنة ٦٨٥ هـ (١٢٨٦م) من مانجو إلى قلاوون.

الفصل الثالث

العلاقات بين دولة المماليك والصليبيين

فى عهد قلاوون وابنه الأشرف خليل

تهاوت الإمارات الصليبية الثلاث من قبل على أيدى أبطال الجهاد المسلمين:

- فسقطت إمارة الرها على يد عماد الدين زنكى.
- وسقطت إمارة بيت المقدس على يد صلاح الدين.
- وسقطت إمارة إنطاكية على يد الظاهر بيبرس.

ولم تبق إلا الإمارة الرابعة، وهى إمارة طرابلس التى كان يحكمها أمراء النورمان، وبقيت إلى جانبها بعض فلول الصليبيين فى مدن أخرى متناثرة، وهى:

- بقايا مملكة بيت المقدس وكان مقرها مدينة عكا.
- حصن المرقب ويحكمه فرسان الاسبتارية.
- طرسوس ويحكمها فرسان الداوية.

وسيكون لقلاوون وابنه الأشرف خليل شرف القضاء على هذه البقايا الصليبية جميعًا.

وقد ذكر من قبل أن قلاوون بدأ فور توليه العرش بعقد هدنة بينه وبين الصليبيين، ولم يكد ينتهى من نضاله ضد المغول ويجبرهم على مغادرة أرض الشام والتقهقر إلى ملكهم حتى بدأ يفرغ للصليبيين.

سقوط طرابلس الإمارة الرابعة:

وكان هجومه الأول على حصن المرقب فى سنة ١٢٨٥م، وهو حصن من أقوى حصونهم. وبعد حصار دام ثمانية وثمانين يومًا استسلم أصحاب الحصن من الفرسان الاسبتارية، واتفق على أن تجلو الحامية عن الحصن ويسمح لها بالرحيل إلى عكا.

هذا الهجوم المفاجئ على حصن المرقب، وهذا الانتصار السريع على حاميته أنزلا الرعب فى أفئدة أصحاب الحصون والمدن الصليبية الباقية، فسارع أمير طرابلس بوهمند السابع لمسالمة قلاوون، وكذلك فعلت مرجريت أميرة صور فاشترت الصلح من قلاوون بشروط مهينة، وحذا حذوها ملك أرمينية الصغرى، فاشترى الصلح بجزية سنوية وتعهد فوق ذلك بإخلاء جميع بلده من أسرى المسلمين.

ولم تمض ثلاث سنوات حتى تلقى قلاوون خطابًا من نائبه في الشام ينبئه فيه أن فرنج طرابلس قد نقضوا الهدنة واعتدوا على التجار المسلمين برغم تعهدهم في اتفاقيات الهدنة السابقة ألا يتعرضوا لتاجر أو يقطعوا الطريق على مسافر.

وبدأ قلاوون يستعد للزحف على طرابلس، وخرج من مصر على رأس جيش ضخم حتى وصل إلى طرابلس، فحاصرها تسعة وثلاثين يومًا، وبعد قتال عنيف سقطت طرابلس واستولى عليها قلاوون في أبريل سنة ١٢٨٩م.

سقوط عكا آخر معاقل الصليبيين في الشام:

سقطت طرابلس آخر الإمارات الأربع على يد قلاوون، ولم يبق إلا عكا، البقية الباقية من إمارة بيت المقدس، وقد لجأ إليها وتحصن بها كل الصليبيين الذين فروا من الإمارات الأخرى، فكأنهم بذلك كانوا يعيدون سيرة أسلافهم من الصليبيين الذين فروا أمام صلاح الدين بعد انتصاراته المتلاحقة في حطين وغيرها من المواقع التالية وتجمعوا في مدينة صور.

وسعى هؤلاء إلى حتفهم بأرجلهم، واستعجلوا نهايتهم بانتهاك بعضهم حرمة المسلمين الذين كانوا يعيشون في أمان بالقرب من عكا بمقتضى معاهدة معقودة بين السلطان والصليبيين، وقتلهم جماعة من تجار المسلمين في شعبان سنة ٦٨٩ هـ (أغسطس ١٢٩٠م) فرأى قلاوون أن لا مناص من العمل للإجهاز عليهم والاستيلاء على مدينتهم.

وبدأ قلاوون يعد العدة للزحف على عكا، غير أنه توفي في ذي القعدة من السنة نفسها.

فأخذ ابنه الأشرف خليل على عاتقه إتمام المشروع، وبدأ يستعد لهذه المعركة الحاسمة، ويجمع الجيوش والعتاد والأسلحة من كل مكان في مصر والشام.

ونودي في الجامع الأموي بدمشق بالاستعداد لغزو عكا وتطهير الشام نهائيًا من الصليبيين، واشترك الأهالي مع الجند في جر المجانيق.

وخرج الأمير حسام الدين لاجين نائب الشام بجيشه من دمشق.

وخرج الملك المظفر بجيشه من حماة.

وخرج الأمير سيف الدين بلبان بجيشه من طرابلس.

وخرج الأمير بيبرس الدوادار بجيشه من الكرك.

وفي القاهرة أقام السلطان الملك الأشرف خليل بن قلاوون احتفالاً دينيًا في القبة المنصورية، دعا إليه القضاة والعلماء والأعيان وحضرته طوائف الشعب، وضج المجتمعون بالدعاء إلى الله أن يكتب النصر للسلطان، ثم خرج خليل بجيشه من القاهرة.

واجتمعت هذه الجحافل الزاحفة من كل مكان عند أبواب عكا فى ربيع سنة ١٢٩١م ومعـها العتاد والسلاح ومدفعية ضخمة تتكون من اثنين وتسعين منجنيقا.

واشتد الحصار ودام ثلاثة وأربعين يومًا، وأحـس فرنـج عكـا بـالضيق الشـديد وعجـزوا عـن المقاومة فاستسلموا، وسقطت عكا فى أيدى العرب بعد أن لبثت فى أيدى الصليبيين مائـة عـام كاملة.

وسرعان ما تساقطت المدن الصليبية القليلة الباقية كما تتساقط أوراق الشجر، فسقطت صور، ثم سقطت صيدا، وتبعتهما بيروت وعثليث وأنطرطوس.

وعاد الأشرف خليل إلى عاصمة ملكه القاهرة، فاحتفلت المدينـة المجيـدة باسـتقباله احتفـالاً باهرًا، وأقيمت الزينات ورفعت الأعلام فى كل مكان، ودخل السلطان المدينة وفى ركابـه عـدد كبير من أسرى الفرنج المقيدين فى الأصفاد، والجنود المنتصرون يحملون أعـلام الأعـداء منكسـة ورؤوس القتلى على أسنة الرماح.

وهكذا اختتمت حلقة من حلقات الاستعمار الأوربى، وطرد من عكا آخر جندى صليبى بعـد نضال طويل وكفاح مستمر مرير، بـدأه عمـاد الديـن زنكـى، وشـارك فيـه جماعـة مـن الأبطـال المغاوير: نور الدين محمود، وصـلاح الديـن، وبيـبرس، وقـلاوون، ثـم كـان التطـهير علـى يـد الأشرف خليل بن قلاوون.



الفصل الرابع

إصلاحات ومنشآت قلاوون

لم تطل مدة حكم السلطان قلاوون ، فقد حكم أحد عشر عاما (٦٧٨هـ - ٦٨٩هـ = ١٢٧٩م - ١٢٩٠م) ومع هذا فقد أثبت جدارة ممتازة فى معالجة مشاكله الخارجية، واستطاع أن يتابع سياسة سلفه بيبرس، وقاد الجيش المقاتلة العدوين التقليديين : المغول والصليبيين، وانتصر على المغول فى حمص واسترد طرابلس من الصليبيين.

ولم تشغله هذه الجهود الحربية عن الاهتمام بأمور البلاد الداخلية، فقد قام بعدة إصلاحات، وأقام فى القاهرة منشآت عمرانية كثيرة. أما إصلاحاته فقد كانت منصبة كلها على الجيش باعتباره الأداة الفعالة للدفاع عن الدولة، فعني بتنظيمه، وضم إليه طائفة جديدة من الجند معظمهم من الجراكسة، وأسكنهم أبراجًا جديدة فى القلعة، ولذا سموا بالبرجية أو الجراكسة، واستطاع هؤلاء البرجية أن يكونوا وحدة متماسكة متعاونة كان لها أثرها فى توجيه الأحداث التاريخية بعد وفاة قلاوون إلى نهاية دولة المماليك البحرية حيث استطاعوا أن يستولوا على السلطنة ويكونوا دولة جديدة هى دولة المماليك البرجية .

ومن أهم المنشآت والمبانى التى أقامها قلاوون فى القاهرة القبة العظيمة التى دفن فيها، والمدرسة، والبيمارستان، ولا زالت هذه المبانى الفخمة الجميلة موجودة حتى الآن فى شارع النحاسين بالقاهرة .

ولم يكن بيمارستان قلاوون أول مؤسسة علاجية عرفتها القاهرة بل سبقته مؤسسات مشابهة، وأول بيمارستان بنى فى مصر الإسلامية أنشأه أحمد بن طولون فى مدينة الفسطاط .

ثم أنشأ الفاطميون فى القاهرة خزانة الأشربة لصرف الأدوية للمرضى والكشف عليها، وقد أحالها صلاح الدين إلى بيمارستان، وذكر الرحالة ابن جبير أنه رأى بمصر ثلاث بيمارستان من إنشاء صلاح الدين : الأول بالإسكندرية وكان ملحقاً بالمدرسة الجامعة التى بناها صلاح الدين هناك، والثانى بمدينة القاهرة، والثالث بمدينة مصر (الفسطاط) .

أما البيمارستان الذى أنشأه قلاوون ، والذى لا زالت بقاياه تعرف حتى اليوم باسم مستشفى قلاوون . فقد كان أعجوبة فى زمنه حتى لقد قال عنه الرحالة ابن بطوطة: (يعجز الواصف عن محاسنه، فقد كان مقسمًا إلى أربعة أقسام متخصصة : قسم للحميات، وقسم للرمد، وقسم للجراحة، وقسم لأمراض النساء، وخصص لكل مريض فراش خاص به، كل ما يحتاجه من

(التخوت والطراريح والمخدات واللحف والملاءات). وألحق بالمستشفى عدد من الأطباء المتخصيين للإشراف على علاج المرضى، وعدد من الصيادلة لتركيب الأدوية، وذلك بالإضافة إلى الفراشين والفراشات الذين كانوا يقومون على خدمة المرضى وغسل ثيابهم وتنظيف المستشفى، وألحق بالمستشفى كذلك مطبخ لإعداد الطعام للمرضى.

ولم يقصر العلاج على طبقة معينة ، بل وقفه السلطان على (الملك والمملوك والكبير والصغير والحر والعبد) ، ولم يكن يسمح للمريض بمغادرة المستشفى إلا بعد أن يتم شفاؤه ، وعند خروجه كان يصرف له كسوة وتقدم له معونة مالية[1] .

وامتدت خدمات المستشفى إلى المرضى فى منازلهم، فكان يرتب لهم كل ما يحتاجون إليه من أغذية وأشربة وأدوية، كما كان يشرف على ذوى الأمراض الخفيفة الذين يترددن عليه للكشف عليهم أو لطلب الدواء، أى أنه كان به قسم يشبه ما نسميه اليوم بالعيادة الخارجية .

---

(١) انظر وصف البيمارستان فى : النويرى ، نهاية الأرب ، جـ ٢٩ .

الباب الرابع

عصر الناصر محمد بن قلاوون

الفصل الأول : الأشرف خليل بن قلاوون .

الفصل الثانى : الناصر محمد سلطاناً .

١ - السلطنة الأولى للناصر محمد .

٢ - السلطان كتبغا .

٣ - السلطان لاجين .

٤ - السلطنة الثانية للناصر محمد .

٥ - سلطنة بيبرس الجاشنكير .

٦ - السلطنة الثالثة للناصر محمد .

الفصل الثالث : إصلاحات الناصر محمد ومنشآته .

الفصل الرابع : علاقات مصر الخارجية فى عهد الناصر محمد .

الفصل الأول

الأشرف خليل بن قلاوون

وقد حاول قلاوون أن يورث العرش لأبنائه ، فأوصى بولاية العهد لأكبر أبنائه وأحبهم إليه علاء الدين على، وأخذ له الإيمان من كبار الأمراء، وقرىء التقليد بتوليته العهد فى قلعة الجبل ، غير أن هذا الأمير توفى بعد قليل، وتردد القول أن أخاه خليلاً دس له السم لتكون ولاية العهد له، وقضى قلاوون بقية حياته حزينًا على ولده. ولم تكن له رغبة فى التوصية بولاية العهد لابنه خليل، فقد كان فى رأيه لا يصلح للملك لقسوته وسوء أخلاقه. وكتب تقليد بولاية العهد لخليل، غير أن قلاوون توفى فى سنة ١٢٩٠م قبل أن يوقع عليه. ويقال إنه كان يتريث ليوصى لابنه الصغير محمد الذى أنجبه من زوجة مغولية .

وكان قلاوون قد أناب ابن خليلاً عنه فى الحكم عندما خرج إلى عكا فى السنة التى توفى فيها، ولهذا أقام خليل نفسه سلطانًا، واضطر الأمراء إلى الاعتراف به. وفى حفلة تنصيبه استدعى صاحب ديوان الإنشاء محيى الدين بن عبد الظاهر وسأله عن التقليد بولايته، فأحضره إليه. فوجده خلوا من توقيع أبيه، فقال للحاضرين : (إن السلطان امتنع أن يعطينى فأعطانى الله) ، وألقى بورقة التقليد على الأرض .

وكان كبار الأمراء عندما عرفوا كره قلاوون لخليل يسيئون معاملته ويثيرون والده دائمًا عليه، ولهذا لم يكد يلى السلطنة حتى راح ينتقم لنفسه ويضطهد أمراء أبيه وأعوانه، فبدأ بالقبض على الأمير طرنطاى نائب السلطنة وقتله وصادر أملاكه، ثم عزل الأمير سنجر الشجاعى عن الوزارة، وولى مكانه أميرًا من أمرائه هو محمد بن السلعوس .

وكثرت حوادث القتل والقبض والمصادرة بتحريض وتشجيع من ابن السلعوس حتى عم الخوف وانتشر الرعب بين كبار الأمراء، ولم يعدأحد منهم يأمن على نفسه .

وبدأت المؤامرات المملوكية التقليدية ، وكان على رأس المؤتمر بن الأمير بيدر نائب السلطنة، واشترك معهم نفر من الأمراء الناقمين منهم: لاجين المنصورى، وقراسنقر، وبهادر المنصورى، وانتهز هؤلاء الأمراء فرصة خروج السلطان خليل للصيد فى مديرية البيحرة عند كوم تروجة (بالقرب من أبى المطامير الحالية) وتبعوه إلى هناك وانقضوا عليه فقتلوه فى ديسمبر سنة ١٢٩٣م ، وبقيت جثة خليل ملقاة فى الصحراء أيامًا إلى أن نقلها والى تروجة إلى القاهرة حيث دفنت بالمدرسة التى أنشأها لنفسه بالقرب من ضريح السيدة نفيسة .

ووقع اختيار المتآمرين على بيدرا ليكون سلطانًا ولقبوه بالملك الأوحد، ولكن لم تكد أخبار مقتل السلطان تصل إلى القاهرة حتى أسرع الأمير كتبغًا بالخروج من القاهرة لمطاردة الجناة، وتمكن فعلا من قتل بيدرا، ثم عاد إلى القاهرة .

ونشأت من جديد مشكلة اختيار السلطان الجديد ، وقامت المنازعات بين كتبغا وسنجر الشجاعي ولم يستطع واحد منهما الغلبة على زميله ، وانتهى الأمر بين الأمراء على اختيار الابن الأصغر لقلاوون (محمد)، ولم يكن اتفاقهم عن إيمان بمبدأ الوراثة، فالمماليك - كما سبق أن ذكرنا - لم يكونوا يؤمنون بهذا النظام من نظم الحكم ، ولكنه كان اتفاقًا مؤقتًا إلى أن ينجلى الموقف ويدبر كل أمير أمره ويجمع أعوانه، ثم يكون الفوز للأقوى .

ولم يكن من الصعب حينذاك على الفائز بالسلطنة أن ينحى عنها هذا السلطان الطفل، غير أن الناصر محمدًا خيب ظن الأمراء فقد حكم بعد ذلك سنين طويلة، حقيقة قد عزل عن السلطنة مرتين، ولكنه كان يعود إلى العرش أقوى مما كان، واستطاع أن يلى السلطنة ثلاث مرات، وأن يقوم بأعمال كثيرة مجيدة خلال مدد حكمه الطويلة، وكان لشخصيته القوية أثر واضح فى تدعيم نظام الوراثة فى بيت قلاوون .

الفصل الثانى

الناصر محمد بن قلاوون سلطانًا

١ – السلطنة الأولى للناصر محمد : (٦٩٣هـ – ٦٦٤ هـ = ١٢٩٣م – ١٢٩٤ م)

كان محمد بن قلاوون فى التاسعة من عمره حين اختير لتولى السلطنة فى سنة ٦٩٣ هـ (١٢٩٣ م)، ولم تدم سلطنته الأولى غير سنة واحدة، ولم يكن له فى خلالها شىء من النفوذ الفعلى لصغر سنة، وإنما استأثر بالسلطان الفعلى عدد من كبار الأمراء فى مقدمتهم الأميران كتبغا نائب السلطنة، وسنجر الشجاعى الوزير، وركزت الجهود فى هذه السنة لتتبع قتلة السلطان خليل، ثم قامت المنافسات الشديدة بين الأميرين كتبغا وسنجر، وانتهت بالتجاء سنجر إلى القلعة ومحاصرة كتبغا له إلى أن تمكن من القبض عليه وقتله.

ووجد كتبغا أن الأحوال لم تهيأ بعد لتوليه السلطنة. فتظاهر بولائه للناصر وأسرة قلاوون، وللتعبير عن ولائه هذا قال لأم الملك الناصر – بعد قتل سنجر: – «والله لوبقى من أولاد أستاذنا (المنصور قلاوون) بنت عمياء ما أخرجنا الملك عنها».

واستصدر كتبغا بعد ذلك من الملك الناصر أمرا بالعفو عن الأميرين لاجين وقرا سنقر (وكانا قد اشتركا مع بيدرا فى قتل خليل) وقربهما إليه، ولكن هذا الإجراء أغضب المماليك الأشرفية (مماليك الأشرف خليل) فثاروا فى القاهرة ونهبوا الأسواق واتجهوا إلى القلعة لمحاصرتها، غير أن جنود كتبغا تمكنوا من الانتصار عليهم.

وبدأ لاجين يحرض كتبغا على إبعاد الناصر والاستيلاء على العرش، وقال له إن الناصر متى كبر لاينقيك، واقتنع كتبغا بهذا الرأى، فجمع الخليفة والأمراء والقضاة وتحدث إليهم فى ضرورة أن يلى السلطنة رجل قوى تهابه الجند وتخشاه الرعية، وضرب لهم مثلاً بثورة المماليك الأشرفية، وقال إنها لم تكن لتحدث لو كان السلطان رجلاً كبيرًا، ثم ختم حديثه بقوله: «لقد انخرق ناموس المملكة، والحرمة لا تتم بسلطنة الناصر لصغر سنه».

واقتنع الحاضرون برأيه ووافقوا على خلع الناصر وتولية كتبغا، فأمر فى الحال بنقل الناصر وأمه من القصر وأسكنهما فى بعض قاعات القلعة، وبذلك انتهت سلطنة الناصر الأولى، وبدأت سلطنة كتبغا.

٢ - السلطان كتبغا :

لم تدم سلطنة كتبغا غير سنتين، وقد بدأ حكمه بتعيين الأمير لاجين نائبا للسلطنة، ولم يكن كتبغا موفقًا فى حكمه، لا لضعف فى شخصيته، وإنما لأسباب خارجة عن إرادته، فقد اقترن عهده بأحداث كثيرة أثارت غضب الشعب وكرهه، وكان من أهمها وصول طائفة من المغول الوافدين، وقصور النيل فى فيضانه، وما نتج عنه من غلاء ومجاعة وانتشار الأوبئة والأمراض.

أما المغول الوافدية وهم طائفة من الأويراتيه الذين سبق أن أشرنا إليهم، فقد رحب كتبغا بمقدمهم لأنه مغولى مثلهم، وأمر عددًا منهم، مما أثار غضب المماليك وحنقهم، وكره الشعب هؤلاء الوافدية كذلك لأن الكثيرين منهم كانوا لايزالون على وثنيتهم لم يعتنقوا الإسلام بعد، فكانوا يخالفون أوامر الدين ولا يصومون شهر رمضان.

وفى نفس الوقت قصر النيل فى فيضانه، فقل الموجود فى الأسواق من القمح والشعير وأصناف المأكولات الأخرى وغلت أسعارها، وعمت المجاعة حتى أكل الناس أبناءهم والميتة من الكلاب والمواشى، وانتشرت كذلك الأوبئة والأمراض وكثر موت الناس حتى كان يخرج من باب من أبواب القاهرة - كما تذكر المراجع - كل يوم ما يزيد على سبعمائة ميت، وتزايد الأمر فصارت الناس تدفن بغير غسل أو كفن، وعجز الناس عن مواراة الأموات فى القبور لكثرتهم وقلة من يحفر لهم.

وحاول كتبغا معالجة الموقف قدر استطاعته، فاستورد القمح من الشام، وفرق الفقراء على المماليك لمساعدتهم، ولكن هذه المحاولات لم تخفف من كره الشعب له، فقد قرنوا بين هذا البلاد الذى أصابهم وبين تولية كتبغا للحكم.

٣ - السلطان لاجين :

وانتهز لاجين - الصديق القديم لكتبغا - الفرصة، وبدأ يأتمر به ويعمل على إبعاده وتولية السلطنة مكانه، ونفذت المؤامرة فى سنة ٦٩٥ هـ (١٢٩٦ م) إذ كان كتبغا فى زيارة للشام وفى صحبته لاجين، وفى طريق العودة إلى مصر انقض لاجين على السلطان يريد قتله، ولكن كتبغا استطاع الفرار والعودة إلى دمشق حيث لجأ إلى قلعتها واحتمى بها.

واستولى لاجين على خيمة السلطان وخزانته، وأسلحته، وجمع الأمراء وتشاور معهم، فوافقوا على توليته بشرط ألا ينفرد برأى دونهم، ولا يسلط عليهم مماليكه أو يتركهم يعبثون بمصالح الغير، فوافق على هذه الشروط وقال لهم: «وأنا واحد منكم ولا أخير نفسى عنكم، ولست موليًا عليكم من مماليكى أحدًا، ولا أسمع فيكم كلامًا أبدًا، ولا يصيبكم ما أصابكم من مماليك العادل (كتبغا)».

فأقسم الأمراء يمين الولاء والطاعة فى المحرم من سنة ٦٩٦ هـ (١٢٩٧ م). أما كتبغا فقد أصدر لاجين بعد ذلك أمرًا بتعيينه نائبًا على قلعة صرخد بعد أن أخذ عليه التعهد بأن لا يكاتب أحدًا أو يشاور أحدًا، وفى عصر سلطنة الناصر الثانية نقل حاكمًا على حماة فظل بها إلى أن توفى فى سنة ٧٠٢ هـ (١٣٠٢ م).

وكان لاجين أصلاً مملوكًا من مماليك السلطان قلاوون، ثم أعتقه، ورقاه إلى أن أصبح أميرًا، وزوجه إحدى بناته، وعينه نائبًا على دمشق، فلما ولى خليل عزله عن هذه النيابة، فأثار هذا العزل الحقد فى نفسه ودفعه إلى الاشتراك فى تدبير المؤامرة لقتله.

غير أنه اتخذ من زواجه من ابنة قلاوون ذريعة لأحقيته فى تولى العرش، ولكى لا يبدو متناقضًا مع نفسه فقد عمل على إبعاد الناصر محمد إلى قلعة الكرك، وأقنعه أنه لم يفعل ذلك إلا رغبة منه فى إعطائه فرصة أثناء مقامه فى الكرك ليكتسب خبرة وتجربة فى شئون الحكم، فإذا بلغ السن التى تؤهله لتولى مقاليد الحكم تنازل له عن العرش وأعاده إليه. ولهذا قال وهو يودعه قبل ترحيله إلى الكرك: «أنا مملوك ومملوك والدك، أحفظ لك الملك، وأنت الآن تروح إلى الكرك إلى أن تترعرع وترتجل (أى تصبح رجلاً) وتتخرج وتجرب الأمور وتعود إلى ملكك».

ويقال أن حسام الدين لاجين كان يحيا – أثناء نيابته فى دمشق -- حياة كلها لهو وانصراف إلى شرب الخمر والبحث عن الملذات، ولكنه تاب عن ذلك كله بعد توليه العرش، وانقلب رجلاً آخر، فأقبل على العبادة، وقرب إليه العلماء، وبذل كل ما يستطيع من جهد لإرضاء الشعب، وحرص على أن يسود العدل بين الناس. وفى عهده عمل الروك الحسامى، وراعى المصلحة عند إعادة توزيع الإقطاعات، وتقرب إلى عامة الشعب، فكان يجالسهم ويشاركهم فى طعامهم، وأصدر كثيرًا من الأوامر للمحافظة على أموال اليتامى. وكان قد نذر أن يقوم بإصلاح جامع ابن طولون أثناء اختفائه فيه بعد مقتل خليل، فوفى بنذره وصرف المبالغ الطائلة على تجديد الجامع.

وكان من حسن طالعه أن علا فيضان النيل، فكثرت المحاصيل، وانخفضت الأسعار، وانقطعت الأوبئة، فزاد حب الناس له، فكانوا يعلنون عن حبهم بالترحيب به والتهليل له كلما خرج بموكبه يشق شوارع القاهرة.

كان من الممكن أن يستقر الملك للاجين بعد أن قام بهذه الإصلاحات، وبعد أن صفت له الأحوال وخلص له حب الشعب، إلا أن نجمه بدأ يأفل عندما وقع فى نفس الخطأ الذى وقع فيه من سبقوه، فقد حنث بالوعد الذى أخذه على نفسه أمام الأمراء عندما اختاروه لتولى السلطنة، فبدأ بتقريب نفر من مماليكه إليه ورقاهم إلى مرتبة الإمارة. وكان أقرب المقربين إليه وأحبهم إلى نفسه مملوكه «منكوتمر» فعينه نائبًا للسلطنة، وأطلق له العنان يتصرف وفق هواه،

فاستبد بالحكم، واستحوز - كما يقول المؤرخ المفضل ابن ابى الفضائل فى كتابه النهج السديد- : «على عقل مخدومه واستولى عليه، وحجبه عن الخاصة والعامة».

ولهذا اشتد كره العشب والجند والأمراء جميعًا لمنكوتمر، وخاصة لأنه كان رجلاً جادًا فظًا عابسًا وكره الناس بالتالى السلطان لاجين لأنه هو الذى سلطه عليهم، ثم زاد حنقهم عليه عندما أراد أن يعين منكوتمر وليًا لعهده.

وشعر منكوتمربكره الناس والأمراء له، فأراد أن ينتقم من الأمراء ويبعدهم عن طريقه، فأشار على السلطان بأن يبعد أمراء مصر إلى الشام، وأن ينقل أمراء الشام إلى مصر، واقتنع السلطان بمشورته، وأخذ يعد العدة لتنفيذ هذا المشروع، فأحس الأمراء بالخطر، وراحوا يفكرون من جهتهم فى القضاء على منكوتمر والسلطان معا.

وفى يوم الخميس العاشر من ربيع الآخر من سنة ٦٩٨ هـ (١٢٩٩ م) انقض أحد المتآمرين على السلطان وهو يؤدى صلاة العشاء، فضربه بسيفه، وأكمل عليه بقية الأمراء، ثم اتجهوا إلى منكوتمر فاجهزوا عليه كذلك، وبذلك انتهت سلطنة لاجين التى لم تعمر غير سنتين وشهرين وثلاثة عشر يومًا.

٤ -السلطنة الثانية للناصر محمد (٦٩٨هـ - ٧٠٨ هـ - ١٢٩٨م - ١٣٠٨ م)

بقتل لاجين خلا عرش مصر، وقد اجتمع أمراء المماليك للتشاور، فتقدم الأمير كرجى - قاتل لاجين - ورشح زميله امير طغجى للسلطنة، كما رشح نفسه لنيابة السلطنة، وخاطب الأمراء بقوله:

«يا أمراء: أنا الذى قتلت السلطان، وأخذت بثأر أستاذى (فقد كان من مماليك الأشرف خليل)، والملك الناصر الصغير ما يصلح، لا يكون السلطان إلا لهذا - وأشار إلى الأمير طغجى - وأكون أنا نائبه، ومن خالف فدونه»، واستل سيفه مهددًا.

ويبدو أن الأمراء لم يرحبوا بهذا الترشيح، فقد قابلوا هذا الحديث بالوجوم والسكوت، ثم انفض المجلس دون الوصول إلى اتفاق.

وبدأ الخلاف والمنافسات، وثارت الفتنة فى البلد، وانتهت بقتل الأميرين كرجي وطغجى، ولم يكن بين الأمراء من هو أهل لثقتهم جميعًا، فاستقر الرأى أخيرًا بينهم على استدعاء السلطان الشرعى الناصر محمد من سجنه بالكرك ليلى السلطنة.

وسافرت وفود الأمراء إلى الكرك وأبلغت الناصر قرارها، فتردد أول الأمر خوفًا من أن تكون وراء هذه الدعوة مكيدة، فلما تأكد من صدق الأمراء رحب الدعوة، وفرح فرحًا زائدًا، وخرج من الكرك فى موكب حافل، وسار الأمراء والأعيان بين يديه إلى أن صعد قلعة الجبل، وجلس على

العرش، وجدد الأمراء له البيعة، وأصدر الخليفة التقليد بإنابته عنه فى الحكم وتعيينه سلطانًا، وكان عمره حينذاك أربعة عشر عامًا.

وكان أول قرار اتخذه الناصر أن عين الأمير سلار (التترى) نائبًا للسلطنة، والأمير بيبرس الجاشنكير (الشركسى) أستادارا (وكان صاحب هذه الوظيفة يشرف على كل ما يتصل بمطبخ السلطان وطعامه).

وكان الناصر فى هذه المرة لايزال صغيرًا لم يصل بعد سن البلوغ أو النضوج، ولهذا بدأت الأحداث تشير إلى أن الأميرين سلار وبيبرس سيلعبان نفس الدور الذى سبق أن لعبه كتبغا ولاجين، ولكن هذا النزاع المرتقب تأجل قليلاً، فإن الناصر لم يكد يبدأ سلطنته الثانية حتى وصلته النذر بأن المغول يهددون حدود دولته فى الشام، فقد خرج غازان إيلخان فارس بجيوشه يريد الانتقام من المماليك والأخذ بثأر الهزائم السابقة.

وأمر الناصر بإعداد الجيوش، وتولى قيادتها بنفسه، وخرج متجهًا إلى الشام وفى صحبته الأميران سلار وبيبرس، وتقابل الجيشان عند مدينة حمص، وكان النصر فى هذه الموقعة للمغول، وهزم المماليك هزيمة شنعاء وولوا الأدبار، وتألم الناصر ألمًا شديدًا لهذه الهزيمة، وعادت فلول الجيش إلى مصر لتعيد تكوين جيش جديد.

وفى أثناء هذه الاستعدادات وصل وفد من قبل غازان يعرض الصلح ويحمل رسالة فى هذا المعنى، واستجاب الناصر لهذه الدعوة، وحمل الرسل رده على خطاب غازان وفيه يقول: إذا جنح الملك للسلم جنحنا لها.. والمشاهد لتصافينا يتلو قوله تعالى :

﴿ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾[1]،

وينتظم إن شاء الله شمل الصلح أحسن انتظام، ويحصل التمسك من الموادعة والمصافاة بعروة لا انفصال ولا انفصام، وتستقر قواعد الصلح على ما يرضى الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام.

ولكن يبدو أن طلب غازان للصلح كان خدمة يقصد بها كسبا للوقت للتعرف على أحوال العدو، فإن الأخبار لم تلبث أن وصلت من حلب تنبىء بأن غازان يستعد للمسير إلى الشام، وأن أهالى دمشق قد تملكهم الذعر ولجأوا إلى المسجد الجامع يضجون بالدعاء إلى الله أن ينقذهم من هذا الكرب العظيم.

وأصدر الناصر أوامره بإعداد الجيوش، وخرج الجند فى هذه المرة يدفعهم الحماس والرغبة فى الانتقام لمسح عار الهزيمة السابقة، وتقابل الجيشان فى هذه المرة فى (مرج الصفر) بالقرب من دمشق. وأظهر سلار وبيبرس شجاعة فائقة، وأبلى الجيش المصرى كله بلاء حسنًا، وعقدت

---

(١) سورة آل عمران الآية : ١٠٣.

له ألوية النصر، واتجه الناصر بعد المعركة فى كوكبة من فرسانه إلى دمشق فخرج أهلها جميعًا يستقبلونه استقبال المنتصر، ويضجون بالدعاء لـه والشكر لله سبحانه وتعالى، وزينت المدينة كلها، وظلت الأفراح قائمة إلى أن وافى عيد الفطر، فصلى الناصر صلاة العيد فى دمشق ثم اتخذ طريقه إلى مصر.

وفى مصر أقيمت الزينات أفخم ما تكون، وأقيمت القلاع وأقواس النصر من باب النصر إلى قلعة الجبل، و فرشت الطريق بالشقق الجريرية، وتقدم السلطان يحيط به أمراؤه وكبار رجال الدولة والمصريون حوله يهللون ويكبرون، وفى ركابه أسرى المغول مقيدين فى السلاسل، وقد علقت فى رقابهم رؤوس القتلى، ويتبعهم ألف رأس أخرى محمولة على ألف رمح، ونحو ألف وستمائة أسير آخرين يحملون طبولا مخرقة.

ولم يكد الناصر يستقر فى عاصمة ملكه، ولم تكد حفلات الفرح بالنصر تهدأ حتى تواترت الأخبار أن الأعراب قد استشرى خطرهم وعاثوا فساد فى أنحاء الصعيد ومدنه، وزاد استهتارهم بالمماليك وبالدولة، فمنعوا الخراج، وهجموا على السجن وأخرجوا المساجين، وأعلنوا عصيانهم، وأن المماليك عبيد خوارج، وأنهم هم احق بملك البلاد، وقطعو الطرق، ونهبوا الناس.

وكان لابد للدولة أن تضع حدًا لهذا العبث، فوضعت خطة ماكرة حكيمة، فأصدرت الأوامر لوالى الجيزة أن يمنع الناس من السفر إلى الصعيد، ثم أشاعت فى البلاد أن الأمراء سيسافرون إلى الشام، وتقرر بعد ذلك أن تخرج أربع فرق من الجيش إلى الصعيد: واحدة إلى البر الغربى، والثانية إلى البر الشرقى، والثالثة تسير فى النيل، والرابعة تتخذ الطريق المألوف الذى يسلكه الناس.

وتحركت هذه الفرق الأربع فى وقت واحد - وعلى قيادتها الأميران سلار وبيبرس - وهى تحمل الأوامر بقتل من تراه من العربان مهما كانت مكانته، ونجحت الخطة، وفوجئ الأعراب بجيوش المماليك تنقض عليهم وتحيط بهم من كل مكان، وتأخذ عليهم السبل إذا ارادوا الفرار أو الالتجاء إلى الجبال، وتخرجهم من مخابئهم، وقتل الأعراب فى كل مكان، واستولت الحكومة على أملاكهم ودوابهم وأسلحتهم، وبذلك انكسرت شوكتهم، وتخلصت الدولة من شرورهم، ولم تقم لهم بعد ذلك قائمة، وأمن الناس فى الصعيد على أرواحهم وأموالهم.

فزع الناصر من هذين الخطرين الخارجى والداخلى وبدأ يحاول - معتزا بانتصاراته - أن يباشر بنفسه شؤون الحكم، ولكنه وجد أن الأميرين سلا وبيبرس يمارسان السلطان الفعلى ويتحكمان فى تصرفاته ويضيقان عليه، فضاق بهما وبتصرفاتهما، فزهد فى الحكم، وقال للأمراء: «إن كان غرضكم فى الملك فما أنا متطلع إليه فخذوه وابعثونى أى موضع أردتم، ثم

تظاهر بأنه خارج للحج، فلما وصل الكرك أعلن أن عدل عن الحج، ورغب في المقام بالكرك، فهي كما قال: «من بعض قلاعي وملكي، وقد عولت على الإقامة بها» وفوجئ الأميران بهذا القرار، فأرسلا إلى الناصر يتهددانه ويطلبان منه العودة إلى القاهرة. ولكنه أصر على موقفه.

٥ - سلطنة بيبرس الجاشنكير :

وخلا العرش مرة ثانية، ولم يكن هناك غير سلار وبيبرس، فتقدم سلار وخاطب الأمراء قائلاً: «والله يا أمراء ما أصلح للملك، ولا يصلح له إلا أخي هذا»، وأشار إلى بيبرس الجاشنكير. فوافق الأمراء على هذا الترشيح، وأعلن بيبرس سلطانًا، وعين سلار نائبًا للسلطنة.

ولم تطل سلطنة بيبرس غير سنة واحدة (١٣٠٨ هـ - ١٣٠٩ م)، ولم تستقر له الأمور خلالها، فقد نقص فيضان النيل وارتفعت الأسعار، ونسب الشعب هذا كله إلى بيبرس، فكرهوه وكرهوا عهده، وخاصة أنه اتبع سياسة العنف في معاملته للناس والأمراء،فقد كان يخشى أن يتصل المماليك بالناصر أو أن يتآمروا على خلعه. وأعلن الشعب عن سخطه بالتظاهر في شوارع القاهرة يرددون قولهم:

«سلطاننا ركين (يقصدون بيبرس لان لقبه ركن الدين)، وناثبنا دقين (يقصدون سلا إذا لم يكن في لحيته غير شعرات قليلة)، يجينا الماء منين، تجيبوا لنا الأعرج (يقصدون الناصر فقد كان به عرج خفيف) يجي لنا الماء يتدحرج».

أما الناصر فإنه لم يقصد بلجوئه إلى الكرك التنازل عن العرش، وإنما أراد أن يمهد للاتصال بأمراء الشام ونوابه لجمعهم حوله والانتصار بهم، ثم مهاجمة مصر لابعاد بيبرس وسلار واستخلاص العرش ثانية لنفسه، فقد كان يصعب عليه أن يصطنع الأنصار وهو في مصر محاط بجيوش بيبرس وسلار ومماليكهما، ولم أنه بقي في مصر ولم يخرج إلى الكرك لتغليا عليه وقتلاه.

وقد نجحت خطة الناصر، واستجاب أمراء الشام لدعوته، وأعلنوا ولاءهم له، والتفوا حوله، بل لقد خرج بعض الأمراء الساخطين من مصر، وانضموا إلى الناصر. عند ذلك خرج الناصر بجنده إلى دمشق فاستقبله أهلها بالحفاوة والترحيب. ودعي له على منابرها.

وكانت الحالة في مصر تزداد كل يوم سوءًا، وسادت بها الفوضى، وضاعت هيئة بيبرس، فجمع الأمراء وتشاور وإياهم في الموقف. فنصحوه بالتنازل عن العرش وأن يكتب إلى الناصر يرجوه العفو. فأمن على رأيهم، وأرسل إلى الناصر كتابًا يسأله فيه العفو وأن يعينه نائبًا على إحدى المدن، وقال في ختامه: «فإن حبستني عددت ذلك خلوة، وإن نفيتني عددت ذلك سياحة، وإن قتلتني كان ذلك لي شهادة». ثم أعلن خلع نفسه من السلطنة وإسقاط اسمه من خطبة الجمعة والعيدين، وكان ذلك بحضور الخليفة والقضاة الأربعة.

٦ - السلنة الثالثة (٧٠٩هـ - ٧٤١ هـ = ١٣٠٩م - ١٣٤١ م)

وغادر الناصر دمشق إلى القاهرة فوصلها فى جمادى الآخرة ٧٠٩ هـ (ديسمبر ١٣٠٩ م) وخرج الناس والأمراء - وفى مقدمتهم سلار - لاستقباله، وزينت القاهرة خير زينة، وضج الناس بالفرح لعودة سلطانهم.

وكان الناصر فى هذه المرة قد جاوز سن الطفولة، فقد كان عمره وقتذاك خمسة وعشرين عاما، وقد صقلته الأحداث وحنكته التجارب، فلم يترك لأحد من الأمراء شيئًا من النفوذ، بل جمع السلطة كلها فى يديه، ورسم خطة للانتقام الهادئ البطئ من كل الأمراء الذين أساءوا إليه، وبدأ بيبرس فأمر بالقبض عليه، فحمل إلى مجلسه وهو مقيد بالحديد. فأخذ يعدد له ذنوبه، فأقر بيبرس بها وسأله العفو والمغفرة، ولكن السلطان أمر بخنقه.

أما سلار فقد طلب من السلطان أن يعفيه من وظيفة نائب السلطنة وأن يعينه حاكمًا على الشوبك، فاستجاب الناصر لطلبه مؤقتًا. وسافر سلار إلى الشوبك، فلما اطمأن واعتقد أن السلطان قد عفا عنه أرسل الناصر فاستدعاه لمقابلته، وعند وصوله إلى القاهرة قبض عليه وأودع السجن فى قلعة الجبل، وصودرت كل أمواله، وكان سلار من أغنى الأمراء محبًا لجمع المال، فقد بلغت ثروته المصادرة أكثر من خمسين حملاً من الذهب والفضة والجواهر واللجم المفضضة والأقمشة المزركشة.. الخ.

وقد أمر الناصر أن يترك سلار سجينًا دون طعام أو شراب، وبعد مرور سبعة أيام اشتدت به آلام الجوع والعطش، وصار يصرخ فى طلب الطعام والماء، وعند ذلك فتح باب السجن وقدمت إليه أطباق ثلاثة: ففرح بها وتقدم فكشف عنها، فأصيب بخيبة أمل كبيرة، إذ وجد الطبق الأول مليئًا بالذهب والثانى مليئًا بالفضة، والثالث مليئًا باللؤلؤ والجواهر. فاشتد ألمه، ومات بعد قليل بعد أن أكل أحد أصابعه كما تقول بعض الروايات، ودفن فى التربة التى كان قد أنشأها لنفسه بالقرب من جامع ابن طولون.

وهكذا فعل الناصر بكل الأمراء الذين أساءوا إليه فى الماضى أو الذين حاولوا التآمر ضده بعد عودته، فقد كانت عينه فى هذه المرة يقظة ترقب من ب عيد، فإذا رأى بادرة خروج أو تمرد قضى عليها فى الحال.

الفصل الثالث

إصلاحات الناصر محمد ومنشآته

وطالت مدة حكم الناصر فى سلطنته الثالثة فبلغت اثنين وثلاثين عامًا نعمت فيها مصر بالهدوء والاستقرار، وبلغت الذروة من التقدم والرخاء والعمران والنفوذ. فقد بدأ الناصر بإلغاء كثير من المكوس، والمقصود بالمكوس فى اللغة الضرائب غير الشرعية التى استحدثها الولاة والسلاطين لسد الحاجات الطارئة للدولة، ودراسة هذه المكوس وأنواعها وأسمائها تعطينا فكرة واضحة عن الحياة الاجتماعية فى عصر المماليك، فمن المكوس التى ألغاها الناصر: (مكس ساحل الغلال)، و(مقرر السجون) . و(مقرر طرح الفراريج) ، و(مقرر الأقصاب) ، و(مقرر المعاصر) ، و(مقرر رسوم الأفراح) ، و(حقوق القينات)[1] .

وكان إلغاء هذه المكوس جزءًا من سياسته التى رسمها لإضعاف الأمراء، فقد كان الأمراء أول المنتفعين بها. ومن الأعمال الكبرى التى قام بها الناصر وتعتبر كذلك جزءًا من هذه السياسة : الروك الناصرى . والروك كلمة من أصل قبطى تطلق على عملية قياس الأرض ومسحها وتقدير ما عليها من خراج، وهى تقابل ما نسميه فى الوقت الحاضر بعملية فك الزمام .

وكانت عملية الروك تجرى من الناحية النظرية كل ثلاثين سنة، غير أن المراجع تذكر أن البلاد قد ريكت منذ الفتح العربى إلى عهد الناصر محمد سبع مرات فقط.

١ فكان الروك الأول حوالى سنة ٩٧هـ على يد ابن رفاعة والى مصر من قبل الخليفة سليمان بن عبد الملك .

٢ – وكان الروك الثانى سنة ١٢٥هـ على يد عبيد الله بن الحبحاب عامل الخراج فى مصر من قبل الخليفة هشام بن عبد الملك.

٣ – وكان الروك الثالث حوالى سنة ٢٥٣هـ على يد ابن المدبر عامل الخراج من قبل الخليفة المعتز بالله.

٤ – وكان الروك الرابع سنة ٥٠١هـ على يد الأفضل شاهنشاه الوزير الفاطمى ، ولذا سمى بالروك الأفضلى .

٥ – وكان الروك الخامس وهو الروك الصلاحى – على يد صلاح الدين يوسف بن أيوب فى سنة ٥٧٢هـ .

---

(١) راجع الخطط للمقريزى .

٦ - وكان الروك السادس - وهو الروك الحسامى - فى سنة ٦٨٩هـ على يد السلطان حسام الدين لاجين .

٧ - وكان الروك السابع - وهو الروك الناصرى - على يد الناصر محمد بن قلاوون .

وبعد إتمام هذا الروك أعاد الناصر النظر فى تقدير عبرات (إيراد) كثير من الاقطاعات، كما أعاد توزيع هذه الاقطاعات بحيث يحد من قوة الأمراء وسلطانهم .

وكان الناصر شغفًا بالبناء والتعمير ،وفى عهده أقيم كثير من المنشآت العمرانية وبنى عدد كبير من المساجد والخانقاوات .

ومن أهم منشآته فى القاهرة الميدان العظيم على النيل الذى كان يعرف بالميدان الناصرى، وموقعه الآن حى جاردن سيتى بالقاهرة، وقد خصص لسباق الخيل، وكان للناصر شغف عظيم بالخيل واقتنائها وتربيتها .

ومنها القصر الأبلق ، وكان يشرف على الميدان الكبير، وقد أحضر الناصر مهرة الصناع من دمشق ليشتركوا مع زملائهم من المصريين فى بناء هذا القصر وزخرفته. وكانت واجهته مكونة من أشرطة عريضة متوازية ذات لون أسود أو أصفر على التوالى نتيجة لاستخدام نوعين من الصخور لهما هذان اللونان - ولهذا سمى بالأبلق - .

ومنهم الإيوان ، وكان قد بناه والده السلطان قلاوون وجدده الأشرف خليل، فأعاد بناءه الناصر محمد، وأنشأ به قبة عظيمة. ونصب فى صدره سرير الملك وكان مصنوعًا من العاج والأبنوس، وكان موقع هذا الإيوان حيث يقوم مسجد محمد على الحالى فى القلعة .

ومنها مسجد القلعة ، وقد أنشأه إلى جانب القصر والإيوان ، ولا يزال موجودًا حتى اليوم، وله مئذنتان تعتبران من أجمل المآذن فى مصر.

ومنها خانقاه الصرفية التى بناها لقرب من سرياقوس ، وقد عمر ما حولها فيما بعد حتى أصبحت اليوم قرية مستقلة تعرف باسم (الخانكاه) .

وقد قام الناصر بكثير من المنشآت والمشروعات العمرانية خارج القاهرة، من أهمها مشروعه لإعادة حفر خليج الإسكندرية، وكانت الرمال قد طمرته وتعطلت الملاحة به؛ وكان من نتائج تنفيذ هذا المشروع نشاط التجارة فى الإسكندرية وازدياد العمران بها، ونمو الأراضى المنزرعة على ضفتى الخليج بين النيل والإسكندرية .

الفصل الرابع

علاقات مصر الخارجية

فى عهد الناصر محمد

ولقد كان لهذا الاستقرار والرخاء الذى نعمت به مصر فى عهد الناصر محمد ولسياسته الحازمة أثر كبير فى رفع مكانة مصر فى العالم الخارجى، فسعت معظم الدول الإسلامية والمسيحية إلى خطب وده، وعمل هو من جانبه على تحسين علاقاته بهذه الدول وساعده على هذا أن الخطرين الكبيرين اللذين كانا يهددان مصر وهما المغول والصليبيين كان قد انتهى أمرهما .

أما الصليبيون فقد خرجت فلولهم من الشام فى عهد أخيه خليل، واستقرت هذه الفلول فى جزيرة قبرص ورودس، حقيقة قد حاول أصحاب هاتين الجزيرتين العمل على إحياء الفكرة الصليبية، وهاجم القبارصة جزيرة أرواد المقابلة لشواطىء الشام فى عهد الناصر إبان سلطنته الثانية، ولكنه بادر بإرسال أسطول هزمهم وأبعدهم عن الجزيرة .

أما إيلخانات فارس - بعد غازان - فكانوا قد أسلموا وجنحوا للسلم، وعملوا على تحسين العلاقات بينهم وبين الناصر، وساعد على هذا أن بعض أمراء المماليك الخائفين من الناصر كانوا قد فروا إلى بغداد ، فأرسل الناصر عددا من الإسماعيلية الفداوية إلى بغداد لاغتيالهم، فخاف إيلخان بوسعيد وأرسل إلى الناصر يفاوضه لعقد معاهدة صداقة تنص على تسليم هؤلاء الأمراء للناصر، وأن يسلم إليه الناصر كذلك بعض الأمراء المغول الذين كانوا قد فروا من بغداد ولجأوا إلى مصر !

وبعد وفاة بوسعيد قامت المنافسات بين الأمراء، وانقسمت الدولة، واستقل بالعراق السلطان حسن الجلائرى المعروف بحسن بوزرج - أى حسن الكبير - وأسس بها أسرة تعرف باسم الأسرة الجلائرية ، وقد طلب حسن من الناصر أن يمده بالمساعدات الحربية ليستعين بها على حرب فرع الدولة المغولية الآخر بفارس، فوعده الناصر بالمساعدة مقابل أن يخطب باسمه على منابر بغداد، وأن ينقش اسمه على نقودها.

وكذلك استمر الناصر محمد على الصداقة التقليدية مع دولة مغول القفجاق .

وكان الناصر يشرف على الحجاز ويعين أمراء مكة والمدينة، فقد كان الحجاز خاضعا لمصر منذ أوائل العصر المملوكى .

وخطب ملوك بنى رسول فى اليمن للناصر ، وكانوا يخطبون وده ويرسلون إليه الهدايا .

وقد لجأ إلى مصر صاحب تونس أبو زكريا اللحيانى - أحد ملوك الحفصيين - فساعده الناصر على العودة إلى عرشه، فخطب للناصر على منابر تونس.

وقامت علاقات طيبة بين الناصر ودولة بنى قرمان - وهى دولة صغيرة قامت فى جنوب شرقى آسيا الصغرى على أنقاض دولة سلاجقة الروم، وفى عام ٧١٨هـ وصلت إلى مصر سفارة من هذه الدولة تحمل نقودًا ضربت فيها وعليها اسم السلطان الناصر محمد، ورسالة تشير إلى أنهم يخطبون للسلطان على منابرهم.

وقد أكد إحياء الخلافة العباسية فى مصر زعامتها على كل الدول الإسلامية الأخرى، لهذا نجد أن السلطان محمد بن طغلق أحد ملوك الهند يرسل إلى الخليفة العباسى فى مصر - أيام السلطنة الثالثة للناصر - رسلان يطلبون منه أن يصدر تقليدًا بتولية السلطان محمد الملك. وقد أرسل نفس السلطان بعثتين إلى الناصر يطلب منه المساعدة ضد المغول الذين كانوا يهددون ملكه.

وقامت علاقات ود وصداقة بين مصر الدول الإسلامية فى غرب أفريقيا، وهى دول الكانم وبورنو والتكرور، ومر ملك التكرور منسا موسى بمصر فى عهد الناصر محمد - وهو فى طريقه لأداء فريضة الحج - فقوبل بكل إكرام وترحاب.

وكثر وصول السفارات إلى مصر إبان السلطنة الثالثة للناصر من ملوك الدول المسيحية الكبرى، وكلها تخطب وده أو تطلب صداقته أو مساعدته، فوصلت سفارات من البابا، ومن ملك فرنسا، وملك أرجونة، وإمبراطور القسطنطينية، وإمبراطور الحبشة.

فكانت سفارة البابا تطلب من السلطان إيقاف الحرب ضد مملكة أرمينية الصغرى، وأن يحسن معاملة المسيحيين المقيمين فى دولته.

وكانت سفارة ملك فرنسا - شارل الرابع - تهدف إلى تحقيق نفس الغرض إذ كانت تحمل رسالة يرجو فيها الملك أن يشمل الناصر المسيحيين المقيمين فى دولته بعين الرعاية والعدل، وقد رد الناصر عليه ردًا جميلاً ووعد بتحقيق طلبه.

أما سفارة إمبراطورية بيزنطية فكانت تحمل الهدايا للسلطان، والرجاء بأن يحسن معاملة رعاياه المسيحيين، والرغبة فى عقد محالفة دفاعية لإيقاف هجمات الأتراك العثمانيين الذين كانوا يهددون حدود الدولة البيزنطية فى ذلك الوقت.

كال هذا يثبت فى وضوح مبلغ ما وصل إليه الناصر من نفوذ وسلطان فى داخل مصر وخارجها، ولم يكن غريبًا أن يقول المؤرخ ابن إياس فى حديثه عنه:

(وخطب له فى أماكن لم يخطب فيها لأحد من الملوك، وكاتبه سائر الملوك وهادوه وهابوه، وصار جميع مصر فى قبضته).

الباب الخامس

أبناء الناصر محمد وأحفاده
ونهاية دولة المماليك البحرية

١ - بيت قلاوون وتجربة نظام الوراثة .

٢ - أبناء الناصر محمد .

٣ - سنة الفناء أو الوباء الأسود .

٤ - أحفاد الناصر محمد .

٥ - حملة بطرس لوزنيان على الإسكندرية .



الباب الخامس

أبناء الناصر محمـد وأحفـاده

ونهاية دولة المماليك البحرية

١ - بيت قلاوون وتجربة نظام الوراثة :

بلغت دولة المماليك البحرية أوج قوتها داخليًا وذروة عظمتها فـي المجـال الـدولى فـى عصـر الناصر محمد بن قلاوون، وكان لشخصية الناصر وأبيه قلاوون ولطول المدة التى حكمها فيها أثر قوى فى تعلق أمراء المماليك بالأسرة، ولهذا أجمعوا بعد وفـاة النـاصر علـى إبقـاء السـلطنة فـى أبنائه، فولى الحكم فى الأربعين سنة التالية لوفاة الناصر (١٣٤٠م - ١٣٨٢م) إثنا عشر سـلطانًا من أولاده وأحفاده ، ثمانية منهم من أولاده حكموا نحـو العشـرين سـنة، وأربعـة مـن أحفـاده حكموا فى العشرين سنة الثانية .

وقد ولى هؤلاء الأبناء والأحفاد العرش أطفالاً صغارًا، فلم يكن لهم من الأمر شىء ، بل كانت أمور الدولة كلها فى أيدى كبار الأمراء، فشـغلوا بـالمؤامرات والمنافسـات عـن النظـر فـى صـالح البلاد والرعية، فساءت الأحوال الاقتصادية وعمت الفوضى، وزاد الطـين بلـة حدثـان خطـيران وقعا فى تلك الحقبة، أولهما انتشار الوباء الأسود (١٣٤٨م - ١٣٤٩م)، وثانيهما غزوة القبارصة لمدينة الإسكندرية (١٣٦٥م).

وعلى الرغم من ضعف أبناء الناصر وحفدته وصغر سنهم ، وعلى الرغم مـن كـثرة المنازعـات التى نشبت بين أمراء المماليك، فإن أحدًا منهم لم يجرؤ على التقدم لتولية العـرش ووضـع حـد لحكم أسرة بنى قلاوون . ويمكن تفسير هذه الظاهرة بأن أمراء المماليك قنعوا بما فى أيديهم مـن سلطان فعلى وتركوا للسلاطين الصغار من بيت قلاوون المنصـب والاسم، أو أنـهم عجـزوا فعـلاً على أن يقنعوا الرأى العام المعاصر بالتخلى عن بيت قلاوون بعد أن بذل مـا بـذل مـن الجـهود وأدى ما أداه من خدمات لمصر وللسلطنة المملوكيـة وخاصـة فـى عـهدى قـلاوون وابنـه النـاصر محمد .

وهذه ظاهر لها أشباه فى التاريخ ، وخير شبيه لها الخلافة العباسية فى أخريات أيامها فى بغداد، فقد قنع المتسلطون عليها من بويهيين وسلاجقة بالسلطان الفعلى وأبقـوا علـى الخلفـاء. وتركوا لهم المنصب واللقب يستترون وراءهما للتصرف فى أمور الدولة كما يشاءون وللتحكـم فـى الخلفاء أنفسهم .

ولكن هذه التجربة الفريدة لتطبيق نظام وراثة السلطنة فى العصر المملوكى باءت أخيرًا بالفشل حين تفاقمت الفوضى ومهدت السبيل لازدياد قوة المماليك البرجية أو الجراكسة ونفوذهم حتى (عرفوا - كما يقول المقريزى - بين الأمراء وقوى أمرهم، وصار منهم أمراء وأصحاب أخباز، وتميزوا بكبر عمائهم) .

وانتهى الأمر بنجاح واحد من هؤلاء الأمراء الجراكسة - وهو برقوق فى خلع آخر سلطان من حفدة الناصر، وفى تولى العرش، فكان هذا إيذانًا بنهاية حكم أسرة بنى قلاوون ودولة المماليك البحرية، وببدء دولة جديدة هى دولة المماليك البرجية أو الجراكسة. وفيما يلى تفصيل الحديث عن هذه الحقبة من حكم أولاد الناصر وحفدته .

٢ - أبناء الناصر محمد :

كان الناصر محمد يمهد فى السنوات الأخيرة من حياته لتوريث العرش لأحد أبنائه، فعهد فى سنة ١٣٣١م بالملك من بعده لابنه أنوك، وكان فى التاسعة من عمره، ووافق الأمراء على هذا الاختيار، وركب أنوك بشعار السلطنة، واحتفلت الدولة بهذه المناسبة احتفالاً كبيرًا، ووزعت الخلع على الأمراء وكبار الموظفين، ولكن أنوك لم يقدر له أن يلى العرش، فقد توفى فى سنة ١٣٤٠م قبل وفاة أبيه بقليل، فجمع الناصر كبار الأمراء وأخذ عليهم المواثيق بتولية ابنه سيف الدين أبى بكر السلطنة من بعده .

وفى نفس السنة ١٣٤٠م توفى الناصر محمد ، وصدق الأمراء وعودهم، وولى سيف الدين أبو بكر العرش، وكان فى العشرين من عمره، ولكنه كان قليل الخبرة، فلم تلبث أن قامت أسباب الخلاف بينه وبين الأمراء، وخاصة كبيرهم قوصون أتابك العسكر، وأخذ قوصون يثير كبار الأمراء على السلطان ويخيفهم منه .

ويروى المقريزى فى (السلوك) أنه جمعهم وقال لهم :

(هذا السلطان يريد أن يقتلكم ولا يخلى أحدًا منكم) ، واستمع الأمراء لقوله، والتفوا حوله، فألقى القبض عل السلطان وأبعده إلى قوص، ثم قتل بعد قليل، ولم يكن قد مضى عليه فى السلطة غير ثلاثة شهور .

واستدعى قوصون إبنا آخر من أبناء الناصر محمد وهو كجك ، وولاه العرش فى سنة ١٣٤١م، ولقب بالملك الأشرف، وكان عمره وقتذاك خمس سنوات، فلم يكن من الطبيعى أن يستطيع مباشرة الحكم بنفسه، وأمضى فى السلطنة خمسة أشهر وعشرة أيام، لم يكن له فيها - كما يقول المقريزى- : (أمر ولا نهى، وتدبير أمور الدولة كلها إلى قوصون) .

وخلع كجك ، واختار الأمراء أخاه أحمد ليلى السلطنة فى سنة ١٣٤٢م، بالملك الناصر، وكان يقيم وقتذاك فى الكرك، فاستدعى إلى مصر، ولكنه لم يلبث بها إلا قليلاً ثم عاد إلى

الكرك وآثر المقام بها تاركًا أمور الدولة فى مصر والشام بأيدى الأمراء ، فاضطربت الأحوال، وعمت الفوضى، وأرسل الأمراء إلى السلطان يستدعونه للمقام فى عاصمة ملكه ولكنه رفض .

واضطر الأمراء أمام هذا الوضع الغريب إلى خلع الناصر أحمد واختاروا مكانه أخاه إسماعيل الذى لقب نفسه بالملك الصالح، وظل يحكم ثلاث سنوات (١٣٤٢م - ١٣٤٥م) ، ولم يكن خيرًا من أخيه، بل لعله كان أسوأ منه سيرة فقد قال المقريزى بأنه : (أعرض عن تدبير الملك بإقباله على النساء والمطربين) وذكر أيضًا أنه شارك فى قتل أخيه الناصر أحمد عندما ساءت سيرته فى الكرك ، ولم يعمر الصالح إسماعيل طويلاً، فقد مرض وتوفى سنة ١٣٤٥م .

وولى السلطنة فى نفس السنة ١٣٤٥م ابن خامس من أبناء الناصر محمد هو الكامل شعبان، فسلك سلوك أخيه الصالح إسماعيل وأقبل على حياة اللهو والمجون، وأهمل شئون الدولة والحكم، وحاول قتل أخويه حاجى وحسين، فأثار غضب الأمراء، فقبضوا عليه وقتلوه ، وتولى السلطة مكانه أخوه حاجى ولقب بالملك المظفر (١٣٤٦م) .

وكان الملك المظفر زين الدين حاجى طفلاً فى الحادية عشرة من عمره عندما تولى العرش، فانطلق يلعب ويلهو، وشغل نفسه بلعب الحمام مع (الأوباش)، فثار عليه الأمراء وخلعوه قبل أن تمضى على حكمه سنة واحدة .

وجاء دور الابن السابع حسن ، فجلس على العرش فى سنة ٧٤٨هـ (١٣٤٧م) وكان فى الثالثة عشرة من عمره ولقب بالملك الناصر ، وطالت مدة حكمه قليلاً، فظل سلطانًا إلى سنة ٧٥٢هـ (١٣٥١م)، ولكنه لم يستطع - لصغر سنه - مباشرة الحكم بنفسه، فاستبد بالأمر دونه كبار الأمراء، بل لقد بلغ بهم الأمر أن جددوا للسلطان مبلغًا لمصروفه اليومى لا يتعداه، يقول المقريزى تعقيبًا على هذا: (ولم يسمع بمثل ذلك، أن يكون ملك يجلس على تخت الملك، ويصرق الأمور بالعزل والولاية، وتحمل إليه أموال مصر والشام، ولا ينصرف منها فى شيء) .

ولم تلبث أن قامت أسباب النزاع والخلاف بين السلطان الناصر حسن والأمراء فقبضوا عليه وسجنوه، وولوا مكانه أخاه الصالح صلاح الدين (١٣٥٠م-١٣٥٤م) ولم تكن حاله فى السلطنة ومع الأمراء خيرًا من حال إخوته، فقد قال ابن تغرى بردى فى حديثه عنه: (لم يكن له فى سلطنته إلا مجرد الاسم فقط، لغلبة الأمراء شيخون وطاز وصرغتمش على الأمر، لأنهم كانوا هم حل المملكة وعقداها، وإليهم أمورها لا لغيرهم) .

وبعد ثلاث سنوات من حكمه قبض عليه الأمر وأودعوه السجن وأطلقوا سراح أخيه الناصر حسن، وأعادوه إلى العرش فى شوال ٧٥٥هـ (١٣٥٤م) .

وقد قضى السلطان حسن فى سلطنته الثانية ست سنوات (١٣٥٤م - ١٣٦٠م) استطاع خلالها أن يشرف بنفسه على شئون الدولة وأن يدير دفة الحكم، فأثبت كفاءة وجدارة جعلت المؤخرين يشيدون بمقدرته وشخصيته، والحقيقة أنه كان أفضل إخوته جميعًا الذين تولوا

العرش، فقد كان شجاعًا حازمًا كريمًا، وكـان لـه شـغف خـاص بالعمـارة، وفـى عـهده بنيـت المدرسة التى تحمل اسمه (مدرسة السلطان حسن) والتـى تعتـبر بحـق فخـر العمـارة الإسـلامية وأجمل ما بنى فى مصر منذ دخلها الإسلام حتى الآن، يقرر هذه الحقيقة كـل المؤرخـين الذيـن كتبوا عنها وكل الرحالة الذين زاروا مصر من شرقيين وغربيين .

ورغم هذه الصفات الحميدة التى اتصف بها السـلطان حسـن فـإن الأمـراء لم يسـتكينوا لـه، ولم يقلعوا عن سياستهم التى تهدف إلى السيطرة والتدخل فى شئون الحكم. وانتهى بـهم الأمـر إلى أن قبضوا على السلطان حسن، ثم لم يلبث أن اختفى ولم يعرف مصيره، وإن كانت المراجع تشير إلى أن مماليك الأمير يلبغا قتلوه .

ولم يل السلطنة بعده أحد من أولاد الناصر محمد ، وإنما انتقل الحكم بعـد ذلـك إلى أحفـاد الناصر .

وقد أشرنا من قبل إلى ما وصلت إليه أحوال مصر الداخلية من سوء فـى عـهد هـؤلاء الأبنـاء نتيجة لتسلط الأمراء وما كان يقـوم بـين بعضـهم والبعـض الآخـر مـن أسـباب المنافسـة والـنزاع والتخاصم، مما أدى إلى إهمال شؤون الشعب واضطراب مالية البلاد واقتصادها حتـى إن الدولـة لم تستطع إرسال المحمل خلال هذه الحقبة غير مرة واحدة .

٣ - سنة الفناء أو الوباء الأسود :

وصاحب هذا كله حدوث الوباء الأسود (فى سنة ٧٤٩هـ = ١٣٤٩م) فى عهد السلطنة الأولى للسلطان الناصر حسن، غير أن هذا الوباء لم يصب مصر وحدها، وإنما بدأ فى بلاد المغـول فـى المشرق الأقصى، ثم انتقل منها وانتشر غربًا إلى أن وصل إلى بلاد الشام ومصر، ثم انتقـل كذلـك عبر آسيا الصغرى إلى أوربا حتى عم العالم كله فى وقت واحـد، بـل لقـد أصـاب الحيتـان فـى أعماق البحار والطير فى عالم الفضاء على حد قول المقريزى وهو يصف هـذا الوبـاء بقولـه: (ولم يكن هذا الوباء كما عهد فى إقليم دون إقليم، بل عم أقاليم الأرض شرقًا وغربًا وشمالاً وجنوبًـا، جميع أجناس بنى آدم وغيرهم، حتى حيتان البحر وطير السماء ووحش البر) .

وكانت علامات هذا الوباء أن يظهر للإنسـان خراج وراء أذنه أو تحت إبطـه ثـم لا يلبـث أن يبصق دمًا ثم يموت بعد قليل .

وقد فتك هذا المرض بأهالى مصر والشام فتكًا ذريعًا ، فكـان يمـوت منـهم فـى اليـوم الواحـد الآلاف، ونتج عن هذا أن قلت الأيدى العاملة، فأغلقت الأسواق، ووقفت حركة البيع والشراء، وأقفرت الأرض لعدم وجود من يفلحها، بل لقد تعطل صيد السمك من البحـيرات لكـثرة مـوت الصيادين .

ونتج عن هذا كله اضطراب أحوال مصر الاقتصادية ، وتعطل نواحى الإنتاج المختلفة، ونقص القوى البشرية وإضعافها مما كان له آثار جد خطيرة فى تدهور الدولة المملوكية وضعفها فى المرحلة التالية .

وقد وصف المؤرخان المقريزى وابن تغرى بردى حوادث هذا الوباء وصفًا تفصيليًا، وأسميًا السنة التى حدث فيها بسنة الفناء، قال المقريزى فى (السلوك) : (فكانت سنة كثيرة الفساد فى عامة أرض مصر والشام من كثرة النفاق، وقطع الطريق) . وقال: (وشمل الموت أهل البرلس ونستراوة، وتعطل الصيد من البحيرة لموت الصيادين. وعم الوباء جميع تلك الأراضى، ومات الفلاحون بأسرهم، فلم يوجد من يضم الزرع، وزهد أرباب الأموال فى أموالهم وبذلوها للفقراء) .

وقال: (وتعطلت بساتين دمياط وسواقيها، وجفت أشجارها لكثرة موت أهلها ودوابهم) .

وقال: (ثم كان الحال كذلك بأراضى مصر ، فما جاء أوان الحصاد حتى فنى الفلاحون ، ولم يبق منهم إلا القليل، فخرج الأجناد وغلمانهم لتحصد، ونادوا : من يحصد ويأخذ نصف ما يحصده؟ فلم يجدوا من يساعدهم على ضم الزروع، ودرسوا غلالهم على خيولهم، وذروها بأيديهم، وعجزوا عن كثير من الزرع فتركوه) .

وقال: (وتعطلت أكثر الصناع ، وعمل كثير من أرباب الصنائع أشغال الموتى، وتصدى كثير منهم للنداء على الأمتعة، وانحط سعر القماش ونحوه، حتى بيع بخمس ثمنه وأقل، ولم يوجد من يشتريه، وصارت كتب العلم ينادى عليها بالأحمال، فيباع الحمل منها بأبخس ثمن، واتضعت أسعار المبيعات كلها.. ونودى فى القاهرة: من كانت له صنعة فليرجع إلى صنعته، وضرب منهم جماعة، وبلغ ثمن راوية الماء إلى ثمانية دراهم، لقلة الرجال والمال، وبلغت أجرة طحن الأردب القمح خمسة عشر درهما.. إلخ) .

وقال : (وتوقفت الأحوال بالقاهرة ومصر .. وأبطل كثير من الناس صناعاتهم، وانتدبوا للقراءة أمام الجنائز.. وبطلت الأفراح والأعراس من بين الناس) .

وفى وصف هذه الحالة قال أحد شعراء العصر :

فهذا يوصى بأولاده ... وهذا يودع إخوانه
وهذا يهيىء أشغاله ... وهذا يجهز أكفانه
وهذا يصالح أعداءه ... وهذا يلاطف جيرانه

٤ – أحفاد الناصر محمد (١٣٦١ – ١٣٨٢م) :

أشرنا من قبل إلى أن الأمير يلبغا عزل السلطان حسن بن الناصر محمد وقتله، وقد اختار للسلطنة من بعده صلاح الدين محمد ابن المظفر حاجى بن الناصر محمد وذلك فى سنة ١٢٦١م، وكان فى الرابعة عشرة من عمره، ولم يعمر فى الحكم غير سنتين (١٣٦١ – ١٣٦٣م) .

ولم يختلف عهد أحفاد الناصر عن عهد أبنائه كثيرًا ، بل لعله كـان أسـوأ منـه ، فقد تـولى الأحفـاد الأربعـة العـرش وهم أطفـال صغار، وقد أشرنا إلى سـن صـلاح الديـن محمـد، وقـد تولى خلفه الأشرف شعبان فى العاشـرة مـن عمـره، واسـتمرت مـدة حكمـه ثلاثـة عشـر عامـًا (١٣٦٣م - ١٣٧٦م) ثم أتى مـن بعـده السـلطان المنصـور عـلاء الديـن علـى وتـولى العـرش فـى السادسة من عمره (١٣٧٦م–١٣٨١م) . وكان آخرهم السلطان زين الدين أمير حاج وكـانت سنه إحدى عشرة سنة ولم يحكم غير سنة واحدة (١٣٨١م - ١٣٨٢م) .

وكان من الطبيعى أن تزداد شوكة أمراء المماليك وأطماعهم ، وأن يتمادوا فى الاستبداد بأمور الحكم دون السلاطين، وأن يصبح هؤلاء السلاطين ألعوبة فى أيديهم يولونهم أو يعزلونـهم وفـق مشيئتهم وأهوائهم، وأن يشتد بالتالى الصراع بين الأمراء بعضهم والبعـض الآخـر، وأن ينقسـموا شيعًا وأحزابًا ، والشعب من ورائهم يرى ويسمع ولا يجد من يرعى مصالحه أو يعمل لرفاهيته ، ولا يملك إلا أن يعلن عن حزنه لموت سلطان أو لعزلـه أو لقتلـه ، أو أن يقيـم الأفـراح والزينـات احتفالاً بتوليه سلطان جديد .

وقد استفاد من هذا الصراع المماليك البرجية الذين سبق أن جلبهم المنصور قـلاوون وأسـكنهم أبراج القلعة، وانتهى بهم الأمر إلى عزل حاجى آخر سلالة قلاوون، والقضاء على دولة المماليك البحرية، وإنشاء دولة جديدة هى دولة المماليك البرجية أو الجراكسة .

٥ – حملة بطرس لوزنيان على الإسكندرية سنة ١٣٦٥م :

وكما أصيبت مصر فى عهد أبناء الناصر محمد بسنة الفناء أو الوباء الأسود الـذى أتـى علـى الحرث والنسل وأصاب اقتصاديات مصر فى الصميم، فقد تعرضت مصر فى عهد أحـد أحفـاده وهو الأشرف شعبان لغزوة خارجية أتت على البقية الباقية من ثروة مصر التجارية، فقد نزلـت هذه الحملة الصليبية على مدينة الإسكندرية مينـاء مصـر الأول ومسـتودع تجارتـها الخارجيـة، ولم تقلع إلا بعد أن خربت المدينة تخريبًا كاملاً، وسلبتها كل ما فيها من غال وثمين .

والحقيقة أن الحركة الصليبية لم تنته بخروج آخر جندى صليبى من عكا وسـواحل الشام فى سنة ١٢٩١م، وإنما ظلت الفكرة الصليبية قائمة تداعب خيال الأوربيين وتمارس نشاطها خـلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر، وأصبحت جزيرة قبرص تحت حكم أسرة لوزنيان، وجزيـرة رودس تحت حكم الفرسان الاسبتاريين مركز هذا النشاط الصليبى، وظل هدف الحركة الصليبية فى عهدها المتأخر هو لم يتغير : بيت المقدس والرغبة فى استعادتها من أيدى المسلمين .

ولكن دعاة هذه الحركة ركزوا جهودهم ومشروعاتهم على مصـر باعتبارهـا الحصـن الحصـين لمنطقة الشرق الأدنى كلها، وعلى حكامها المماليك باعتبارهم السـياج القـوى الـذى يحمـى هـذا الحصن، وكانت خطة دعاة هذه الحركة تهدف إلى فرض الحصار الاقتصادى على مصر والعمـل

على إقفارها، وإذا كانت موارد دولة المماليك فى مصر تعتمد فى معظمها على ما تجبيه من مكوس وضرائب على التجارة المتبادلة بين الشرق والغرب عبر مصر، فقد أصدر البابوات عدة قوانين تحرم على التجار الأوربيين التعامل مع المسلمين أو الاتجاه بسفنهم إلى موانى مصر والشام، ولكن تجار الجمهوريات الإيطالية لم يطيعوا هذه الأوامر حفاظًا على مصالحهم الاقتصادية المتبادلة مع مصر. فاضطرت البابوية إلى إنشاء قوة بوليسية حربية تعمل على اختطاف أولئك التجار الأوربيين الذى يقدمون على التعامل مع دولة المماليك .

وكانت جزيرة قبرص خير مكان فى شرق البحر الأبيض المتوسط يتخذ لمراقبة سواحل مصر والشام أو للإغارة عليها .

وكان ملك قبرص بيير أو بطرس لوزنيان قد خرج من جزيرته وطاف بممالك أوربا المسيحية يثير حماسهم ويطلب منهم أن يقدموا له كل المساعدات المكنة لإعداد حملة صليبية جديدة على مصر، ولكنه وجد معظم هؤلاء الملوك قد شغلوا بأنفسهم ومصالح دولهم عن الفكرة الصليبية، فلم يلق منهم غير الوعود، ومع هذا فقد أمده اسبتارية رودس وجمهوريتا جنوة والبندقية ببعض العون .

وخرج بطرس الأول لوزنيان بأسطول ضخم يحمل جيشه الكبير قاصدا إلى الإسكندرية، فوصل إلى مياهها يوم الخميس ٢١ محرم ٧٦٧هـ (٩ أكتوبر ١٣٦٥م) .

وفى صباح يوم الجمعة خرج أهالى الإسكندرية إلى الفضاء المواجه لجزيرة فاروس خارج الأسوار، وانضم إليهم الأعراب الوافدون من الصحراء، وأخطأ والى المدينة فخرج وانضم إليهم يريد الدفاع عن المدينة، فنصحه بعض المغاربة بالعودة وإصدار الأوامر للأهالى كى يدخلوا إلى المدينة ليحتموا جميعا بأسوارها ويدافعوا عنها من ورائها، ولكن الوالى لم يستمع لهذه النصيحة فقد حسب أنه يستطيع من موقعه أن يمنع الفرنج من النزول إلى البر .

ولكن القبارصة كانوا أكثر استعدادًا وتنظيمًا ، فاستطاعوا أن ينزلوا إلى البر، وبعد مناوشات قليلة انتصروا على جموع المحتشدين، فأصيب الأهالى بالذعر الشديد وأسرعوا بالفرار وفى مقدمتهم الأمير جنغرا والى المدينة إلى دمنهور أو إلى القاهرة .

واقتحم القبارصة أبواب المدينة ودخلوها، وانبثوا فى شوارعها ومتاجرها ومنازلها ومساجدها وكنائسها يقتلون وينهبون ويخربون، وينقلون كل مسروقاتهم إلى سفنهم .

وهكذا أمضى القبارصة فى الإسكندرية ثلاثة أيام حتى إذا أحسوا قرب وصول جيش الدولة من القاهرة فروا مسرعين إلى سفنهم التى أثقلت بالمنهوبات حتى اضطروا إلى إلقاء بعضها فى البحر خوفًا على سفنهم من الغرق، وصحبوا معهم خمسة آلاف أسير وأسيرة من أهالى

الإسكندرية منهم كما يقول النويرى المؤرخ السكندرى : (المسلم، والمسلمة، واليهودى، واليهودية، والنصرانى والنصرانية) .

وقد يبدو غريبًا أن تسقط المدينة فى أيدى الأعداء بهذه السرعة وهذه السهولة رغم ما كان يحيط بها من أسوار حصينة وأبراج منيعة، ومع أن خزائن أسلحتها كانت عامرة بالعدة والعتاد، ولكننا نجد التفسير فى ذلك الاضطراب الذى كان يسود مصر فى ذلك الحين، فقد كان على عرشها سلطان طفل لم يكد يبلغ الحادية عشرة من عمره هو السلطان الملك الأشرف شعبان، وكان يستبد بالأمر دونه الأمير يلبغا العمرى الخاصكى، وكانت جهود هذا الأمير مصروفة كلها لمقاومة منافسيه من أمراء الدولة الآخرين، وزاد الطين بلة أن والى الإسكندرية الأصيل - وهو الأمير صلاح الدين خليل بن عرام - كان متغيبًا عن المدينة يؤدى فريضة الحج، وكان ينوب عنه فى حكم المدينة أمير آخر أقل دراية وأصغر مرتبة هو الأمير جنغرا .

نجح بطرس لوزنيان فى تخريب الإسكندرية ونهبها ، ولكنه لم ينجح فى الاستيلاء على مصر أو البقاء فى الإسكندرية ـ بل أنه أسرع بالفرار حين شاهد طلائع المدد القادم من القاهرة، وصدق عليه قول النويرى حين وصفه بأنه : (جاء إلى المدينة لصًا وخرج منها لصًا) .

المراجع العربية

(أ) المخطوطات

الأشرفى (طيبغا البقلميشى اليونانى)

= كتاب غنية الطلاب فى معرفة الرمى بالنشاب. مخطوط بمكتبة كمبردج، رقم p2 ١٧٨ – ٢٤٠.

أمين الخولى

= الجندية فى الإسلام، (رسالة لم تطبع).

ابن أيبك (أبو بكر عبد الله صاحب صرخد)

= كنز الدرر وجامع الغرر، ٩ أجزاء، مخطوط بمكتبة دار الكتب المصرية، رقم ٢٥٧٨.

ابن بعرة (منصور الكاملى، الذهبى)

= كشف الأسرار العلمية، بدار الضرب المصرية، مخطوطة بدار الكتب المصرية بالقاهرة.

بكتوت الرماح (خازندار الملك الظاهر)

= نهاية السؤال والأمنية فى تعليم الفروسية، مخطوط بالمتحف البريطانى رقم ٣٦٢١ Orient.

بيبرس الدوادار

= زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة، الجزء التاسع، مخطوط بمكتبة جامعة القاهرة، رقم ٢٤٠٢٨.

الجزرى (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن مجد الدين أبى إسحاق إبراهيم بن أبى بكر بن إبراهيم بن عبد العزيز)

= تاريخ الجزرى جزء واحد فى ثلاثة مجلدات، مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم ٩٩٥.

ابن حاتم (بدر الدين محمد)

= السمط الغالى الثمن فى أخبار من ملك من الغزو بلاد اليمن. مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم ٢٤١١، وتوجد منه صور شمسية بمكتبة جامعة القاهرة، رقم ٢٦١٣٣.

الحسامى (محمد بن أحمد بن لاجين الطرابلسى)

= كتاب الفروسية برسم الجهاد، مخطوط بمكتبة برلين، رقم ٥٨٨.

الحنبلى (أحمد ابن إبراهيم بن نصر الله)

= شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب، صور شمسية بمكتبة جامعة القاهرة، رقم ٢٤٠٣٠ (والأصل مخطوطة بالمتحف البريطانى رقم ٧٣١١).

الخالدى (بهاء الدين محمد بن لطف الله بن عبد الله بن عبيد الله العمرى)

= كتاب المقصد الرفيع المنشا الهادى لديوان الإنشا، مخطوط بمكتبة جامعة القاهرة، رقم ٢٤٠٤٥.

الشجاعى (شمس الدين)

= تاريخ السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون وبنيه، برلين ٩٨٣٣، Brockelmann II 28.

العينى (بدر الدين محمود)

= عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان، ٢٣ جزءا فى ٦٩ مجلدًا، مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم ١٥٨٤ تاريخ.

ابن الفرات

= تاريخ الدول والملوك، صور شمسية بدار الكتب المصرية رقم ٣٢٩٧ عن نسخة فيينا.

المقريزى (تقى الدين أحمد بن على)

= كتاب السلوك فى معرفة دول الملوك، الجزء الثالث، مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم ٤٤٥.

ابن منكلى (القن محمد)

= الأحكام الملوكية والضوابط الناموسية، مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم ٢٣ فروسية.

مؤلف مجهول

= كتاب الفروسية، المكتبة الأهلية بباريس.

النويرى (محمد بن قاسم محمد بن الاسكندرى)

= كتاب الإلمام بما جرت به الأحكام والأمور المقضية فى وقعة الإسكندرية، مخطوط برلين. راجع اهلواردت Ahlwardt رقم ١٩٨٥.

ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم)

= شرح كتاب الأغانى المعروف باسم تجريد الأغانى من الثانى والثالث، نسخة دار الكتب المصرية بالقاهرة، ٣ مجلدات، رقم ٥٠١٧ أدب، وصور شمسية بمكتبة كلية الآداب بجامعة الإسكندرية، رقم ٤م أدب.

= التاريخ الصالحى، صور شمسية بمكتبة كلية الآداب بجامعة الإسكندرية.

اليونينى (الشيخ قطب الدين)

= الذيل على مرآة الزمان، مخطوط بدار الكتب المصرية.

(ب) المطبوعات

ابن أبى أصيبعة (موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم)

= طبقات الأطباء، جزءان، المطبعة الوهبية بالقاهرة. ١٢٩٩ هـ (١٨٨٢م).

ابن أبى الفضائل (مفضل)

= النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد.

Texte Arabe publée et traduit en Françays par E. Bliochet. Patrologie Orientalis. t. XIV. Fasc. 3 paris, 1911, 1930).

ابن أبى الوفاء (محيى الدين أبو محمد عبد القادر)

= الجواهر المضية فى طبقات الحنفية، جزءان، مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية حيدر أباد الدكن ١٣٣٢ هـ.

ابن الأثير (عز الدين أبو الحسن على)

= الكامل فى التاريخ، ١٢ جزءا، المطبعة الأزهرية بالقاهرة، ١٣٠١ هـ.

= اللباب فى تهذيب الأنساب، ٣ أجزاء، القاهرة، ١٣٥٧ هـ - ١٣٦٩ هـ.

ابن الأثير (ضياء الدين نصر الله بن محمد)

= رسائل ابن الأثير، نشر أنيس المقدسى، بيروت، ١٩٥٩م.

ابن الاخوة

= معالم القرية فى أحكام الحسبة، طبعة روبين ليفى Rubien Levy، بلجنة ذكرى جب Gibb Mcmorial.

الأدفوى (كمال الدين أبو الفضل جعفر بن ثعلب)

= الطالع السعيد الجامع لأسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد، القاهرة ١٣٣٢هـ (١٩١٤م).

الإسحاقى (محمد عبد المعطى بن أبى الفتح بن أحمد بن عبد الغنى المنوفى)

= كتاب أخبار الدول فيمن تصرف فى مصر من أرباب الدول القاهرة، ١٣١١هـ.

أفرام (الأب أغناطيوس الأول)

= الألفاظ السريانية فى المعاجم العربية، بحث فى مجلة المجمع العربى بدمشق، أعداد سنة ١٩٥٠م.

ابن الأكفانى (محمد بن إبراهيم بن ساعد الأنصارى السنجارى)

= نخب الذخائر فى أحوال الجواهر، نشره الأب أنستاس الكرملى، القاهرة ١٩٣٩ م ونشره قبل ذلك الأب لويس شيخو فى مجلة المشرق السنة ١١).

ابن إياس (أبو البركات محمد بن أحمد)

= كانت تاريخ مصر، المعروف باسم بدائع الزهور، ٣ أجزاء، بولاق، ١٣١١هـ - ١٣١٢ هـ.

بامخرمة (أبو محمد عبد الله الطيب بن عبد الله بن أحمد)

= تاريخ ثغر عدن، مع نخب من تواريخ ابن المجاور والجندى والأهدل، نشره Oscar Lôfgren، جزءان، ليدن، ١٩٣٦م.

البتانونى (محمد لبيب)

= رحلة الأندلس، القاهرة، الطبعة الثانية (بدون تاريخ).

بدر (الدكتور مصطفى طه)

= محنة الإسلام الكبرى، أو زوال الخلافة العباسية على أيدى المغول، القاهرة، ١٩٤٧م.

البستانى

= محيط المحيط، جزءان، بيروت، ١٨٦٧م - ١٨٧٠م.

ابن بطوطة

= مهذب الرحلة، نشر أحمد العوامرى ومحمد أحمد جاد المولى، جزءان، القاهرة، ١٩٣٣م - ١٩٣٤م.

البغدادى (عبد اللطيف)

= الإفادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر، القاهرة، ١٢٨٦ هـ.

البلوى (أبو محمد عبد الله بن محمد المدينى)

= سيرة أحمد بن طولون، نشر محمد كرد على، دمشق، ١٩٣٩م.

البيرونى (أبو الريحان محمد بن أحمد)

= كتاب الجماهر فى معرفة الجواهر، مطبعة جمعية دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد الدكن، الهند، ١٣٥٥ هـ.

بينز (نورمان)

= الإمبراطورية البيزنطية، الترجمة العربية للدكتور حسين مؤنس، ومحمود يوسف زايد، القاهرة، ١٩٥٠م.

ابن تغرى بردى (جمال الدين أبو المحاسن يوسف)

= النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، ظهر منه ١٢ جزءًا، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٢٩م - ١٩٥٦م.

التنوخى

= نشوار المحاضرة، طبعة مرجليوت Margoliouth.

تيمور (أحمد باشا)

= لعب العرب، القاهرة، ١٩٤٨م.

= نظرة تاريخية فى حدوث المذاهب الأربعة، المطبعة السلفية.

= التصوير عند العرب، أخرجه وزاد عليه الدراسات الفنية والتعليقات الدكتور زكى محمد حسن، القاهرة، ١٩٤٢م.

ابن تيمية

= الحسبة فى الإسلام أو وظيفة الحكومة الإسلامية.

ثابت (نعمان)

= الجندية فى الدولة العباسية، بغداد، ١٢٥٨ هـ (١٩٣٩م).

الجاحظ

= البخلاء، نشر الدكتور طه الحاجرى، القاهرة، ١٩٤٨م.

ابن جبير (أبو الحسين محمد بن أحمد)

= الرحلة، الطبعة الثانية، ليدن، ١٩٠٧م.

الجواليقى (أبو منصور موهوب بن أحمد بن محمد الخضر)

= المعرب من الكلام الأعجمى على حروف المعجم، تحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة، ١٣٦١ هـ.

ابن الجوزى (أبو الفرج عبد الرحمن بن على)

= المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم، الأجزاء ٥ – ١٠، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد الدكن، ١٣٥٧هـ – ١٣٥٨ هـ.

ابن الجيعان (شرف الدين يحيى)

= التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية، نشر مورتز، القاهرة، ١٨٩٨م.

حاجى خليفة (مصطفى، المسمى كاتب شلبى)

= كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون، طبع النسخة العربية وترجمها إلى اللاتينية فلوجل G Flugel، ليبزج ولندن، ١٨٣٥م – ١٨٥٨م.

حبشى (دكتور حسن)

= الحرب الصليبية الأولى، القاهرة، ١٩٤٧م.

= نور الدين والصليبيون، القاهرة، ١٩٤٨م.

ابن حجر (شهاب الدين أحمد بن على، العسقلانى)

= لسان الميزان، ٦ أجزاء، حيدر آباد، ١٣٢٩هـ – ١٣٣١ هـ.

= رفع الإصر عن قضاة مصر، مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم ٢١١٥.

= الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة، ٤ أجزاء، طبعة حيدر أباد الهند سنة ١٩٤٨ م – ١٣٥٠ هـ.

أبو حديد (محمد فريد)

= صلاح الدين الأيوبى وعصره، القاهرة، ١٩٢٧م.

حسن (الدكتور حسن إبراهيم)

= الفاطميون فى مصر، القاهرة، ١٩٣٢م.

= السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات فى عهد بنى أمية، عن الفرنسية، تأليف فان فلوتن، القاهرة، ١٩٢٣ م.

= انتشار الإسلام بين المغول والتتار، بحث مستخرج من مجلة الجامعة المصرية، مايو ١٩٣٣م.

= انتشار الإسلام فى الهند، بحث فى مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة الصادرة سنة ١٩٤٤م.

حسن (الدكتور زكى محمد)

= مصر والحضارة الإسلامية، الرسالة الخامسة عشرة من سلسلة الثقافة العسكرية التى تصدرها وزارة الدفاع الوطنى.

حسن (الدكتور على إبراهيم)

= جوهر الصقلى، القاهرة، ١٩٣٣م.

= مصر فى العصور الوسطى، القاهرة، ١٩٤٧م.

= النظم الإسلامية، بالاشتراك مع الأستاذ الدكتور حسن إبراهيم حسن، القاهرة، ١٩٣٩م.

= الجيش والبحرية فى عصر المماليك، الرسالة الثالثة والخمسون من سلسلة الثقافة العسكرية التى تصدرها إدارة للشئون العامة فى وزارة الدفاع الوطنى القاهرة، مارس ١٩٤٤ م.

= آراء فى تاريخ دولة المماليك البحرية. بحث فى مجلة كلية الآداب، المجلد السابع، ١٩٤٤م.

الحسن بن عبد الله

= آثار الأول فى ترتيب الدول، بولاق، ١٢٩٥ هـ.

حسين (محمد أحمد)

= أسامة بن منقذ، القاهرة، ١٩٤٦م.

حسين (الدكتور محمد كامل)

= فى أدب مصر الفاطمية، القاهرة، ١٩٥٠م.

ابن حمديس (أبو محمد عبد الجبار بن أبى بكر، الصقلى)

= ديوانه، رومة، ١٨٩٧م.

حمزة (الدكتور عبد اللطيف)

= حكم قراقوش، القاهرة، ١٩٤٥م.

ابن حوقل (أبو القاسم محمد)

= المسالك والممالك والمفاوز والمهالك، ليدن، ١٨٢٢م.

الخفاجي (شهاب الدين أحمد)

= شفاء العليل فيما في كلام العرب من الدخيل، بولاق، ١٢٨٢ هـ.

ابن خلدون (عبد الرحمن)

= المقدمة، القاهرة، ١٣٢٢ هـ.

= العبر وديوان المبتدأ والخبر، ٧ أجزاء، القاهرة، ١٢٨٤ هـ.

ابن خلكان (شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد)

= وفيات الأعيان أنباء أبناء الزمان، ٣ أجزاء، القاهرة ١٢٩٩ هـ. و ٦ أجزاء، طبعة محيى الدين عبد الحميد، القاهرة، ١٩٤٨م.

الخوزرامى (أبو عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف)

= مفاتيح العلوم، القاهرة، ١٣٤٩ هـ (١٩٣٠م).

ابن خير الله الخطيب العمرى (ياسين)

= منية الأدباء فى تاريخ الموصل الحدباء، نشر سعيد الديوه جى، الموصل، ١٩٥٥م.

دائرة المعارف الإسلامية (الترجمة العربية)

= مادة: أتابك، إربل، ألموت، جريب.

ابن الدبيثى (محمد بن سعيد بن محمد)

= تاريخه – باختصار الذهبى – نشره الدكتور مصطفى جواد، الجزء الأول بغداد، ١٣٧١ هـ (١٩٥١م).

ابن دمية (أبو الخطاب عمر أبى على)

= النبراس فى تاريخ خلفاء بنى العباس، نشره عباس العزاوى، بغداد ١٣٦٥ هـ (١٩٤٦م).

ابن دقماق (إبراهيم بن محمد بن أيدمر العلائى)

= الانتصار لواسطة عقد الأمصار، الجزءان ٤ و ٥، بولاق، ١٣٠٩ هـ.

الديوه جى (سعيد)

= الموصل فى العهد الأتابكى، بغداد، ١٩٥٨م.

= الجامع المجاهدى فى مختلف العصور، مجلة سومر، ١١.

الذهبى (شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان)

= تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام (ظهر منه حتى الآن ٦ أجزاء)، مكتبة القدسى، القاهرة ١٣٦٧ - ١٣٦٩ هـ.

= تذكرة الحفاظ، ٤ أجزاء، حيدر أباد (بدون تاريخ).

رشيد الدين فضل الله:

= كتاب جامع التواريخ، ترجمه إلى الفرنسية مسيو اتين كترمير، وانتهى من تأليفه حوالى سنة ٧٠١ هـ (١٣٠١م).

رمزى (محمد)

= القاموس الجغرافى للبلاد المصرية، القاهرة ١٩٥٤م.

الرملى (شمس الدين محمد بن شهاب الدين أحمد بن أحمد بن حمزة)

= الفتاوى، وهو مطبوع على هامش كتاب «الفتاوى الكبرى» لابن حجر الهيثمى، القاهرة، ١٣٠٨ هـ.

زامباور

= معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى، الترجمة العربية للدكتور زكى محمد حسن وحسن أحمد محمود وآخرين، جزءان مطبعة جامعة القاهرة، ١٩٥١ - ١٩٥٢.

الزبيدى (السيد المرتضى)

= تاج العروس من جواهر القاموس، ١٠ أجزاء، القاهرة، ١٣٠٦ - ١٣٠٧ هـ.

زترستين

= تاريخ سلاطين المماليك، نشره ك. ف. زترستين، لندن، ١٩١٩م.

الزركلى

= الأعلام، ١٠ أجزاء، القاهرة، ١٩٥٤م - ١٩٥٩م.

زكى (محمد أمين)

= خلاصة تاريخ الكرد وكردستان من أقدم العصور التاريخية حتى الآن، ترجمه إلى اللغة العربية محمد على عونى، القاهرة، ١٩٣٦م.

زيادة (الدكتور محمد مصطفى)

= المؤرخون فى مصر فى القرن الخامس عشر الميلادى، القاهرة، ١٩٤٩م.

زيدان (جرجى)

= تاريخ التمدن الإسلامى، ٥ أجزاء، القاهرة، ١٩٣٥م.

ابن الساعاتى (بهاء الدين أبو الحسن على بن محمد بن رستم)

= ديوان شعره، مجلدان، نشره أنيس المقدسى، بيروت، ١٩٣٨م - ١٩٣٩م. (مطبوعات الجامعة الأمريكية فى بيروت).

ابن الساعى (أبو طالب على بن أنجب تاج الدين)

= الجامع المختصر فى عنوان التواريخ وعيون السير، الجزء التاسع، نشره الدكتور مصطفى جواد، بغداد، ١٩٣٤م.

سبط ابن التعاويذى (أبو الفتح محمد بن عبيد الله)

= ديوان شعره، نشر مرجليوث، القاهرة، ١٩٠٣م.

سبط أبو الجوزى.

= مرآة الزمان، الجزء الثامن، القسمان الأول والثانى فى مجلدين، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، الهند، ١٣٧٠ هـ (١٩٥١م).

سرهنك (إسماعيل)

= حقائق الأخبار عن دول البحار، جزءان، المطبعة الأميرية، ٣١٤ هـ.

السبكى (تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن تقى الدين)

= طبقات الشافعية، ٦ أجزاء، القاهرة ١٣٢٤ هـ.

= معيد النعم ومبيد النقم، لندن، ١٩٠٨م، طبعة داود ولهلم موهرمان.

سركيس (يوسف إليان)

= معجم المطبوعات العربية والمعربة، القاهرة، ١٣٤٦ هـ (١٩٢٨م).

السلفى (أبو طاهر عماد الدين أحمد بن محمد)

= معجم السفر، مخطوط بدار الكتب المصرية.

ابن سناء الملك (أبو القاسم هبة الله بن جعفر)

= دار الطراز، نشر الدكتور جودة الركابى، دمشق، ١٩٤٩م.

= ديوان شعره، صور شمسية بدار الكتب المصرية، رقم ٤٩٣١ أدب.

ابن سيدة (أبو الحسن على بن إسماعيل)

= المخصص، ١٧ جزءا، بولاق، ١٣١٦هـ - ١٣٢١ هـ.

السيوطى (جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر)

= تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين، القاهرة، ١٣٥١ هـ.

= حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة، جزءان، القاهرة، ١٣٢٧ هـ.

= بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة، القاهرة، ١٣٢٦ هـ.

= طبقات الحفاظ، ٣ أجزاء، غوطا، ١٨٣٣م.

ابن شاكر الكتبى (محمد بن أحمد)

= فوات الوفيات، طبعة محمد محيى الدين عبد الحميد، جزءان، القاهرة، ١٩٥١م.

أبو شامة (شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسى)

= كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين، جزءان، مطبعة وادى النيل بالقاهرة، ١٢٨٧ - ١٢٨٨ هـ (وقد نشره أخيرا الدكتور محمد حلمى أحمد نشرة علمية، ظهر منها الجزء الأول فى مجلدين، القاهرة، ١٩٥٦م و ١٩٦٢م).

ابن شاهين (غرس الدين خليل)

= زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، باريس، ١٨٩٤م.

ابن الشحنة (محب الدين أبو الفضل محمد)

= الدر المنتخب فى تاريخ مملكة حلب، نشره يوسف بن إليان سركيس، بيروت، ١٩٠٩م.

ابن شداد (بهاء الدين)

= النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية أو سيرة صلاح الدين، نشر وتحقيق الدكتور جمال الدين الشيال، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٦٤م.

ابن شداد (عز الدين أبو عبد الله محمد الحلبى)

= الأعلاق الخطيرة - تاريخ مدينة دمشق - نشر الدكتور سامى الدهان، دمشق، ١٩٥٦ م.

شرف (الدكتور طه)

= دولة النزارية أجداد أغاخان كما أسسها الحسن الصباح، القاهرة ١٩٥٠ م.

الشوكانى (محمد بن على)

= البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، جزءان، القاهرة ١٣٤٨ هـ.

الشيال (الدكتور جمال الدين)

= الاسكندرية، طبوغرافية المدينة وتطورها من أقدم العصور إلى الوقت الحاضر، القاهرة، ١٩٥٢ م.

= جمال الدين بن واصل وكتابه مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب، بحث لم ينشر بعد.

= معجم السفن العربية، مخطوطة لم تطبع بعد.

= دراسات فى التاريخ الإسلامى، بيروت، ١٩٦٦م.

= أعلام الإسكندرية فى العصر الإسلامى، القاهرة ١٩٦٥م.

= مجمل تاريخ دمياط، الإسكندرية، ١٩٤٩م.

= مجموعة الوثائق الفاطمية، القاهرة ١٩٥٨م.

= الوثائق الفاطمية مصادر جديدة لدراسة تاريخ الفاطميين (المجلة التاريخية المصرية، المجلد الخامس، ١٩٥٦ م).

الصابونى (أحمد بن إبراهيم).

= تاريخ حماة، حماة ١٣٣٢ هـ.

الصابى (أبو إسحاق هلال)

= تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء، القسم الأول، بيروت ١٩٠٤ م.

صالح بن يحيى

= تاريخ بيروت وأخبار الأمراء البحتريين من بنى المغرب نشر لويس شيخو، بيروت، ١٨٩٨ م.

الصفدى (صلاح الدين خليل بن أيبك)

= الوافى بالوفيات. نشر المستشرق هـ. ريتر، الجزء الأول. مطبعة الدولة باستانبول ١٩٣١ م.

= نكت الهيمان فى نكت العميان، نشر أحمد زكى باشا، القاهرة، ١٩١٠ م طوسون (عمر).

= كتاب مالية مصر من عهد الفراعنة إلى الآن الاسكندرية ١٩٣١ م ابن طباطبا (محمد بن على).

= الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية، القاهرة، ١٩٢٣ م.

الطرطوشى (أبو بكر محمد بن محمد)

= سراج الملوك، القاهرة ١٩٣٥ م.

عبادة (عبد الفتاح)

= سفن الأسطول الإسلامى، القاهرة ١٩١٣م.

عبد اللطيف (محمد فهمى)

= الفتوة الإسلامية، القاهرة ١٩٤٨ م.

ابن عربى (محيى الدين)

= محاضرة الأبرار، ومسامرة الأخبار. فى الأدبيات والنوادر والأخبار، القاهرة، ١٩٠٦ م.

عرنوس (محمود محمد)

= تاريخ القضاء فى الإسلام، القاهرة ١٣٥٢ هـ - ١٩٣٤ م.

ابن العماد (أبو الفلاح عبد الحى)

= شذرات الذهب فى أخبار من ذهب، ١٢ جزءًا، القاهرة، ١٣٥٠هـ - ١٣٥٣ هـ.

العماد الكاتب الأصفهانى (أبو عبد الله محمد بن محمد)

= خريدة القصر وجريدة العصر. القسم الأول - شعراء مصر - فى جزأين، نشره أحمد أمين وشوقى ضيف وإحسان عباس، القاهرة، ١٩٥١م - ١٩٥٢ م.

= الفتح القسى فى الفتح القدسى، القاهرة، ١٣٢١ هـ.

ابن عمار البغدادى

= الفتوة، نشر الدكتور فؤاد حسنين، القاهرة ١٩٥٩ م.

عمارة (نجم الدين أبو محمد اليمنى)

= تاريخ اليمن، نشره كاى، لندن ١٣٠٩هـ.

= النكت العصرية فى أخبار الوزراء المصرية، ٣ أجزاء، نشره در نبرج، شالون، ١٨٩٧ م.

المرى (شهاب الدين أحمد بن فضل الله)

= مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار ٢٠٠ جزءًا، مخطوط - بدار الكتب المصرية، رقم ٢٥٦٨.

= مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار، الجزء الأول، نشره وعلق عليه المرحوم أحمد زكى باشا، مطبعة دار الكتب المصرية سنة ١٣٤٢ هـ = ١٩٢٤ م

= التعريف بالمصطلح الشريف، القاهرة، ١٣١٢ هـ.

عنان (محمد عبد الله)

= تراجم إسلامية (شرقية وأندلسية)، القاهرة، ١٩٤٧ م.

= مصر الإسلامية، القاهرة، ١٩٣١ م.

العنيسى (القس طوبيا، الحلبى)

= تفسير الألفاظ الدخيلة فى اللغة العربية مع ذكر أصلها، القاهرة، ١٩٣٢ م.

عواد (ميخائيل)

= المآصر فى بلاد الروم والإسلام، بغداد، ١٩٤٨ م.

عيسى (أحمد)

= تاريخ البيمارستانات فى الإسلام، القاهرة، ١٣٥٧ هـ - ١٩٣٩ م

أبو الفدا (الملك المؤيد اسماعيل صاحب حماة)

= المختصر فى أخبار البشر ٤ أجزاء، المطبعة الحسينية، القاهرة، ١٣٢٥ هـ.

ابن الفوطى (أبو الفضل عبد الرازق البغدادى)

= الحوادث الجامعة والتجارب النافعة فى المائة السابعة، نشره الدكتور مصطفى جواد، بغداد، ١٣٥١ هـ.

(فبيت جاستون)

= المواصلات فى مصر فى العصور الوسطى، مقالة نشرت فــى (L' Egypt Contemporaine 1933. Pp. 241 - 264) ونقلها إلى العربية الأستاذ محمد وهبى.

ابن قتيبة (أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينورى)

= المعارف، القاهرة، ١٩٣٥ م.

ابن قلاقس (أبو الفتوح نصر الله بن عبد الله)

= الديوان، نشر خليل مطران، مطبعة الجوائب، القاهرة ١١٢٢ هـ

ابن القلانسى (أبوة يعلى حمزة)

= ذيل تاريخ دمشق، نشره مع مقدمة إنجليزية أمدروز، بيروت، ١٩٠٨ م.

القلقشندى (أبو العباس أحمد)

= صبح الأعشــى فــى صناعـة الإنشـا، ١٤ جـزءا، مطبعـة دار الكتـب المصريـة، القـاهرة، ١٩١٣م - ١٩١٩ م.

= ضوء الصبح المسفر وجنى الدوح المثمر، القاهرة ١٣٢٤ هـ = ١٩٠٦ م.

ابن كثير (عماد الدين أبو الفدا إسماعيل بن عمر)

= البداية والنهاية، ٤ أجزاء، القاهرة، ١٣٥٨ هـ.

كرد على (محمد)

= خطط الشام ، ٦ أجزاء ، دمشق ١٩٢٥م - ١٩٢٨م.

= غوطة دمشق، دمشق، ١٣٦٨ هـ - ١٩٤٩ م.

الكرملى (الأب أنستاس مارى)

= ألقاب الشرف والتعظيم عند العرب، بحث فــى مجلـة الرسـالة، العـدد ٤١١، ١٩ مـايو سنة ١٩٤١ م.

الكندى (أبو عمر محمد بن يوسف)

= كتاب الولاة والقضاة، به ذيل مأخوذ معظمه من كتاب «رفع الإصر عن قضـاة مصـر» لابـن حجر العسقلانى، طبعة رفن جست

(E. J. V. Gibb Memerial Series, Vol. XIX, 1912).

ابن مالك (محمد بن أبى الفضائل الحمادى اليمانى)

= كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة، القاهرة، ١٩٣٩م.

الماوردى (أبو الحسن على بن محمد)

= الأحكام السلطانية، القاهرة، ١٢٩٨هـ

مبارك (على)

= الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة ٢٠ جزءًا، القاهرة، ١٣٠٦ هـ.

محمد بن الحسن (الديلمى اليمانى)

= قواعد عقائد آل محمد، القاهرة، ١٩٥٠ م.

مختار (اللواء محمد، باشا)

= التوفيقات الإلهامية فى مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الافرنكية والقبطية، مطبعة بولاق، القاهرة، ١٣١١ هـ.

مرسى (محمد كامل)

= الملكية العقارية فى مصر وتطورها التاريخى من عهد الفراعنة إلى الآن، القاهرة، ١٣٥٥ هـ - ١٩٣٦ م.

مرضى بن على بن مرضى الطرطوسى

= تبصرة أرباب الألباب فى كيفية النجاة فى الحروب من الأسواء، نشر أجزاء منها مع ترجمة فرنسية وتعليقات الأستاذ كلود كاهن.

المسعودى (أبو الحسن على بن الحسين)

= التنبيه والإشراف، القاهرة، ١٩٣٨ م.

مصلحة البريد

= تاريخ البريد فى مصر، القاهرة ١٩٣٤م، وضع بمناسبة انعقاد مؤتمر البريد العالمى العاشر بالقاهرة وللذكرى السبعينية لإنشاء مصلحة البريد.

مصلحة المساحة المصرية

= فهرس مواقع الأمكنة، بولاق، ١٩٣٢ م.

المقريزى (تقى الدين أحمد بن على)

= اتعاظ الحنفا بذكر الأئمة الفاطميين الخلفا، نشر الدكتور جمال الدين الشيال، القاهرة، ١٩٤٨ م.

= اتعاظ الحنفا بذكر الأئمة الفاطميين الخلف، مخطوطة طوب قبو سواى.

= إغاثة الأمة بكشف الغمة، نشر الدكتورين محمد مصطفى زيادة وجمال الدين الشيال، القاهرة، ١٩٤٠.

= إمتاع الأسماع بما للرسول من الأنباء والأموال والحفدة والمتاع، الجزء الأول نشر محمود شاكر، القاهرة، ١٩٤١ م.

= البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب، نشر إبراهيم رمزى، القاهرة، ١٩١٦ م.

= السلوك لمعرفة دول الملوك، نشر الدكتور محمد مصطفى زيادة (ظهر منه الجزء الأول فى ٣ مجلدات والجزء الثانى فى ٣ مجلدات)، القاهرة، ١٩٣٤ م - ١٩٤٢ م.

= الذهب المسبوك بذكر من حج من الخلفاء والملوك، نشر جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٥٥ م.

= المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ٤ أجزاء، مطبعة النيل بالقاهرة ١٣٢٤ هـ - ١٣٢٦ هـ.

= نحل عبر النحل، نشر الدكتور جمال الدين الشيال، القاهرة، ١٩٤٦ م الملطى (أبو الفرج، جريجورى المسمى بارهبرايس)

= مختصر الدول، بيروت، ١٩٨٠ م.

ابن مماتى (الأسعد بن مليح)

= قوانين الدواوين، مطبعة الوطن بالقاهرة ١٢٩٩ هـ، ونشره الدكتور عزيز سوريال عطية، مطبعة مصر بالقاهرة، ١٩٤٣ م.

ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الإفريقى المصرى)

لسان العرب، ٢٠ جزء ١، بولاق، ١٣٠٢ - ١٣٠٧ هـ.

ابن منقذ (أسامة)

= كتاب الاعتبار، نشر فيليب حتى.

النعسانى (الشيخ طاهر)

= أسامة بن منقذ، محاضرة ألقيت فى المجمع العلمى العربى بدمشق، ١٩١٥، طبعت فى حماة (بدون تاريخ).

النويرى (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب)

= نهاية الأرب فى فنون الأدب، ظهر منه إلى الآن ١٨ جزءًا، طبع دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٢٣م - ١٩٥٦م.

ابن هذيل (على عبد الرحمن، الأندلسى)

= حلية الفرسان، وشعار الشجعان. نشر محمد عبد الغنى حسن، القاهرة، ١٩٤٩م.

ابن هشام (أبو محمد عبد الملك)

= السيرة النبوية نشر مصطفى السقا وإبراهيم الابيارى وعبد الحفيظ شلبى ٤، أجزاء، القاهرة، ١٩٣٦ م.

الهيتمى (أحمد شهاب الدين بن محمد بدر الدين بن محمد شمس الدين بن على نور الدين ابن حجر).

= كتاب الفتاوى الكبرى الفقهية، جزءان، القاهرة، ١٣٠٨ هـ.

ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم)

= مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب، نشر جمال الدين الشيال، ظهر منه ٣ أجزاء، القاهرة، ١٩٥٣ و ١٩٥٧ و ١٩٦١.

ابن الوردى (زيد الدين عمر)

= تاريخ ابن الوردى، جزءان.

ياقوت (شهاب الدين أبو عبد الله الحموى)

= معجم البلدان، ليبزج، ١٨٧٠ م.

= معجم الأدباء، طبعة فريد رفاعى، ٢٠ جزءًا القاهرة، ١٩٣٦ م.

المراجع غير العربية

Allan (J.)

= The Cambridge Shorter History of India (Cambridge, 1924).

Allen

= History of the Georgian People. London, 1932.

Aly (Bahgat)

= Les Manufactures d'étoffe en Egypte, au Moyen-Age. (Le Caire, 1904).

Arnold (T. W.)

= The Caliphate, (Oxford, 1924).

Atiya (A. S.)

= The Crusade in the Later Middle Ages. (London, 1938).

= Egypt and Aragon, (Leipzig, 1939).

Embassis and Diplomatic Correspondences between 1300 and 1330 A. D.

= An unpublished XIV th Century Fatwa on the Status of Foreigners in the Mamluk Egypt and Syria.

= Studien Zur Geschichte des Nahen and Fernen Ostens (Festchrift Paul Kahle) Leiden, 1635, pp. 55 et Seq.

Blochet (E.)

= Histoire d'Egypte de Makrizi (Paris, 1908). (Extriat de la Revue d'Orient Latin, tomes VI. VIII-XI).

Brockelman (S.)

= Geschichte der Arabischen Litteratur, 2 vols. (Weimar, 1898-1902).

Browne (E. G.).

= Literary History of Persia – from the Earliest Times until Firdawsi.

(Lond., 1909).

= Literary History of Persia under Tartar Domination (1265 – 1502 A. D.) Vol. II (Cambridge, 1928).

Budge (E.A.W.)

= A History of Ethiopia: Nubia and Abbyssinia.
2 Vols.

Cahen (CLAUDE).

= La Syrie du Nord à l'Epoque de Croisades et La Principauté Franque D'Antioche, Paris, 1940.

= Un Traité d'Armurerie Composé pour Saladin. (Extrait du Bulletin d'Etudes Orientales. Damas. Tome XII, 1947-1948).

= Correspondance de Diyá ad-Din Ibn al-Athir (B.S.O.S. vol. XIV. Part 1).

= La Tughrâ Sejukide (Journal Asiatique, 1945)

= Une Chronique Syrienne du VI (XII) Siècle.

Le Bustan Al-Jam'i, (Bullectin d'Etudes Orientales de l'Institut Français de Damas. 1938).

(Cam. Med. Hist.): Cambrigde Medieval History (vol. IV).

Gasanova

= Les Dernièrs Fatimides. (Mémoires de la Mission Archéologique Française du Caire, Tome VI, 1893. pp. 415-445).

Christensen (A.).

= L'Empire des Sassanides. (Copenhague, 1907, Mémoires de ;'Academie Royale des Scienceset des Lettres de Denmark).

Colin (G. S.) et E. Lévi – Provençal.

= Un Manuel Hispanique de Hisba. (Paris, 1931).

D'Hosson (Baron).

= Histoire des Mongols depuis Techinguiz Khan jusqu' à Timour Bey ou Tamerlan. Vol. III (The Hague Amsterdam, 1934 – 1835).

Demombynes (G.)

= La Syrie A L'Epoque des Mamelouks (Paris, 1922).

De Sacy (S.)

= Bibiothéque des Arabissants Français (Le Caire, 1933). (Mem. I. F. A. Caire).

Devonshire (R. L.)

= Rambles in Cairo. (Cairo, 1931).

The Cambridge Shorier History of India (Cambridge, 1924).

Dozy (R.Q.A.)

= Dictionnaire des Noms des Vétements chez les Arabes. Amesterdam, Müller, 1845.

= Supplément Aux Dictionnaires Arabes. Brill, Leiden, 1881.

Dussaud (R.)

= Topographie Historique de la Syrie Antique et Médiévale. Paris, 1927.

Ehrenkreutz.

= The Standard of Fineness of Gold Coins Circulating in Egypt at the time of the Crusades. (Jouraal of the American Oriental Society. Vol. 74, No. 3 July-Sept. 1954. pp. 162-166).

= Extracts from the Technical Manual on the Ayyubid Mint in Caito (B.O.A.S. 1953. XV/3. pp. 424-447).

Encylopedia of Islam.

Gerald de Gaury.

= Rulers of Mecca. London, 1951.

Gibb (H. A. R.)

= Arabic Sources for the Life of Saladin. (Speculum. Vol. XXV. No. 1 January 1950. pp. 58-74).

Hassan (H. I.).

= Relations between Egypt and the Caliphate. (Cairo, 1940).

Hautcoeur (L.) et Wiet (G.).

= Les Mosquées du Caire (2 vols.), (Cairo, 1932).

Heyd: (W.).

= Histoire du Commerce du Levant au Moyen-Ages Vol. II, (Leipzig, 1925).

= Histoire des Patriarches d'Alexandrie. Trad. : Blochet, Revue de L'Orient Latin, 1907.

Hitti (Philip).

= An Arab Syrian Gentleman and Warrior in the Period of the Crusades. New York, 1929.

= The History of the Arabs. (London, 1940).

Haworth (Sir Henry).

= History of the Mongols. Part III Vol. IV London. 1976-1988.

Ibn Jubayr.

= The Travels of -- Edited by W. Wright, second edition revised by M. J. De Goeje. Leyden, 1907.

Ibn al-Qalanisi.

= Damas De 1075 A 1154. (Traduction annotée d'un fragment de l'Histoire De Damas d'Ibn al-Qalânisè par Roger Le Tourneau). Damas, 1932.

Kay (H. Cassels)

= Yaman, Its Early Médival History. London, 1982.

Kindermann.

= Sehiff im Arabischen. Zwickaw, 1934.

King

= The Knights Hospitallers in the Holy Land. London. 1931.

Lane – Poole (St.)

= Mohammadan Dynasties. Westminster, 1894.

= Saladin and the Fall of the Kiugdom of Jerusalem. London, 1898.

= The art of the Saracens. London. 1888.

= The Story of Cairo. London, 1902.

= History of Egypt in the Middle Ages. London, 1912.

= Medieval India Uder Muhammadan Rule-London, 1912.

Lavoix (H.).

= Catalogue de Monnaies Musulmanes de la Bibliotèque Nationale, Egypt et Syrie.

Leuis (Bernard).

= The Origins of Ismà'ilism. Cambridge, 1940.

= Saladin and the Assassins. (B. S. O. A. S. 1953. XV/2).

= The Sources for the History of Syrian Assassins (Speculenm, 1952 XXVIII/4).

Le Strange (Y.)

= Palestine Under the Moslems. London, 1980.

Marcel (M. J. J.)

= Histoire de l'Egypte depuis la Conquête des Arabes Jusqu'à l'Expedition Française Paris, 1848.

Mayer (L. A.)

Saracenic Heraldry, Oxford, 1933.

Merçier (L.)

= La Chasse et les Sportes chex les Arabes. Paris, 1927.

Michel (B.)

= L'Organisation Financière de l'Egypte sous les Sultans Mamlouks d'après Qalqachandi. Lé Caire, 1925.

= (Extrait de bulletin de l'institut d'Egypte, t. VII. Session 1924-1925.

Muir (W. E.)

= The Mameluks or Slave Dynasty of Egypt. London, 1896.

= The Caliphate, its Rise, Decline and Fall. Oxford, 1902.

O'Leary (De Lacy).

= A Short History of the Fatimid Khalifate. London, 1923.

Paetow.

= A Guide to the Study of Medieval History. London, 1921.

Poliak (A. N.).

= Feudalism in Egypt, Syria, Palestine and Labanon. London, 1939.

= Les Revoltes Populaires en Egypte à l'Epoque des Memelouks et leurs Causes Economiques. Vol. 8 (1934).

Quatremère (E.).

= Histoire de Sultans Mamlouks de l'Egypte. 2 vols., Paris, 1837-1845.

= Recueil des Historiens des Croissdes (Historiens Occidentaux).

Rikabi (Gawddt).

= La Poésie Profane sous les Ayyubides. Paris. 1949.

Runciman.

= A History of the Crusades. Vol. I The First Crusade. Vol. 2 The Kingdom of Jerusalem. Cambridge University Press. 1951-1952.

Sanhoury (A. A.)

= Le Califat. Paris, 1926.

Souvaget.

= Monuments Historiques de Damas.

Steingass (F.).

= Persian English Dictionary. London, 1930.

Stern (S. M.)

= The Succession of the Fatimid Imam Al-Amir. The Claims of the Later Fatimids to the Imamate and the Rise of Tayyibi Ismailism. (Oriens, vol. 4, No. 2, pp. 193 ff).

Stevenson.

= The Crusaders in the Fast. Combridge University Press. 1907.

Taimiya (Taki D. Din Ahmed).

= "Essai sur les Dactrines Sociales et Politiques". Le Caire, l'Institut Français d'Archéologie Orientale, 1939.

Toussoun (Le Prince Omaar)

= Le Géographie de'Egypte à l'Epowue Arabe 1. Ière 1 2 partiers, (Mémoires de la Société Royale de Géogrophie d'Egype, t VIII. 1ère, 2 ème. parties. Le Caire, 1926-1928.

Van Berchem (Max).

= Materiaux pour un Corpus Inscriptionum Arabicarum. Le Caire, 1824 (Mem. I.F.A. Caire).

Weill (D.)

= Cataloque Général du Musée Arabe, objets en Cuivre, t. III.

Well (G.)

= Geschichte de Abbasiden chalifas in Egypten. Stuttgart, 1860-1862. Vo. I.

Wiet (G.).

= Historie de la Nation Egyptienne, t. IV (L'Egypte Arabe). Paris, 1926.

Précis de l'Histoire d'Egypte, t. II. L Caire, 1931.

= Les Biographies du Manhal Safi. Memoires présentés à l'Institut d'Egypt. Le Caire, 1932.

= Trois formules d'independence dans L'Egypte Mediévale. Ed. de la Revue du Caire, 1945.

= Corpus Inscriptionum Arabicarum. Egypt, tome II. Mem de l'Institut fr. d'archéologie Orientale, 1930.

Wright (R.N.)

= The Coins and Metrology of the Sultan of Delbi, 1936.

Zambaur (E. De.)

= Manuel de Genealogic et de Chronolagic pour l'Histoire de l'Islam. Hanovre, 1927.

Zaky Hassan

= Les Tulunides. Paris, 1934.

Ziada (M. Mostafa)

= The Mamlouck Conquest of Cyprus in the 15th Century. (Bulletin of the Faculty of Arts. Egyptian University, Cairo, vol I. Part I 1933. Vol. II, Part I, 1934)..